

3 1761 04440 2790

PJ

7816

I55B3



فهرس

٥	مقدمة
٩	الأبوة فى المجتمع العربى
٢١	الأثنى فى المجتمع العربى
٤٥	الأخوات الأربع
٧١	زينب الكبرى
١٠٣	رقية ، ذات الهجرتين
١٣٣	أم كلثوم
١٤٧	فاطمة الزهراء

ثم أغمضت عينيها ونامت ! ..

وقام « على » فاحتملها باكيا ، ودفنها بالبقيع ، ثم ودّعها وعاد محزونًا الى صغاره ، والى البيت الذى أوحش من بعد « الزهراء » ..
وبات المسلمون محزونين ، بعد أن شيعوا الى القبر آخر بنات النبى ، ولما تمض ستة أشهر بعد وفاته ، على أرجح الأقوال (١) ..

وعاد الشمل الممزق فالتأم من جديد ولكن فى غير هذا العالم ، فضم ثرى يثرب جثمان فاطمة كما ضم جثمان أبيها صلى الله عليه وسلم وأخواتها الثلاث : زينب ، ورقية ، وأم كلثوم ، رضوان الله عليهن ..
وطوى القدر الصفحة الأولى من حياة الزهراء ، ثم ما ليث أن عاد بعد حين الى الكتاب التاريخى الحافل ، ليملأه بنضال الشيعة ، ومأساة كربلاء ، ومصارع الطالبين ، وخدعة الدعوة العباسية ، وقيام الدولة الفاطمية ، وما حف بذلك من جليل الأحداث ، وما تخلف عن ذلك كله من بعيد الآثار فى حياة العقيدة الاسلامية ، وفى التاريخ المذهبى والسياسى للمسلمين ! ..

(١) طبقات ابن سعد : ١٧/٨ - وجمهرة أنساب العرب ١٤ والاستيعاب : ٢٨٨٨/٤

أحبنى ، ومن أرضى فاطمة فقد أرضاني ، ومن أسخط فاطمة فقد
أسخطني ؟ ..

أجابا : بلى ، سمعناه من رسول الله صلى الله عليه وسلم ..
قالت : فاني أشهد الله وملائكته أنكما أسخطتماني وما أرضيتماني ،
ولئن لقيت رسول الله لأشكوكما اليه ..

فارتاعا لما سمعا ، وخرج أبو بكر الى الناس والدمع ينساب من
مقلتيه ، فسألهم أن يقلوه من بيعتهم ، لكنهم أبوا حتى لا تكون
فتنة ! .. (١)

ولا يذكر المؤرخون - فيما قرأت - أن الزهراء قد حاولت بعد ذلك
أن تسترجع ما فات ، وإنما الذي وعاه التاريخ أنها أسلمت نفسها
للحزن ، فلم تترك قط منذ مات أبوها صلى الله عليه وسلم ، الا محزونة
باكية ..

وعز العزاء وغلب الصيب ، ولم يبق لها من رجاء الا أن تلحق بأبيها
كما بشرها قبل الرحيل ..
وما أسرع ما لحقت به ! ..

أصبحت يوم الاثنين ، الثاني من رمضان سنة احدى عشرة ، فعانت
أهلها وملأت عينيها منهم ، ثم دعت اليها « أم رافع » مولاة أبيها عليه
الصلاة والسلام ، فقالت لها بصوت واهن خفيض :
- يا أمه ، اسكبي لى غسلا ..

واغتسلت كأحسن ما كانت تغتسل ، ثم لبست ثيابا لها جددا كانت
قد نبذتها حدادا ، ثم قالت لأم رافع :
« اجعلي فراشي في وسط البيت » ..

فلما فعلت ، اضطجعت عليه واستقبلت القبلة ، تنهياً للقاء ربها ، ولقاء
أبيها الحبيب ..

(١) أنظر صحيح البخارى ك ١/٥٧ وصحيح مسلم ٥٢/٢٢ وطبقات ابن سعد : ج ٢ ، ج
٨ . وسنن الترمذى ٤٤/١٩

وترد فاطمة : « ما صنع أبو الحسن الا ما ينبغي ، ولقد صنعوا ما الله
حسيهم وطلبهم » ..

ورجعت الى بيتها فلزمته ، فما راعها حين أصبحت الا ضجة قد علت
قريبا من الباب ، وتناهى اليها صوت « عمر » يحاول أن يدخل ، وهو
يقسم منذرا ، أن سوف يحمل « عليا » على البيعة اتقاء الفتنة وخوفا
من تفرق كلمة المسلمين وانتشار قواهم . فصاحت الزهراء بلاء لوعنتها :
« يا أبت رسول الله ، ماذا لقينا بعدك من ابن الخطاب وابن أبي
قحافة ؟ » ..

فضج الناس بالبكاء ، ومضى « عمر » محزونا مغلوبا على أمره ، فأنتى
« أبا بكر » وسأله أن ينطق معه الى « الزهراء » لعلهما يحاولان
استرضاءها ..

واستأذنا عليها فلم تأذن لهما ، حتى جاء « علي » وأدخلهما فسلما ،
لكنها أشاحت بوجهها عنهما واستدارت الى الحائط معرضة مغضبة ..
واستطاع « أبو بكر » رضى الله عنه أن يجد صوته ويقول :

— يا حبيبة رسول الله ، والله ان قرابة رسول الله أحب الى من
قرايتى ، وانك لأحب الى من عائشة ابنتى ، ولوددت يوم مات أبوك
أنى مت ولا أبقى بعده ، أفترانى أعرفك ، وأعرف فضلك وشرفك ،
وأمنعك حقلك وميراثك من رسول الله ، إلا أنى سمعته صلى الله عليه
وسلم يقول : لا نورث ، ما تركنا صدقة ؟ ..

فقالت فاطمة : « أرايتكما ان حدثتكما حديثا عن رسول الله صلى الله
عليه وسلم ، تعرفانه ونعملان به ؟ .. »

أجابا بصوت واحد : نعم ..

قالت : نشدتكما الله ، ألم تسمعا رسول الله يقول : رضى فاطمة من
رضاي ، وسخط فاطمة من سخطى ، فمن أحب فاطمة ابنتى فقد

« ما أتتبا أقوى على المشى منى ، وما أنا أغنى عن الأجر منكما » (١) ،
وتذاكر القوم أحاديث الرسول لعلى ، وفي على :

« أنت منى بسنزلة هرون من موسى » (٢)

« أنت منى وأنا منك » (٣)

« أنت ولشى كل مؤمن بعدى » (٤)

« من كنت مولاه ، فعلى مولاه ؟ » (٥)

« لا يحبه الا مؤمن ، ولا يبغضه الا منافق » (٦)

أهناك من هو أحق بالخلافة من « على » ربيب النبى ، وابن عمه .
أبى طالب ، وزوج ابنته الزهراء ، وأبى الحسين ريجاتتى الرسول ، وأول
الناس اسلاما ، وأطولهم فى الجهاد باعا ، وفتى قريش شجاعة وعلما ؟ ..
وأمسكت « الزهراء » صامئة لا تعقب ، ومضت أيام وهى فى عزلة .
عن الناس ، لا تنشط للنضال عن ميراثها الذى أباه عليها أبو بكر ، وهل
أبقى الحزن لها من قوة تسعفها على نضال ؟ ..
وكان بحيث تظل منظوية على جراحها وحزنها ، لو لم يدعها الواجب
الى أن تؤدى حق زوجها وولديها عليها ، فتسعى فى رد الأمر الى أهل
بيت الرسول ..

وحملها « على » فوق دابة ، وخرج بها ليلا فطافت بمجالس الأمصار
مجلسا مجلسا ، تسألهم أن يؤيدوا أبا الحسن فيما يطلب من حق جُحِد .
أجابوا جميعا : « يابنت رسول الله ، قد مضت بيعتنا لأبى بكر ، ولو
أن زوجك وابن عمك سبق الينا لما عدلنا به أحدا » ..
فكان الامام يقول : « أفكنت أدع رسول الله فى بيته ولم أدفنه ،
وأخرج أنازع فى سلطانه ؟ » (٧)

(١) طبقات ابن سعد : ١٤/٢

(٢) رواد البخارى ، ومسلم ، والترمذى ، وابن ماجة ، وابن حنبل

(٣) رواد البخارى ، والترمذى ، وابن ماجة ، وابن حنبل

(٤) رواد الترمذى وابن حنبل

(٥) رواد ابن حنبل ، فى أكثر من موضع

(٦) رواد الترمذى وابن ماجة وابن حنبل

(٧) كان على رضه - هو الذى غسل الجسد الشريف ، أنظر طبقات ابن سعد ٦٠/٢

ومسند أحمد : ٢٦٧/١ - والسيرة ج ٤

من بنى هاشم ، فتحدثوا على مسمع منها بالذى كان من أمر البيعة ..
وتذاكروا بلاء « على » فى نصره الاسلام ، ومكانه من رسول الله :
لقد شهد « على » مع الرسول مشاهده كلها ..
وكان يحمل لواء المهاجرين يوم أحد ، ولواء الرسول يوم غزوة بنى
قريظة ، وحمراء الأسد ، ويوم حنين ..

وحمل يوم خيبر ، أول راية للاسلام .. وكان صلى الله عليه وسلم
قد اتخذها من برد لزوجته « عائشة » أم المؤمنين ، وقال :
« لأدفعن الراية الى رجل يحب الله ورسوله ، ويحبه الله ورسوله ،
ويفتح عليه .. »

فتناول « عمر بن الخطاب » لها واستشرف ، رجاء أن يدفعها الرسول
إليه . فلما كان الغد ، دعا الرسول « عليا » ودفعها اليه (١) ..
ويوم الفتح ، كانت الراية مع « سعد بن عبادة » فقال الرسول
لعلى : « أدركه فخذ الراية منه ، فكن أنت الذى تدخل بها » (٢) ..
وقاد سرايا الرسول الى « فدك » فى شعبان من السنة السادسة
للهجرة ..

والى « الفلّس : صنم طيبى » فى السنة التاسعة ..
والى « اليمن » فى السنة العاشرة ..
وعاد منها جميعا مظفرا منصورا ..
وعلى « القصواء » ناقة الرسول المباركة ، خرج « على » الى الحج
بعد الفتح بعام (٣) ..

ويوم آخى الرسول بين المهاجرين والأنصار ، اصطفى « عليا » أخا
ويوم خرج الى « بدر » غازيا ، ومعه أصحابه ، كل ثلاثة على جمل ،
اختار عليا وأبا لبابة زميلين ، وقد عرضا عليه صلى الله عليه وسلم أن
يمشيا ليستريح فى مركبه ، فأبى وقال :

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد : ٨٠/٢

(٢) السيرة : ٤٨/٤

(٣) طبقات ابن سعد : ١٢١/٢

ثم حمَّ القضاء ، ولحق محمد بالرفيق الأعلى ، وترك الزهراء من بعده
يتيمة حزينة ، لا تجد الى العزاء سبيلا ! ..

وأذهلها المصاب الفادح ، فما أفافت من غشيتها الا وقد تمت البيعة
« لأبى بكر الصديق » فى السقيفة ، ولما يكد يمضى على وفاة الرسول
غير ثمان وأربعين ساعة فحسب ! ..

وجمعت كيانها الممزق ، وتحاملت تسعى الى قبر الحبيب وما تقوى
قدمها على حملها ، حتى اذا بلغته أخذت قبضة من تراب القبر فأدنتها
من عينيها اللتين قرحهما البكاء (١) ، ثم راحت تشمها وهى تقول
متفجعة :

ماذا على مَنْ شمَّ تربةَ أحمد ألا يشم مدى الزمان غواليا ؟
صَبَّتْ علىَّ مصائب لو أنها صبت على الأيام عُدنَ لياليا !

واستعبرت باكية ، فبكى الناس لبكائها ، وتقطعت قلوبهم وهم
يرونها تفلت التراب من بين أناملها فى حركة يائسة ، ثم تحدى فى يديها
الفارغتين ، وتمضى ، كمن فرغت من الدنيا ! ..

وأبعوها عيونهم الدامعة وقلوبهم المتصدعة ، حتى اذا بلغت دارها
استأذن عليها « أنس بن مالك : خادم أبيها النبى » وراح يسألها الصبر
الجميل ..

قالت له معاتبه : « كيف مكنك قلبك أن تسلم للأرض جثة رسول
الله ؟ .. »

فشقق بدمعه دون أن يجرؤ هو أو سواد على أن يعاود الحديث فى
الصبر والعزاء ! ..

الصبر والعزاء ؟ .. كيف وكل مصاب بعد مصابها لم ! ؟ ..

ودخل على اثره زوجها « على » كرم الله وجهه ، وفى صحبته رجال

(١) صحيح البخارى : ٦٤ ك ، ٨٢ باب وطبقات ابن سعد ٢/٢ ومسنند أحمد : ١٤١/٣

ثم قبلها وأجلسها الى يمينه وأسرَّ اليها أنه يحسب أن قد حان أجله ،
فلما بكت هَوَّنَ عليها بقوله : (١)

« وانك أول أهل بيتي لحوقا بى » ثم أضاف : « ألا ترضين أن
تكونى سيده نساء هذه الأمة ؟ » ..

فسرَّها ما سمعت ، وضحكت بعد بكاء ، فعجبت عائشة وقالت :
« ما رأيت كاليوم فرحا أقرب الى حزن ! » ثم سألت الزهراء حين
سنتحت فرصة ، عما أسرَّ به الرسول اليها . فأجابت أم أيها :
« ما كنت لأفشى على رسول الله سرَّه ! » ..

وأنصرفت يومئذ الى دارها ، وقد رد اليها بعض طمأنيتها أن رأت
أباها صلى الله عليه وسلم صحيحا معافى ..

فلما بلغها بعد أيام أنه يشكو ، ساورها قلق مشوب بالخوف ،
وأسرعت الى بيت أبيها وهى تحس أن قلبها قد سقط من موضعه فى
صدرها ..

ورأته يتحامل على نفسه ، ويتجمل بالصبر ، ويدور على نسائه أمهات
المؤمنين كمألوف عادته ، حتى اذا بلغ بيت « أم المؤمنين ميمونة بنت
الحارث الهاللية » تمامً به وجعه فدعا زوجاته اليه واستأذنه فى أن
يمرض فى بيت عائشة (٢) ..

وأقامت « الزهراء » الى جانبه تخدمه وتسهر عليه حانية متجلدة ،
تتكلف الصبر ، ولا تكف عن الدعاء والابتهال ..

لكن تجلدها خانها حين رأته وقد اشتد به الوجع ، يأخذ الماء بيده
ويجعل على رأسه وهو يقول : وا كرباه ! ..

فخنتها العبرة وقالت بصوت يفيض حزنا ولوعة :
« وا كرى لكربك يا أبتاه ! » ..

فرد عليها وهو يرنو اليها فى عطف وحنو :
« لا كرب على أيبك بعد اليوم ! » ..

(١) صحيح البخارى : ١٢/٦٢ - وصحيح مسلم : ٦٧/٤٤ وطبقات ابن سعد ، ١٦/٨
(٢) الاستيعاب : ج ٨ ترجمة السيدة عائشة وأنظر معه السيرة ج ٤ وتاريخ الطبرى

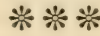
الى دار الهجرة التي اختارها منزلا ومقاما ..

وراحت « الزهراء » تودع دار الصبا ، وتزور قبر « خديجة » قبل أن يحين الرحيل ! ..

ولم يجاوز مقامها بمكة غير شهرين وبعض شهر : جاءتها في شهر رمضان من العام الثامن للهجرة ، وغادرتها مع أبيها الى مدينة الأنصار ، في أخريات ذى الحجة من العام نفسه ..

لكنما كان الأمر كله ، كما قالت فاطمة في الليلة الأولى بعد الفتح ، جلسا في الكرى أو رؤيا منام ..

وقد امتد الحلم الهنيء عامين ، سعدت فيهما « الزهراء » بصحبة أبيها تستجلى طلعه البهية في الغدو والآصال ، وتنعم بحبه المضاعف لها ولبنيتها وزوجها ، ما شاء الله لها أن تنعم . وقد أتيح لها في تلك الفترة أن تسترد بعض ما ذهبت به الصدمات الأولى من قواها ، فتتوفر على تربية بنيتها - أحفاد الرسول وأحبابه - تاركة شئون الدار لخدام جاء بها « على » بعد أن أيسر بما ناله من غنائم الفتح والنصر !



ثم كانت اليقظة المروعة !

شكا أبو الزهراء صلى الله عليه وسلم من مرض ألمَّ به ، في ليالٍ بقين من صفر في السنة الحادية عشرة للهجرة ، فحسب آل البيت والمسلمون أنها وعكة طارئة لا تلبث أن تزول ، دون أن يجرؤ أحد على الظن بأنه مرض الموت ! ..

غير أن « أم أبيها ، الزهراء » لم تكد تسمع بشكوى أبيها النبي ، حتى أجفلت وكأنما لسعتها نار ! ..

ذلك أنها ذكرت حديثا أسرَّ به صلى الله عليه وسلم اليها منذ أيام ، وكانت قد جاءت لزيارته وهو عند أم المؤمنين عائشة ، فلما رآها أبوها مقبلة ، أشبه أحدٍ به سستا وهديا ، على ما وصفت عائشة ، هتسَّ للقائها قائلا : « مرحبا بابنتي » ..

— فأين أنت من ذلك يا سعد ؟

أجاب الرجل : « يا رسول الله ، ما أنا إلا من قومي .. »

فلم تبد على النبي العربي بادرة ضيق أو ضجر ، بل عطف على صاحبه وطلب إليه أن يجمع له قومه الأنصار ، فلما فعل « سعد » ، خرج إليهم الرسول فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

« يا معشر الأنصار ، ما قالة بلغتني عنكم ، وجدة وجدتموها علي في أنفسكم ؟ .. ألم آتكم ضللاً لا فهداكم الله ، وعالة فأغناكم الله ، وأعداء فأكف بين قلوبكم ؟ .. »

أجابوا : « بلى ، الله ورسوله أمّن وأفضل » ..

قال : « ألا تجيبونني يا معشر الأنصار ؟ .. »

قالوا مشفقين : « بماذا نجيبك يا رسول الله ؟ .. لله ولرسوله المنّ

والفضل » ..

فما راعهم الا أن قال النبي الكريم :

« أما والله لو شئتم لقلتم فلصدقتم ولصدقتم : أتيتنا مكذباً فصدقناك ، ومخذولاً فنصرناك ، وطريداً فأويناك ، وعائلاً فأسيناك ! .. أوجدتم يا معشر الأنصار في أنفسكم ، في لعاعة — بقلة خضراء ناعمة — من الدنيا تألفت بها قوماً ليسلموا ، ووكلتكم الى إسلامكم ؟ ... ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير وترجعوا برسول الله الى رحالكم ؟ .. فوالذي نفس محمد بيده ، لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار ، ولو سلك الناس شعباً وسلكت شعباً لسلكت شعب الأنصار ! .. اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار ! .. »

فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم ، وهتفوا بملء أيمانهم : رضينا برسول الله قسماً وحظاً ! (١) ..

وكذلك بكى أهل مكة ، وقد رأوا الرسول يوشك أن ينصرف راجعاً

(١) السيرة : ١٤٢/٤ وتاريخ الطبرى ، غزوة الطائف ، حوادث السنة الثامنة

وأصبحت تمنى نفسها بالعودة الى دار مولدها ، ومرتع صباها وصبا
« على » ربيب النبي ، ولكن هذه الدار كانت قد انتقلت على أثر الهجرة
الى ملك « عقيل بن أبي طالب » وقد سئل الرسول يومئذ : ألا
تنزل منزلك ؟

فقال : « وهل ترك لنا عقيل منزلا ؟ (١) »

وتساءلت الزهراء : ترى أى دار يختار أبى لتكون لنا فى مكة منزلا ؟
وكذلك تساءل الأنصار ، وقد ظنوا أن الرسول مقيم بمكة ، لما
رأوا من ابتهاجه صلى الله عليه وسلم بإسلام قريش ، وحرصه على
تألفهم ، وغبطته بالرجوع الى مكة بعد طول اغتراب ..
وقال قائلهم : « لقد لقي والله رسول الله صلى الله عليه وسلم
قومه ! .. »

وأنشد شاعرهم « حسان بن ثابت الأنصارى » يعاتب الرسول على
إيثاره قريشا وقبائل العرب بالعطاء والفيء دون الأنصار :

وأت الرسول قتل : ياخير مؤتمن	للمؤمنين اذا ما عدد البشر
علام تدعى « سليم » وهى نازحة	قدأم قومهم آووا وهم نصروا ؟
سماهم الله أنصارا بنصرهم	دين الهدى وعوان الحرب تستعر
وسارعوا فى سبيل الله واعترفوا	للنائبات وما ضاقوا وما ضجروا
والناس الب علينا فيك ، ليس لنا	الا السيوف وأطراف القنا وزر
فما ونينا ، وما خنتنا ، وما خبروا	منا عثارا وكل الناس قدعثروا!! (٢)

وبلغ الصوت مسمع « فاطمة » كما بلغ مسمع كل من فى مكة ،
فقدرت أن لهذا العتاب ما بعده ، وأشفتت من الموقف الصعب ، وان
اطمأنت الى أن أباه صلى الله عليه وسلم سوف يجد منه مخرجا ..

لكن أى مخرج ؟

لم تدر « فاطمة » على التحديد ، حتى سمعت أباه يسأل « سعد بن
عبادة » وقد شكاه له ما تجد الأنصار :

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد : ٩٨/٢
(٢) السيرة : ١٤٠/٤

وأقبل المساء رقيقاً ندياً بعد نهار حار ، حافل بالحركة والضجيج ، فضمت « أم القرى » جناحيها على أبنائها المهاجرين العائدين ، وعلى من نزل معهم من الأنصار وبقية المسلمين ، وسهرت السماء ترعى ذلك الحشد الضخم الذى لم تشهد قط مثله حول قائد نبى ، وطافت الملائكة بحزب الله تبارك انتصاره على حزب الشيطان ..

وهناك كانت « فاطمة » غير بعيدة من أبيها البطل ، ترقد ساهرة فى فراشها ، يقظى لا تنام ..

كم شاقها فى ذلك الليل الساجى أن تتشل أمها خديجة وهى تطل من علاها على حبيها النبى فى يومه الأغر الميمون .. ؟ !

وكم شجاها أن تتشل شقيقتها الراقدين يثرب ، تسرى روحاهما الى البلد العتيق الذى لم يكتب لهما رجعة اليه ، فتطيفا بمن بقى من الأهل والأحباب ، وتشاركاً فى فرحة النصر المؤزر ؟ !

وكم رق قلبها لذكرى طفولتها الباكرة فى البيت السعيد ، حيث الشمل ملتئم والحياة حب وصفو !

وكم استهواها أن تبيت هكذا ساهرة يقظى ، حتى تسمع صوت « بلال » يؤذن لصلاة الصبح من فوق الحرم الأقدس ، فيخشع الكون لجلال الدعاء ، ويخف المؤمنون من مضاجعهم ساعين الى المسجد الحرام ، ليؤدوا للسرة الأولى فى تاريخ الاسلام ، فريضة الصبح فى البيت العتيق المطهر من الأوثان !

وقال « على » وهو يتهيأ للخروج الى صلاة الصبح :

— أما ننتِ يا أم الحسن ؟

أجابت وقد غلبها التأثر :

— بل أردت أن أستمتع بعودتنا الظافرة وأنا كاملة اليقظة ، وكأنى

أشفق اذا نمت ، أن يكون الأمر كله حلماً فى الكرى ..

ثم قامت تصلى ، وأغفت قليلاً بعد أن طال بها السهر ..

وكادت الجبال تتصدع من خشية ورهبة ، وهى تصعى الى هتاف
عشرة آلاف من المسلمين :
الله أكبر الله أكبر الله أكبر ، لا اله الا الله وحده ، نصر عبده ، وأعز
جنده ، وهزم الأحزاب وحده ، لا اله الا الله والله أكبر ...

ثم أوى البطل الظافر الى قبته ، حيث كانت « الزهراء » تنتظره
هناك ..

حدثت أم هانئ بنت أبي طالب - وكانت زوجة لهيرة بن أبي وهب
المخزومي - قالت :

« لما نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم بأعلى مكة ، فرَّ الى رجلان
من بنى مخزوم - قال ابن هشام : هما الحارث بن هشام ، وزهير بن
أمية بن المغيرة - فدخل على أخى ، على بن أبي طالب ورأهما فقال :
والله لأقتلنهما . فأغلقت عليهما باب بيتى ثم جئت رسول الله صلى الله
عليه وسلم وهو بأعلى مكة ، فوجدته يغتسل من جفنة فيها أثر العجين ،
وفاطمة ابنته تستره بثوبه ، فلما اغتسل أخذ ثوبه فتوشح به ، ثم
صلى ثماني ركعات من الضحى ، ثم انصرف الى فقال : مرحبا وأهلا
يا أم هانئ ، ما جاء بك ؟.. فأخبرته خبر الرجلين وخبر « على » فقال
صلى الله عليه وسلم : قد أجرنا من أجرنا ، وأمنا من أمنت ، فلا
يقتلنهما » (١) ..

واستراح الرسول برهة ريثما اطمأن الناس اثر موجة الفتح الدافقة ،
فخرج حتى جاء البيت الحرام وسط الجموع الزاخرة . فطاف به سبعا
على راحلته ، فلما قضى طوافه أمر ففتحت له الكعبة ثم وقف على بابها
فخطب في الناس خطبة الفتح ، ثم قال :

« يا معشر قريش ، ما ترون أنى فاعل بكم ؟.. قالوا : خيرا ، أخ
كريم وابن أخ كريم . قال : اذهبوا فأنتم الطلقاء » ..

دخل دار أبي سفيان فهو آمن ، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن « (١) ..

فتفرق الناس الى دورهم والى المسجد الحرام ، ووقف الرسول على راحلته بذى طوى ، بين كبار الصحابة ، ثانيا رأسه تواضعا لله على ما أكرمه ، حتى لتكاد الشعرات التى بين شفته وذقنه تمس الرّحّل ..

ونظّم دخول جيشه الى البلد العتيق ، فقسمه فرقا على رأس كل منها أحد كبار الصحابة ، وكانت الراية مع سعد بن عباد ، فقال الرسول لعلى « أدركه فخذ الراية منه ، فكن أنت الذى تدخل بها ! » (٢)

ومن قبل ، كان « على » حامل « العقاب » فى خير ، وهى أول راية للرسول (٣)

وكذلك حمل « على » لواء الرسول فى غزوة بنى قريظة ، ولواء المهاجرين يوم أحد (٤)

ودخل الرسول من « اذخر » حتى نزل بأعلى مكة ، وضربت له قبة هناك ، قريبا من مشوى « خديجة » ..

وصحبتة اليها ابنته « الزهراء » وقد أنساها الفرح الأكبر كل ما ألمّ بها من شجن ، منذ مرت بالمكان الذى نخس فيه « الحويرث » وراحتها وهى مهاجرة من مكة ، فألقت بها على الأرض ..

لكن أباه ، عليه الصلاة والسلام ، لم ينس ! .. وهذا هو يعهد الى امرأته من المسلمين ألا يقاتلوا الا من قاتلهم ، واستثنى نفرا سماهم بأسمائهم ، وأمر بقتلهم ولو وجدوا تحت أستار الكعبة ..

وكان من هؤلاء « الحويرث بن منبذ » وقد تولى قتله زوج الزهراء .. وسجد الرسول لله شاكرا ..

(١) السيرة : ٤٧/٤ - والاستيعاب : أبو سفيان بن حرب وقد فصلنا الحديث عن اسلامه فى الباب الخاص بابنته « أم حبيبة ، رضا » فى كتاب « نساء النبى »

(٢) السيرة : ٤٨/٤ وتاريخ الطبرى . فتح مكة

(٣) الطبقات الكبرى لابن سعد : ٧٧/٢

(٤) الطبقات الكبرى لابن سعد ٢٧/٢

وقد حمل « على » بعد ذلك لواء الرسول يوم حنين « الطبقات الكبرى ١١٧/٢ »

فصت « على » يفكر لحظة ثم أجاب :
 — لا والله ما أظنه ، ولكنى لا أجد لك غير ذلك ..
 فانصرف « أبو سفيان » وقد استقر عزمه على أن يعمل بما أشار
 « على » ، وأغلق الزوجان بابهما وجلسا يتحدثان في عجائب القدر
 وتصاريف الأيام . حتى مضى شطر من الليل فناما يحملان بالأوبة المنتظرة
 الى أم القرى : مقر الكعبة ، ومهد الصبا ، ومنزل قريش ! ..

وسار النبي من المدينة في عشرة آلاف من المسلمين ، ميمما شطر البلد
 الحرام الذي تسلل منه منذ ثمانية أعوام ولا أحد معه الا صاحبه وحموه
 الصديق ..

وخرجت « الزهراء » فيمن خرج من آل الرسول ، لتشهد العودة
 الظافرة والنصر المبين ..

ولم يفتها أن تلمح خلال النقع المثار ، تلك البقعة التي كادت تلقى
 فيها حنقها وهي في طريقها الى دار الهجرة ، مع أختها « أم كلثوم » ..
 وهاجت شجونها للذكرى : أين رقية ، وأين زينب ؟ .. لقد هاجرتا
 مثلها من مكة ، لكن الى غير رجعة أو مآب ..
 وهذه هي ، تعود ولم يبق لها من شقيقاتها الثلاث ، غير واحدة ،
 وثوت الأخرى في ثرى يثرب ..

غير أن الأطياف بقيت معها ، وهي تقترب من أم القرى ، فما انفكت
 في غمرة من شجوها وأسأها حتى بلغ الركب « مرَّ الظهران » حيث
 عسكر النبي بجيشه ترقبا للمعركة الفاصلة ..

ثم لم يكد النهار يولى ، حتى أقبل « أبو سفيان بن حرب » قائد لواء
 المشركين ، فبات ليلته بباب النبي انتظارا لأمره صلى الله عليه وسلم في أهل
 مكة ، فلما تنفس الصبح دخل على محمد فأسلم ، ثم انطلق عائدا الى مكة
 فوقف بحيث يُسمع وقال :

« يا معشر قريش ، هذا محمد قد جاءكم بما لا قبيل لكم به ، فمن

« محمد » للمسير الى مكة ، فرأى من قوة الاسلام وضخامة استعداد الجيش المعبأ للزحف على مكة ، وما روعه . فدخل على ابنته « رملة ، أم حبيبة ، زوجة الرسول » فما كاد يهيم بالجلوس على الفراش حتى طوته عنه كراهةً أن يجلس عليه وهو مشرك ، فانصرف محزوناً حتى أتى النبي فكلمه فلم يرد عليه شيئاً ، فذهب الى أبي بكر ، ثم الى عمر ، يسأله أن يكلم له الرسول ، فأبى عمر قائلاً : « أنا أشفع لكم الى رسول الله صلى الله عليه وسلم؟.. فوالله لو لم أجد الا الدر لجاهدتكم به ! » (١) وصمت « أبو سفيان » ريثما استرد أنفاسه ثم قال لابن أبي طالب : - يا على ، انك أمس القوم بى رحماً ، وانى قد جئت فى حاجة فلا أرجعن كما جئت خائباً ، فاشفع لى الى رسول الله ..

فقال على : « ويحك يا أبا سفيان !.. والله لقد عزم الرسول صلى الله عليه وسلم على أمر ما نستطيع أن نكلمه فيه .. »

فالتفت « أبو سفيان » الى الزهراء ، وكانت حتى تلك اللحظة صامتة لم تتكلم ، فقال لها وهو يشير الى غلامها « الحسن » الذى استيقظ من نومه ، وراح يدب بين يدي أمه :

- يا ابنة محمد ، هل لك أن تأمرى بئبيك هذا فيجبر بين الناس ، فيكون سيد العرب الى آخر الدهر ؟

أجابت فى هدوء : « والله ما بلغ بئبي ذلك أن يجبر بين الناس ، وما يجبر أحد على رسول الله صلى الله عليه وسلم .. »

وقام « أبو سفيان » لينصرف محسوراً ، ثم تلبث لدى الباب برهة وقال فى انكسار :

- يا أبا الحسن ، انى أرى الأمور قد اشتدت علىّ ، فانصحنى .

قال على : « والله ما أعلم لك شيئاً يعنى عنك شيئاً ، ولكنك سيد بنى كنانة ، فقم فأجر بين الناس ، ثم الحق بأرضك » .. (٢)
قال : « أو ترى ذلك مغنيا عنى شيئاً ؟ » ..

(١) السيرة : ٢٨/٤

(٢) السيرة : ٢٩/٤

ويرخى الزمن للزهراء ، لتشهد أبها البطل وهو يغزو الجزيرة بالنور الجديد ويدنو من النصر المؤزر الذى وعده الله به والمسلمين ، وتمسى رضى الله عنها ذات ليلة ، وهى تتأهب للسفر الى مكة ، وقد زاد الكرى عن عينيها قرب الأوبة الى الوطن الذى غابت عنه ثمانية أعوام ، فراحت تسامر زوجها المهاجر ، وتستعيد واياها ذكريات صباحها الحلو الذى مضى وراح :

أترى مكة لا تزال على العهد بها كما تركاها منذ سنين ، أم غيرَها كرى الغداة ومر العشى ، ومحت يد الحدثان من معاملها ما كان لكليهما بالأمس مهذا ومرتعا ؟

ودار الأهل ، حيث مولد « فاطمة » ، أتراها باقية كما كانت ، أم عدا عليها العدو فنقضها وصيرها طللا دارسا وخرابا بلقعا ؟

والكعبة الشريفة ، أما يزال الحمام الأبيض الجميل يرتع فى حماها آمنا ملء الحرية والطلاقة والحياة ، أم روعته الوثنية الغاشمة الضالة فانكمش هناك مكتنبا محزوننا مهيض الجناح ؟

وملاعب الصبا ، أما تزال تذكر مَنْ رحل عنها من الأحباب ، أم نسيتهم على مر الأيام وتطاول السنين ، فعادت لا تعرف منهم اليوم أحدا ولا ترد لسائل جوابا ؟ ..

ومثوى خديجة ، وقبر أبى طالب ، وقبور غيرهما من الأهل والعشيرة ، أما تزال محتفظة بودائعها الغالية ، أم نبشها الطغاة الكفرة وبعثروا ما بها من رفات الأعرزة الراحلين ؟

واذ هما فى غشية من شجوهما يطرق الباب ، فينهض على - كرم الله وجهه - ليرى من الطارق بليل ، وتفتح « الزهراء » عينيها وان فيهما لبقية من خدر الذكرى ، فاذا أمامهما « أبو سفيان بن حرب » حامل لواء المشركين ، وزوج آكلة الأكباد التى صنعت ما صنعت بشهداء أحد ، ثم راحت تغرى قومها بنبش قبر «أمنة أم محمد» اشتفاء وحقدا..

ويتكلم « أبو سفيان » فيذكر كيف جاء الى المدينة لمكا بلغ قريش تأهب

انسجود على غير المألوف من عاداته ، فلما قضيت الصلاة قيل له :

— يا رسول الله انك سجدت سجدة أطلتها حتى ظننا أنه قد حدث أمر أو أنه يوحي اليك ..

فقال : « كل ذلك لم يكن ، ولكن ابني ارتحلنى فكرهت أن أعجله حتى يقضى حاجته ! .. »

أو تنسى مرآه وقد وقف يوما يخطب المسلمين ، فجاء الحسن والحسين ، عليهما قميصان أحمران ، يمشيان ويعثران ، فنزل النبي صلى الله عليه وسلم من المنبر ، فحملهما ووضعهما بين يديه ثم قال يخاطب القوم :

— صدق الله : انما أموالكم وأولادكم فتنة !.. نظرتُ الى هذين الصبيين يمشيان ويعثران ، فلم أصبر حتى قطعت حديثى ورفعتهما ! .. أو تغيب عنها صورته ، وهو آخذ بكتفى الحسين ، وقدماه على قدميه صلى الله عليه وسلم ، يرقصه قائلاً : « ترق ، ترق » فما يزال الصبي يرقى حتى يضع قدميه على صدر جده ، فيقول له : افتح فاك ! .. فيفتحه ، ويقبله صلى الله عليه وسلم وهو يقول : « اللهم أحبه ، فأني أحبه ! .. »

أو يفوتها موقفه ، وقد خرج يوماً في نفر من صحابته الى طعام دعوا اليه ، فاذا بالحسين في السكة يلعب مع غلمان من أترابه ، فتقدم الرسول أمام القوم وبسط يديه محاولاً أن يمسك بحفيده ، والغلام يفرها هنا ، وها هنا ، فما زال — عليه الصلاة والسلام — يضاحكه حتى أخذه ، فوضع إحدى يديه تحت قفاه ، والأخرى تحت ذقنه ، ثم قبله وقال : « حسين منى وأنا من حسين .. أحب اللهم من أحب حسيناً ! »

وانناس من حوله خاشعون اجلالاً ، يقول قائلهم : أراه صلى الله عليه وسلم يصنع هذا بحفيده ، فوالله ان لى ولدا وما قبَلته قط ! .. فيرد النبي الانسان ، وقد أنكر هذه الغلظة الجافية :

« من لا يرحم ، لا يرحم ! .. »

الكبر غلامه الثالث « ابراهيم » في ذى الحجة من السنة الثامنة بعد الهجرة ، ففرت به عيناه صلى الله عليه وسلم ، لكن الفرحة لم تتم ، اذ ما لبث الهلال أن غرب ، وثكل النبي ولده الثالث قبل أن يستكمل عامه الثاني ، وأبوه اذ ذاك قد جاوز الستين من عمره ! (١)

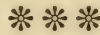
كذلك ماتت بناته الثلاث : زينب ، ورقية ، وأم كلثوم ، وهن في ربيع العمر ، وأرقدهن أبوهن الثاكل المحزون ، واحدة بعد الأخرى ، في ثرى يثرب الذى ضم جثمان أبيه عبد الله حين كان محمد لا يزال جنينا في رحم أمه « آمنة بنت وهب » ..

وعاشت له فاطمة ، كما عاش بنوها يملئون دنيا الرسول بهجة وأنسا ، ويرضون فيه عاطفة الأبوة التى آدها ثكل البنين والبنات ، ولم يبق لها الا هذه البنت الحبيبة ، تعوض أباها عن فقد ، وتعزيه عن غاب .. عاشت « الزهراء » ليظل محمد ما عاش يجد من يدعو : « يا أبت ! » وعاش ولداها ليظل النبي الانسان يسعد بترديد اللفظ العذب : « ابني » ..

وعاشت بنتاها زينب وأم كلثوم ، ليظل الأب الحنون يدعو باسم ابنتيه الراحلتين ، بعد أن أقام زمنا يفتقدهما ويمسك لسانه عن نداءهما ! ووقف التاريخ الانسانى يرقب مبهورا هذا النبي الانسان ، فى أبوته الفياضة بأنقى الحب وأصفى الحنان ، وأصغت الانسانية فى فخر واعتزاز ، الى ما تواترت به الأنباء من حديث ذلك الحب الكبير ، الذى يكشف عن جانب من عظمة الرجل المصطفى من السماء ! .. وما تزال حتى اليوم ، وحتى فرد ، والى الأبد ، تتلو هذا الحديث . وترى فيه آية من آيات الله الذى سمى ذلك البطل ، بشرا رسولا ! وهيئات لها أن تنسى مشهد النبي وهو يمشى فى أسواق المدينة حاملا أحد حفيديه على كتفه ، حتى اذا بلغ المسجد وقام للصلاة ، وضعه الى جانبه فى رفق وأقبل يوم القوم ، فتأخذهم الحيرة والعجب اذ يطيل

(١) الاسابة ج ١ - ابراهيم بن محمد ، والطبرى حوادث السنة الثامنة ، والسمط الثمين ١٤٣

ولا أصف هنا ما كان لهذا الحب الأبوى من أثر بعيد عميق في إسعاد « فاطمة » التي أرهقتها الحزن صغيرة ، وأنهكها العبء شابة ، بل لا أصف هنا مدى ما بعث في حياتها الزوجية التي عرفنا خشوتتها وقسوتها ماديا ، من بهجة وأنس وإشراق . فلقد أسعد « فاطمة » أن تكون أما لهذين الولدين الأثيرين عند أبيها صلى الله عليه وسلم ، وأرضاهما أن تستطيع بفضل الله ، أن تهيب لأبيها الحبيب - بعد أن انتقلت من بيته - هذه المتعة الغامرة التي يجدها في سبطيه الغاليين .. ولم يكن على - كرم الله وجهه - أقل منها سعادة وغبطة ، فلقد سره ، بل ازدهاه ، أن تتصل به حياة ابن عمه النبي هذا الاتصال الوثيق ، فيمتزج دمه بدم النبي الزكي ، لتخرج من صلبه ذرية سيد العرب ، وبنو بنته الزهراء ، ويذهب دون الناس جميعا بمجد الأبوة لسلالة النبي ، وآل بيته الأكرمين ..



وتتابع الثمر المبارك : ولدت الزهراء طفلتها الأولى في العام الخامس من الهجرة ، فسمها جدها « زينب » تحية لذكرى خالتها الراحلة التي لم ينسها أبوها ، ولا نسيتهما أختها « فاطمة » قط ! ..

ثم وضعت الزهراء بعد عامين من مولد « زينب » طفلة ثانية اختار لها الرسول اسم ابنته « أم كلثوم » ، كأنما كان يحس أنه ثاكلها بعد عامين اثنين ! ..

وبذلك قدر للزهراء أن تحيي بابنتيها ذكرى أختيها زينب وأم كلثوم بنتي النبي ، كما شاء لها الله أن يكون منها ولدا الرسول « الحسن والحسين » حين عزَّ الوالد ..

وحفظ الله تعالى لبيبه هذا القدر من سعادة الأبوة ، فلم يفجعه في الزهراء ولا في أحد بنيتها حتى لحق - صلى الله عليه وسلم - بالرفيق الأعلى ..

لقد مات ولداه « القاسم وعبد الله » صغيرين ، ثم رزقه الله على

الدم الهاشمي الأصيل ، وعند عبد المطلب يلتقى نسبه بنسب الرسول ،
فكلاهما له حفيد ..

وقد كان لمحمد عند أبي طالب منزلة الابن : كفله منذ بلغ الثامنة من
عمره ، حتى اذا شب واستقل بحياته بعد زواجه من السيدة خديجة ،
ضم اليه عليا ابن العم أبي طالب ، وأنزله من بيته وفي قلبه منزلة الولد
وليس لأبي العاص بن الربيع ، ولا لعثمان بن عفان ، مثل هذه
الآصرة من الرحم ولا تلك المكانة من القربى ، وان كان لكل منهما
موضعه الذي لا يسامى في قريش ، ولعثمان مكانه الذي لا يجحد في
الاسلام ..

وكان « علي » يعرف منزلته عند صهره النبي ويعتز بها الى حد
جعله يسأل الرسول ذات مرة وقد غمره فيض عطفه :
- أيهما أحب الى رسول الله : ابنته الزهراء ، أم زوجها علي ؟ ..
فأجاب الرسول في ابتسامة لبقة :
فاطمة أحب اليّ منك ، وأنت أعز عليّ منها ! ..

وليس بمستغرب بعد هذا ، أن يعي الزمن من آيات حب الرسول
للزهراء وعلي وبنيهما ، ما نستطيع معه أن نتمثل له صلى الله عليه وسلم
وهو يرنو الى بيت صهره « علي » كلما مر به ، وقلبه الكريم يخفق
حبا وحنوا ، فاذا وجد من وقته ساعة ، عرّج على دار الأجابة ، فأسعد
أهلها بعطفه ، وأسبغ على حفيديه فيضا من حنانه الغامر !

وحدث في احدى المرات أن ألقى ابنته وزوجها قد غلبهما النعاس ،
والحسن يبكي ويطلب طعاما ، فلم يهن على الأب الكريم أن يوقظ
العزيزين النائمين ، بل أسرع الى غنمة كانت تقف في ساحة الدار ،
فحلبها وسقى « الحسن » من لبنها حتى ارتوى ! ..

ومر بالبيت يوما وهو متعجل ، فبلغ مسمعه صوت بكاء الحسين ،
فدخل يقول لابنته معاتبا :

« أو ما علمت أن بكاءه يؤذيني ؟ .. »

الخمس ، وبدا أن قد انقطع خلف محمد بن عبد الله ، الا أن يكون عن طريق ابنته « الزهراء » ..

فلا عجب أن أقبل الرسول على سبطيه « الحسن والحسين » يغمرهما بكل ما امتلأ به قلبه الكبير من حب وحنان ، ويفيض عليهما من عاطفة الأبوة ما شاء له الحرمان من الولد ، على كثرة من تزوج من النساء .. بل لا عجب أن دعاهما ابنيه ، فعن أنس بن مالك أنه صلى الله عليه وسلم « كان يقول لفاطمة رضى الله عنها : ادعى لى ابنى.. فإذا ما جاءا إليه شَمَّهما وضمَّهما » ..

ونقل الترمذى فى (سننه) عن « أسامة بن زيد » أنه قال :

« طرقت باب النبى صلى الله عليه وسلم فى بعض الحاجة ، فخرج رسول الله وهو مشتمل على شىء لا أدرى ما هو ، فلما فرغت من حاجتى قلت : ما هذا الذى أنت مشتمل عليه يا رسول الله ؟ ..

« فكشفه ، فإذا الحسن والحسين ، وقال : هذان ابناى وابنا ابنتى ، اللهم انى أحبهما فأحبهما ، وأحب من يحبهما » ..

وكان اسماهما - رضى الله عنهما - نعمة حلوة فى فم أبى الزهراء ، يستعذبها ولا يمل من ترديدها ، وفيهما كان يجد أنسه وسلوته عن فقد من الأبناء ! ..

لقد آثر الله الزهراء بالنعمة الكبرى ، فحصر فى ولدها ذرية نبيه المصطفى ، وحفظ بها أشرف سلالة عرفتها البشرية منذ كانت ..

كما كرم الله وجه « على » فجعل فى صلبه نسل خاتم الأنبياء ، فكان له من هذا الشرف مجد الدهر وعزة الأبد ..

ولعل محمدا صلى الله عليه وسلم لو خيّر أى بناته تكون وعاء لنسله الطهور ، وأى أصهاره يكون أباً لأهل البيت الشريف ، لاختار ما اختاره له الله ! ..

فعلى ، أقرب أصهاره إليه مكانا وأمسبهم رحما ، فى عروقه ، يجرى

كثير من المهاجرين ، ويحاول قدر ما أطاق ، أن يترفق بها ويروض نفسه على شيء من اللين واليسر ..

ثم شاء الله أن يقر عين الزهراء وعيون من يحبونها ، فوضعت بكرها « الحسن بن علي » في السنة الثالثة من الهجرة (١) ، وسعى البشير الى أبيها النبي بالنبأ السعيد ، فخف اليها مشوقا فرحا ، وحمل وليدها بين ذراعيه ، وتلا الأذان في مسعاه ، ثم أقبل عليه يتأمله في غبطة وحنان وهو يذكر ولديه اللذين استردهما الله صغيرين قبل سن الفطام ! .. واحتفلت مدينة الرسول بمولد « الحسن » وتصدق جده صلى الله عليه وسلم على الفقراء من أهلها بزنة شعره فضة . ثم راح يرقب فتتح الحياة في هذه الفلذة الغالية منه ، فلما بلغ الوليد من العمر عاما وبعض عام ، حتى أردفته أمه الزهراء بشقيقه « الحسين » في شهر شعبان سنة أربع من الهجرة (٢) ..

وتفتح قلب النبي لهذين الحفيدين الغالين يملآن حضان أم أبيهما « الزهراء » ، ورأى فيهما امتدادا لحياته الخاصة على هذه الأرض ، ومتنفسا لما يفيض به قلبه الكبير من عاطفة الأبوة التي يئست من الولد منذ ماتت خديجة رضى الله عنها ..

كان الرسول اذ ذاك - في العام الرابع الهجرى - في نحو السابعة والخمسين . وقد مضى على وفاة خديجة ما يقرب من سبع عشرة سنة ، تزوج خلالها من خمس نساء : سودة بنت زمعة الكهولة الأرملة ، وعائشة بنت أبى بكر الصبية العذراء ، وحفصة بنت عمر الشابة الناضجة ، وزينب بنت خزيمة أم المساكين ، وأم سلمة ، هند بنت أبى أمية المخزومي زاد الركب ، وقد دخل بها في شوال من السنة الرابعة للهجرة (٣) ، وكان لها من زوجها الأول ، عبد الله بن عبد الأسد بن المغيرة ، ابن عمه الرسول براء بنت عبد المطلب : سلسة ، وعمر ، ودرة ، وزينب . ومع ذلك ، لم يرزق النبي بولد من إحدى هاتيك الزوجات

(٢٤١) الاستيعاب وطبقات ابن سعد : ترجمنا الحسن والحسين . وضمهما

(٣) تاريخ الطبرى : ٤٢/٣

ويصف لها شعوره حين سمع ابن عمه يتحدث عن ضيقه بالأذى يلحق ابنته فاطمة ، وانكاره أن يتزوج «علي» من بنت أبي جهل مع الزهراء ، وقسمه ألا يجمع بنت رسول الله وبنت عدو الله بيت واحد أبدا ! ..
واغرورت مقلتا « فاطمة » بالدموع تأثرا بحب أييها ، وانفعالا بموقفه ، ثم قامت للصلاة ! ..

وبقى سؤال ذو بال :

متى همَّ « علي » بالزواج على الزهراء بنت النبي ؟ ..
صمت المؤرخون ورجال الحديث فلم يشيروا الى موعد الخطبة ، على ما لذلك من أهمية وخطر ، لكننا نظمن الى أنها كانت في الفترة الأولى من زواجهما ، وهو اطمئنان لا يسنده دليل نقلى ، وإنما يغرينا به فهما لطبيعة الموقف ، وتقديرنا أنه أقرب احتمالا ، قبل أن يرزقا الولد ، حين كانت فاطمة وعلي في مستهل حياتهما الزوجية ، لم تألف بعد شدته وصرامته ، ولم يرض هو نفسه على احتمال ما كانت لا تزال تجد من حزن لفقد أمها ، وشجو لفراق بيتها الأول ! ..

وبهذا الاطمئنان ، نميل الى توقيت الحادثة على وجه التقريب ، بالعام الثاني من الهجرة ، قبل أن يأتيهما العام الثالث بأولى الثمرات المباركة للزواج ..

انقشعت السحابة التي ظلمت أفق « الزهراء » حين لا نحدد مداه ، وعاد البيت أصفى جوا مما كان قبل أن يمتحن بتلك التجربة القاسية ، ومضت الحياة تسير بالزوجين الكريمين على ما يرجوان من تعاون ومودة : فاطمة في الدار تقوم على خدمة زوجها ما وسعها الجهد ، وتتخلص شيئا فشيئا مما كان يعتادها من شجن وانقباض ، وعليُّ الى جانبها يبذل لها من الحذب والرعاية ما يعينها على مشقة العيش الكادح في جو « المدينة » الذي لم تسعفها صحتها على أن تألفه بسرعة كما ألقه

أو هل يقصر خيالنا عن متابعة « على » وهو ينصرف من المسجد اثر سماعه خطبة صوره النبي ، ويأخذ طريقه الى بيته بطيء الخطو ، مثل القلب يفكر فيما كان ! ؟ ..

أتراه حقا قد أراد الزواج على فاطمة ، من بنت عدو الإسلام ؟ .. كيف هان عليه جهاده الطويل الباسل في سبيل الدعوة المحمدية ؟ .. بل كيف هان عليه أن يروع أمن الحبيبة بنت الحبيب ، ويكسر قلبها بزواج مثل هذا لا يمكن أن يؤوّل الا بالرغبة في متاع حسي مادي ، لا يجده لديها ؟ ..

لقد كان لزواج « محمد » من كل واحدة من نسائه مبرراته الخاصة ، وظروفه الملجئة ، والا فما باله صلى الله عليه وسلم ، قد اكتفى بخديجة خمسا وعشرين سنة ، فلم يتزوج عليها حتى ماتت ، وقد بلغ الخمسين من عمره ، وحين كانت الأحداث الكبار تشغل باله ، والجهاد في سبيل الدين الجديد يملاّ وقته ؟ ..

ألا فلتكن بنت أبي جهل من حظ غيره ، أما هو ، فليس بالذى يحبط جهاده الباسل ، فيستبدل بالنبي ، أبا جهل بن هشام صهرا ! .. وليس هو بالذى يؤذى نبيه وأباه وابن عمه ، في أحب بناته اليه ، ولن يكون أبو العاص بن الربيع ، قبل إسلامه ، أبر منه بنت محمد ، ابن عمه عبد الله بن عبد المطلب ، ولا أرعى في مصاهرته للنبي ذماما ! ..

وينتهى به المسرى الى البيت ، حيث يجد « الزهراء » في وحدتها تجتر أحزانها وتسامر همومها ، فيدنو منها حتى يأخذ مكانه الى جانبها صامتا لا يدرى ماذا يقول ..

واذ رآها تبكى ، همس معتذرا :

— هيينى أخطأت فى حثك يا فاطمة ، فمثلك أهل للعفو والمغفرة ..

ومضت قطعة من الليل قبل أن تجيب : « غفر الله لك يا ابن العم »

فأقبل عليها مترقفا ، ثم راح يروى لها ما كان من حديث المسجد ،

واستبقي - عليه الصلاة والسلام - جمل أبي جهل ، حتى اذا توجه
للعمره - بعد أربع سنوات - ساق الجمل هديا ، ونحره يوم
الحديبية (١) ..

أتكون بنت هذا الرجل ، ضرة لفاطمة بنت النبي ؟ ..
يأبى الرسول ذلك ! ..

وانطلق صلى الله عليه وسلم الى المسجد مغضبا حتى بلغ المنبر فخطب
في صحبه قائلا :

« ان بنى هشام بن المغيرة استأذنونى أن ينكحوا ابنتهم علىَّ بن
أبى طالب ، فلا آذن لهم ثم لا آذن لهم ثم لا آذن لهم ، اللهم الا أن
يجب ابن أبى طالب أن يطلق ابنتى وينكح ابنتهم ، فان ابنتى بضعة منى
يرينى ما أرابها ويؤذنينى ما آذاها ، وإنى أتخوف أن تفتن فى دينها » ..

ثم ذكر صلى الله عليه وسلم صهره أبا العاص - وهو من بنى عبد
شمس ، لا من بنى عبد المطلب كعلى - فأثنى عليه فى مصاهرته إياه
أحسن الثناء وقال :

« حدثنى فصدقنى ، ووعدنى فأوفى لى ، وإنى لست أحرم حلالا ولا
أحل حراما ، ولكن الله لا يجمع بنت رسول الله وبنت عدو الله بيت
واحد أبدا » ..

ولقد ورد هذا الحديث فى الكتب الستة الأمهات (٢) ولكن أحدا من
الرواة لم يذكر لنا وقعه على المسلمين وصداه فى المدينة
فهل ترى يعيننا أن نتصور مدينة الرسول وقد باتت ليلتها ساهرة ،
تؤمن على قول النبي ، وترى فيه مظهرا جبيلا من مظاهر بشريته التى
طلما أصر على الاعتراف بها ، وآية ناطقة بأبوته الرحيمة التى كانت
مضرب الأمثال ، ودليلا جديدا من أدلة حبه لبناته ، هذا الحب الذى
شاء الله أن يملأ به قلب النبي المختار ، فى بيئة وأدت بناتها ؟ ! ..

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد : ٦٩/٢

(٢) صحيح البخارى ٢٩/٥٣٨ ، وصحيح مسلم : سنن أبى داود «كتاب ١٢» وفى سنن
الترمذى «كتاب ٤٦» وفى سنن ابن ماجه : ٥٦/٦ وفى مسند احمد : ٣٢٦/٤ ، ٣٢٨

وهو هو الذى اعترض وفدا من النصرارى جاءوا مكة يستظلعون
لقومهم أمر محمد حين بلغهم خبره من الحبشة ، فما جلسوا اليه
واستنعوا له حتى آمنوا به ، فلقبهم إثر انصرافهم أبو جهل فقال لهم :
« خيَّبكم الله من ركب ! .. بعثكم من وراءكم من أهل دينكم ترتادون
لهم لتأتوهم بخبر الرجل ، فلم تظنن مجالسكم عنده حتى فارقتم دينكم
وصدقتموه ؟ ! .. ما نعلم ركبا أحق منكم ! » (١) ..

وهو هو الذى رأى لقريش قبيل الهجرة ، أن تختار كل قبيلة منها
فتى شابا جليدا نسيبا ، ثم يعطى سيفا صارما ، فيعمدوا جميعا الى
محمد ويضربوه ضربة رجل واحد ، فيقتلوه ، فيتفرق دمه فى القبائل
جميعا (٢) ..

فلما هاجر الرسول ، غدا القوم وفيهم أبو جهل ، فوقفوا بباب
أبى بكر ، فخرجت اليهم أسماء فقالوا لها :
— أين أبوك يا بنت أبى بكر ؟ ..
أجابت : « لا أدري والله أين أبى .. »
فرفع « أبو جهل » يده — وكان فاحشا خبيثا — ولطم خدها لطمه
طرح قرطها ..

وحين تهيأ الفريقان للقتال فى بدر ، بعث جيش قريش من يأتيها نبيا
العدو ، فرجع اليها محذرا ، ومشى حكيم بن حزام بن خويلد الى عتبة
ابن ربيعة يروجو أن يرجع بالناس ، فكاد عتبة يستجيب له ، وسأل
« حكيم » أن يذهب الى أبى الحكم ، فما يخشى « عتبة » المخالفة من
سواه ، فلما سمع أبو جهل بهذا ، أبى الا القتال ! ..

وكان أحد سبعة ، سئع الرسول يدعو عليهم يوم بدر (٣) ..
وظل — عليه الصلاة والسلام — يقول لأصحابه : اطلبوه (٤) ..
وقتل كافرا ملعونا ، وجيء برأسه الى « محمد » فحمد الله ! ..

(٢٤١) السيرة ج ٢ صفحات : ٢٢ ، ١٢٦ ، ١٢٢

(٣) الطبقات الكبرى لابن سعد : ١٥/٢

(٤) الطبقات الكبرى لابن سعد : ١٧/٢

فأسلموني عند ذلك أو امنعوني ، فليصنع بى بعد ذلك بنو عبد مناف
ما بدا لهم « (١) ..

هو هو القائل مستهزئاً بالرسول :

« يا معشر قريش ، يزعم محمد أن جنود الله الذين يعذبونكم فى النار
ويحبسونكم فيها ، تسعة عشر ، وأنتم أكثر الناس عدداً ، أفيعجز كل
مئة رجل منكم عن رجل منهم ؟ » فنزلت فيه الآية :

« وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين
كفروا » (٢) ..

ثم هو هو القائل لمن سأله رآيه فيما سمعه من محمد :

« ماذا سمعت ؟ .. تنازعنا وبنو عبد مناف الشرف : أطعموا فأطعمنا ،
وحملوا فحملنا ، وأعطوا فأعطينا ، حتى اذا كنا كقرسى رهان قالوا :
منا نبى يأتيه الوحى من السماء ؟ .. فمتى ندرك هذه ؟ .. والله
لا تؤمن به أبداً ولا تصدقه ! .. »

وهو هو الذى كان اذا سمع برجل أسلم ، من ذوى الشرف والمنعة ،
أثبه وأخزاه ، وقال : « تركت دين أبيك وهو خير منك ؟ .. لنسفهن
حلمك ، ولنقبحن رأيك ، ولنضعن شرفك » . وان كان الذى أسلم
تاجراً ، قال : « والله لنكسدن تجارتك ، ولنهلكن مالك » . وان كان
ضعيفاً ضربه وأغرى به ..

وهو هو ، الذى لقى حكيم بن حزام بن خويلد ، يحمل طعاماً يريد
به عمته خديجة فى محنة الحصار ، فتعلق اللعين به وقال : « أأنهب
بالطعام إلى بنى هاشم ؟ .. والله لا تبرح أنت وطعامك حتى أفضحك
بسكة » وأبى أن يطلقه حتى اشتبكا ونال أحدهما من صاحبه ..

وفيه نزل قوله تعالى : « ان شجرة الزقوم طعام الأثيم ، كالمهل يغلى
فى البطون ، كغلى الحميم ! » (٣) ..

(١) السيرة : ٢١٩/١

(٢) (٣٤٢) الزمخشري ، الكشاف .. والسيرة : ٢٢٣/١ ، ٢٣٥

القائل في المرأة السارقة : « لو كانت بنت محمد فاطمة ، لقطعت يدها » ؟
 وهل استثنى الاسلام من تعدد الزوجات ، بنات نبيه الذي بلّغ
 رسالته ؟ ..

يا له من موقف بالغ الدقة والصعوبة والجرح !
 فالنبي يعلم حق « علي » في الزواج ولو على فاطمة بنت محمد ..
 ومحمد ، في أبوته الرحيمة وبشريته السوية ، يؤذيه أن تروّع أحب
 بناته بضرة ، ويشفق عليها من تجربة قاسية كهذه ، يعلم أنها لا قبل
 لها باحتمالها ..

ألا ليت « عليا » قد صبر على واحدة ، أسوة بابن عمه حين اكتفى
 بخديجة زوجة ، مدى ربع قرن من الزمان !.. اذن لأعفى الأب النبي
 من الحرج ، وأغناه عن ذلك الموقف الشائك الصعب ..

واني لأتمثله صلى الله عليه وسلم ، يرنو الى بنته الغالية وهي تترقب
 المحنة في خوف وقهر ، فتكاد لفرط أساها وقلقها ، تذوب من ضعف
 وكمد ، ويود بكل ما استطاع أن يدفع عنها ما تكره ، وأن يحميها من
 الخوف الذي يقرح أجفانها ويروع أمنها ، ويؤرق ليلاتها ، لكن الأمر
 يبدو معقدا ، فما كان لنبي أن يحرم ما أحلّ الله ! ..

وفي ظلمات الحيرة ، يلوح شعاع من الضوء ينير السبيل : إن عليا
 ذكر بنت « عمرو بن هشام المخزومي » ، فهل يرضى الله أن يجمع بيت
 « علي » بين بنت رسول الله ، وبنت عدو الله ؟

فعمرو هذا ، هو « أبو الحكم بن هشام » - أبو جهل - الذي لم
 ينس الرسول والمؤمنون ما اقترف من آثام في اضطهاد الدعوة
 الاسلامية ..

هو عدو الله الذي قال لقريش : « يا معشر قريش ، ان محمدا قد أبى
 إلا ما ترون من عيب آلهتنا وشتم آباءنا وتسفيه أحلامنا ، واني أعاهد
 الله لأجلسن له غدا بحجر ما أطيق حمله ، فإذا سجد فضخت به رأسه ..

الرفق بعلى واحتماله ..

قال « على » كرم الله وجهه وهو يصحب زوجته الى بيتها :

— والله لا آتى شيئا تكرهينه أبدا !

لكنه كاد يأتى — غير متعمد — شيئا تكرهه فاطمة أشد الكره ، وتألم منه أفدح الألم ..

وأى شىء أبغض الى زوجة كالزهراء ، من أن يأتيتها زوجها وابن عمها بضرة ! ؟

لقد همَّ « على » بالزواج على فاطمة ، وفى حسابه أنه انما يجرى على مألوف عادة قومه فى الجمع بين زوجتين وأكثر ، ويفعل ما أباحه نه الاسلام من تعدد الزوجات ، دون أن يخطر بباله أن فى هذا ما تنكره بنت نبي الاسلام !

لكن الأمر جرى على غير ما قدّر « على » ..

فما كاد يهم بالزواج من بنت عمرو بن هشام بن المغيرة المخزومى ، حتى راعه أن يرى أبا الزهراء يقبل على المسجد مغضبا ، ويخطب فى الناس منكرا على « ابن أبى طالب » أن يتزوج على فاطمة ، بنت عمرو هذا ..

لكن كيف والاسلام يبيح تعدد الزوجات ، ومحمد صلى الله عليه وسلم كان يجمع فى بيته يومئذ بين زوجات ثلاث أو أربع ، فيهن عائشة بنت أبى بكر الصديق ، وحفصة بنت عمر بن الخطاب الذى أعز الله به الاسلام ؟ ..

كيف يحرم النبي ما أحله الله ، وينكر على ابن عمه ما لم ينكره على نفسه ؟ ..

ليكن هذا الزواج مؤذيا لفاطمة ، أفلم تتعرض لمثله بنتا أبى بكر وعمر ؟ ..

وهل يأبى النبي أن يجوز على ابنته ما يجوز على كل مسلمة ، وهو

التي كانت تغشاه لفرط نزوعها الى ذكرى أمها ، ومزيد قلقها على أبيها وزوجها ، وعمق تأثرها بما لقيت ولقى أهلها والمسلمون من محن واضطهاد . لكننا أعوزها - لكي تنجح في محاولتها هذه - أن تجد الى جانبها زوجا لطيفا وديعا هينا لينا ، و « على » كرم الله وجهه لم يكن من هذا الصنف من الأزواج ، بل كانت فيه شدة أقرب الى أن تكون صرامة ، وخشونة توشك أن تشتبه بالغلظة ، وحزما يكاد يكون صلابة ، واذا كانت رضى الله عنها في حاجة الى يد حانية رقيقة ، تأسو جرحها وتسيبها ما لقيت في مستهل صباحها من متاعب وصدقات ، وتلطف أشجانها لفراق بيتها الأول الحبيب ، فقد كان « على » كرم الله وجهه لا يقل عنها حاجة الى هذه اليد اللطيفة الرحيمة التي تنفض عنه غبار المعارك التي خاضها منذ كان صبيا ..

فليس يروعنا اذن ، ما تحدث به الرواة من خلاف كان يقع أحيانا بين الزوجين ، وقد يبلغ أحيانا سماع الأب الرسول فيهتم له ويحاول جهده أن يعريهما بمزيد. من الاحتمال ..

حدثوا انه صلى الله عليه وسلم ، رأى ذات مساء وهو يسعى الى دار بنته فاطمة ، بادي الهم والقلق ، فأمضى وقتنا هناك ثم خرج ووجهه الكريم يفيض بشرا ، فقتال قائل من الصحابة : يا رسول الله . دخلت وأنت على حال ، وخرجت ونحن نرى البشر في وجهك ! ..
فأجاب عليه الصلاة والسلام :

— وما ينغني وقد أصلحت بين أحب اثنين إليّ ؟ ... (١)
وحدث مرة أن ضاقت « الزهراء » بما تجد من شدة زوجها وصلاحته ، فقالت له :

« والله لأشكونك الى رسول الله صلى الله عليه وسلم » ..
وخرجت ، و « على » في أثرها ، حتى جاءت أباه فثكت اليه ما أنكرت من زوجها (٢) ، فتلطف الأب النبيل في ترضيتها وحملها على

(١) طبقات ابن سعد : ١٦/٨

(٢) طبقات ابن سعد : ١٦/٨

ثم أضاف في رفق وهو يقدر حالهما : « ألا أخبركما بخير مما سألتناني »
 أجابا معا : « بلى يا رسول الله .. »
 قال : « كلمات علمنيهن جبريل : تسبحان الله في دبر كل صلاة عشرا ،
 وتحمدان عشرا ، وتكبران عشرا ، وإذا أويتما الى فراشكما ، تسبحان
 ثلاثا وثلاثين ، وتحمدان ثلاثا وثلاثين ، وتكبران ثلاثا وثلاثين .. »
 ثم ودعهما ومضى ، بعد أن زودهما بهذا المدد الالهى ، ولقنهما هذه
 الرياضة النفسية التى تغلب المصاعب وتهزم المتاعب ..
 ولقد سُمع « الامام على » بعد أكثر من ثلث قرن يذكر كلمات
 الرسول ويقول : « فوالله ما تركتهن منذ علمنيهن ! »
 سأله رجل من أصحابه : « ولا ليلة صفين ؟ » ..
 فأجاب مؤكدا : « ولا ليلة صفين ! » ..



وتأبى سنة الله التى فطر الناس عليها ، ألا تؤثر هذه الحياة الشاقة
 الكادحة على صحة « الزهراء » ومزاجها ، وقد كان وجودها رضى الله
 عنها فى صميم المعركة منذ طفولتها ، يميل بها عن المرح والابتهاج ، ثم
 أحزنها موت أمها أشد الحزن ، وزادها وحشة وشجنا ، وكانت الى
 جانب ذلك كله مشغولة البال بأبيها النبى ، تفكر فيه على البعد والقرب ،
 وتتبعه قلبها فى غزواته ومعاركه . وقد تأذن لها الظروف بمصاحبتها الى
 ميدان القتال ، كما حدث فى موقعة « أحد » اذ رؤيت هنالك تضمد
 الجراح وتأسو الكلوم وتسقى المحتضرين من الشهداء ..

وليست هذه الظروف مجتمعة ، مما يعين على بهجة وانسراح ، ولعل
 الزهراء حاولت أن تتأسى بغيرها من نساء البيت النبوى ، وهى ترى
 مثلا ، أم المؤمنين عائشة ، تضىف على بيت زوجها إشراقا وتبث فيه
 حيوية وأنسا ، وتلقى البطل إذ يعود الى سكنه ، بابتسامتها الوضاعة
 ودعابتها اللطيفة ومرحها الحلو ..

وربما حاولت الزهراء كذلك ، أن تنحى عن بيتها الخاص ظلال الكآبة

وقال لها ذات يوم وقد عرف أن أباهما النبي عاد من إحدى غزواته الظافرة
بخنائم وسبايا :

— لقد شقوت يا فاطمة حتى أسليت صدري ، وقد جاء الله بسبي ،
فأذهبي فالتسي واحدة تخدمك ..

أجابته وهي تنحى الرحي جانبا في تعب وكلال : أفعل إن شاء الله ..
ثم لبثت ساعة حيث هي في ساحة الدار ريثما استردت بعض قواها
انذاهبة ، وقامت فتلفت بخسارها وخرجت تسعى الى بيت أبيها بخطوات
بضيئة وانية ، فلما رآها صلى الله عليه وسلم هش لها وسأل :

— ما جاء بك يا بنية ؟ ..

أجابت : « جئت لأسلم عليك ! .. »

ومنعها الحياء أن تسأله فيما جاءت من أجله ..

ثم عادت من حيث أتت ، لتنبئ زوجها أنها استحت أن تطلب من
أبيها شيئا ..

فقام كرم الله وجهه وصحبها الى بيت الرسول ، وتولى عنها السؤال
وهي مطرقة من استحياء ..

أجاب صلى الله عليه وسلم :

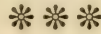
— لا والله ، لا أعطيكما وأدع أهل الصفة تتلوى بطونهم لا أجد
ما أنفق عليهم ، ولكن أبيع ، وأنفق عليهم بالثمن ..

فانصرفا شاكرين ، وما يدريان أن شكواهما مست قلب الأب
الحنون ، وشغلته نهاره كله ! ..

وجن الليل وكان البرد قارسا ثقيلا الوطأة ، فرقدا على فراشهما
الخشن يحاولان النوم فلا يجدان اليه سبيلا لفرط ما يشعران به من
قسوة البرد ، فاذا بالباب يفتح « ويقبل عليهما الرسول وقد انكشأ في
غطائهما مقرورين ، اذا غطيا رأسيهما بدت أقدامهما ، واذا غطيا أقدامهما
انكشفت رأساها » . فهبأ للقاء الضيف الكريم ، لكنه صلى الله عليه

وسلم ابتدرهما قائلا : « مكانكما ! .. »

يعاب على الامام ، وقد نشأ النبي نفسه يتيماً فقيراً ، راح يتخبط ليلتمس مغزاً آخر ، وأخذ يبدى ويعيد عن ضالة حظ « على » من جمال الصورة وحسن الشكل ! .. ولو راجع نفسه فسألها : كيف يستقيم مزعمه في أن شخصية فاطمة رسمت بأخرة ، وأضيفت اليها ألوان زاهية من صنع التشيع ، مع هذا الذى ينقله من روايات عن الامام على ؟ .. أقول : لو راجع نفسه ، لاستوقفه هنا أن مؤرخى الاسلام لم يضيفوا الى امام الشيعة من الثراء والجمال ما يرفع قدره عند أمثال «لامانس» ، بل انهم - بشهادته - قد ذكروا أنه كرم الله وجهه « كان فقيراً معدماً قصيراً أفتس الأنف دقيق الذراعين » دون أن يجدوا في ذلك ما يغض من شأنه ، أو ينقص مقداره حين يوزن بموازن الرجال ويقدر بمقاييس الأبطال ! ..



ونرجع الى حيث تركنا « الزهراء » تستقبل في عامها الثامن عشر حياتها الجديدة ، فلا نرى أحداً من رواة المسلمين حاول أن ينفى عنها ما كانت تجده من شظف العيش ، أو يجيء في جهازها بفراش وثير وأثاث جميل ، بل نقرأ أنها دخلت بيت زوجها بخيملة ، ووسادة حشوها ليف ، ورحاين وسقاين ، وشيء من العطر والطيب .. وكان زوجها من الفقر بحيث لم يستطع أن يستأجر لها خادماً تعينها أو تقوم عنها بالعمل الشاق ، فكان عليها - رضى الله عنها - أن تنفرد بهذا العبء الثقيل (١) ، لكن « عليا » لم يكن يهون عليه أن يراها هكذا كادحة مجهدة ، فحاول أن يساعدها في بعض أعمال البيت ما مكنته ظروفه من ذلك ، اذ كان يخشى أن يستنفد العبء ما بقى لها من قوة جسدية ، بعد الذى كابدهته - منذ عامها الخامس - من محنة الحصار ومشقة الهجرة ومتاعب الجهاد ..

حتى ناء كلاهما بما يحمل ، فانتهاز كرم الله وجهه فرصة موآتية ،

(١) صحيح البخارى ٦/٦٩ ، ٧ وصحيح مسلم : ٨٠/٤٨

طالب « فلم يك ذا حظ من مال مكتسب أو موروث ، اذ كان أبوه على عظم مكاتته وعلو شرفه ، قليل المال كثير العيال ، مما دفع ابن أخيه محمدا الى أن يقترح على عمه « العباس » التخفيف من أعباء أبي طالب ، بأن يأخذ كل منهما أحد بنيه فكفله عنه . وكان من نصيب « على » أن يختاره « محمد » دون بقية أبناء العم ..

وبعث « محمد » صلى الله عليه وسلم رسولا ، فكان « على » أول من آمن به صييا ، اذ كان عمره عشر سنوات على ما نقل ابن اسحق (١) وهكذا اشترك « على » في الحرب المقدسة بمجرد أن شب عن الطوق ، وشغل بالجهاد عن جمع المال ، وصرفته صحبة الرسول وهو يواجه المشركين ، عما كان يرجى أن يشتغل به من التجارة التى هى حرفة الرجال من قريش ، وصنعة الأشراف فى مكة ، وسبيل الثراء بالوادي الأجرد غير ذى الزرع ، فلا عجب أن رأيناه يطلب يد « الزهراء » وليس فى يده ما يمهرها به سوى درع أفاءها الله عليه من مغنم « بدر » التى أبلى فيها « على » خير البلاء ، على ما هو معروف فى تاريخ الاسلام ، ومشهود له من ثقات الاخباريين والمؤرخين (٢)

ولم يغب شئ من ذلك عن فاطمة حين عرض عليها أبوها صلى الله عليه وسلم طلب « على » يدها ، ولو صحت الرواية التى انفرد « البلاذرى » - فيما أعلم - بذكرها ، وهى أن الزهراء ذكرت فقر خطيبها ، فرد أبوها يزكيه :

« إنه سيد فى الدنيا وانه فى الآخرة لمن الصالحين ، وانه أكثر الصحابة علما وأفضلهم حلما وأولهم اسلاما » ..

أقول لو صحت هذه الرواية ، لكانت مما يقال عادة فى مثل هذا الموقف ، لكن « لامانس » لم يدعها تمر دون أن يعمز ويلمز ، ليغض من شأن الامام على كرم الله وجهه ، حتى اذا أحس أن الفقر لا يمكن أن

(١) السيرة : ٦٢/١

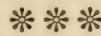
(٢) تاريخ الطبرى : حوادث غزوة بدر . والسيرة ٢٧٢/٢

وأن يعضوا الطرف عن « أم أبيها ، الزهراء » اجلالاً وتهيباً
ولا يرد على هذا بأن « عثمان » رأى في نفسه كفنًا لرقية ، فلقد قلَّ
في أصحاب الرسول - بل في قريش بعامة - مثل عثمان ثراء وشرفاً
وجاهاً ، وهو بعد قد طمع في الزواج من بنت النبي ، بعد أن طلقها
ابن أبي لهب كيذاً وحقدًا ، وليس الأمر كذلك مع الزهراء ..

ونحن - حتى يومنا هذا - نرى بنات الأسر الكريمة يتأخر زواجهن
في انتظار الأكلفاء وهم عادة القلة ، إذ القاعدة المطردة هي أنه كلما تميزت
الفتاة لعلمها أو ثرائها أو عزتها ، قلَّ أكفأؤها ..

ولم يكن « على » مع ذلك أول من طمع في الزواج من « فاطمة »
بعد تهيب وتردد ، فقد تسامى الى ذلك الشرف قبله ، صاحب الرسول
أبو بكر وعمر ، على ما روى « البلاذري » في « أنساب الأشراف » ،
وابن سعد في طبقاته (١) ، والنسائي في سننه (٢) ، فردهما أبوها رداً
كريماً ..

ويأبى « لاماس » بعد ذلك كله الا أن يعلى الزهد المزعوم في
« الزهراء » بأنها كانت محرومة من الجمال والذكاء والمرح (!!) ولست
أطيل الوقوف عند هذا الزعم المريض ، بعد أن تهاوى كلام صاحبه
على ما بيّنا ...



لم تكن حياة « الزهراء » في بيت زوجها مترفة ولا ناعمة ، بل كانت
أقرب الى أن توصف بالخشونة والفقر ، وهي في ذلك تختلف عن حياة
أخواتها اللواتي أتيح لهن حظ غير قليل من الثراء المادى ، فقد تزوجت
« زينب » من أبي العاص وهو معدود من أثرياء مكة ، وتزوجت رقية
وأم كلثوم أولاً من ابني أبي لهب ذى المال الوافر ، ثم تزوجتا واحدة
بعد الأخرى من « عثمان بن عفان » الواسع الغنى ، أما « على بن أبي

(١) ج ٨ ص ١١
(٢) كتاب النكاح ، الباب السابع

من بعده أقوال الأئمة من رجال الحديث والثقات من المؤرخين ، ليطمسك برواية المسعودي ، حتى اذا استغلتها ماشاء له التعصب والهوى ، واتكأ عليها في الزعم بأن كَتَّاب السيرة أخروا مولد فاطمة لكي ينفوا عنها تهمة البوار ، عاد فنقضها برواية « اليعتوبى » التى تقول بولادة الزهراء بعد المبعث ! ..



الى ذلك الحد ، بلغ بمنعصبى المستشرقين التواء الأسلوب وانحراف المنهج واغتصاب الدليل ، وكانوا فى غنى عن هذا كله ، ليصلوا الى ماشاءوا تقريره من تأخر زواج فاطمة ، مستندين الى قول ابن اسحاق نفسه ، فسن الثامنة عشرة جد متأخرة اذا قيست بسن أخواتها الثلاث حين تزوجن ، وهى أبعد تأخرا اذا قيست بسن أم المؤمنين « عائشة » بنت أبى بكر ، لكن معاذ الحق أن يكون هذا التأخر عن زهد فيها ورغبة عنها ، فهى بنت الأمين الطاهرة ، وهى أخت زينب ، ورقية ، وأم كلثوم ، اللواتى تنافس شبان قريش على الزواج منهن ولما يزلن فى مستهل الصبا ، وكانت بعد هذا كله ، أقرب الناس شيها بأبيها فى الخلقة ، وهو من هو بهاء طلعة وجمال صورة ، وانما عرف القوم زهد الزهراء فى الزواج ، وتشبثها بمكانها الى جانب أبيها الرسول ، وقدروا موضعها من البيت المحمدى وحاجته اليها بعد وفاة أمها رضى الله عنها . ثم ، لم لا نقول — اذا لم يكف كل ما قدمنا — إن تأخر زواجها كان عن تهييب لها ؟.. لقد بعث أبوها صلى الله عليه وسلم ، وهى وحدها التى لم تتزوج ، اذ كان عمرها خمس سنوات ، والناس بعد المبعث أحد رجلين : اما كافر بنبوة محمد وهيئات أن يفكر فى مصاهرته ، وقد علمنا ما كان من سعى قريش الى أصهار محمد فى رد بناته الثلاث اليه كى يشغلوه بهن ، واما مسلم يؤمن بنبوة محمد ويصدق برسالته ، وقد عرفنا موقف المسلمين من نبيهم والى أى مدى كانوا يجلوونه ويعظمونه ويفتقدونه بالمهج والأرواح ، فغير مستغرب ألا يروا أنفسهم كفتا لمصاهرته ،

ولعلنا لو سألناه : فلم لم يفعل ككتاب السيرة مثل هذا مع خديجة وعائشة ؟ .. لِمَ لِمَ يجعلوا الأولى أصغر سنا ويضيفوا إلى الأخرى عشر سنين أو عشرين ، ليلائموا بينهما وبين زوجهما النبي في السن ؟ .. أقول : لعلنا لو سألنا « لامانس » مثل هذا السؤال لما حار جوابا ..

و « لامانس » - فيما أرجح - قد اعتمد في ذلك على خلاف سير الشأن في تاريخ مولد الزهراء ، فاستغله الى أبعد حد في إرضاء هواه ، وبدلا من أن يزن الروايات المختلفة ويعرضها على مقاييس النقد والتقويم ، نراه يضع أصبعه على قول نقله « المسعودي » بولادة الزهراء قبل الهجرة بثمانية أعوام فحسب ، وآخر ذكره « اليعقوبي » بأنها ولدت بعد نزول الوحي . يضع « لامانس » إصبعه على هذا القول أو ذلك ، ثم يصبوب الطعنة المسمومة ، متجاهلا أقوال الكثرة من الثقات الذين عليهم المعتمد في هذا الشأن ، كابن اسحاق ، وابن هشام ، والطبري ، وهم يكادون يجمعون على أن مولدها قد كان قبل البعثة بخمس سنين والخلاف - كما قلت آنفا - يسير الشأن ، لأننا تعودنا أن نلقى مثله وأكثر منه في تاريخنا النقلى ، وبخاصة ذلك الذى يعتمد على المروى شفاهها قبل عصر التدوين ، حيث لا تكاد تخلو ترجمة شخص من خلاف كهذا ، وبخاصة في سنة مولده ، اذ المؤلف ألا تتجه العناية الى ترجمة شخص الا بعد أن ينمو وتظهر شخصيته ويبدو أنه جدير بالعناية ، وكان للمستشرق أن يأخذ من هذه الظاهرة العامة ما شاء ، لا أن يتمسك بجزئية بعينها ، ثم يخصها بالتجريح والطعن وسيء التأويل ..

وما أظن « لامانس » بالذى يغيب عنه الموقف المنهجى حين يختلف الرواة ، لكنه تجاهل عامدا « ابن اسحاق » وهو مرجعنا الأول في السيرة ، لأنه أقرب كتابها عهدا بالرسول وبناته ، وابن اسحاق لم يذكر في مولد « فاطمة » غير قول واحد اقتصر عليه ، وهو السنة الخامسة قبل البعثة ، ثم أيده بحكم عام هو أن بنات محمد ولدن جميعا قبل أن يبعث صلى الله عليه وسلم ، وهذا القول أغفله « لامانس » كما أغفل

المحرم من السنة الثانية ، كان « على » قد وفق الى منزل خاص
يستقبل فيه عروسه الزهراء ..

واحتفل بنو عبد المطلب بهذا الزواج كما لم يحتفلوا بزواج مثله من
قبل . وجاء حمزة - عم محمد ، وعلى - بشارفين فنحروهما وأطعم
الناس بمدينة الرسول ..

فلما تم الحفل انصرف القوم مهئين ، ودعا الرسول « أم سلمة »
فطلب اليها أن تضي بالعروس الى بيت على ، وليتظراه هناك ..
وأذن « بلال » لصلاة العشاء ، فصلى النبي بالمسلمين في المسجد ،
ثم مشى الى دار على ، حيث دعا بماء فقرأ عليه بعض آى الذكر الحكيم
ثم أمر العروسين أن يثربا منه ، وتوضأ بالباقي ونثره على رأسيهما (١) ،
وهمم بعد ذلك بالانصراف وهو يقول :

— اللهم بارك فيهما ، وبارك عليهما ، وبارك لهما فى نسلهما !
فلم تسلك فاطمة دمعها ، فتمهل الأب برهة ، وحنا عليها مهونا عليها
الأمر بأنه إنما تركها وديعة عند أقوى الناس ايماناً وأكثرهم علماً
وأفضلهم أخلاقاً وأعلامهم نفساً .. (٢)

ثم انصرف وطيف من « خديجة » يطيف بالعروس فى ليلتها الأولى ،
ويحوم حولها ، ويسرى عنها بعض ما تجد من وحشة لفراق الأب ،
وشجن لغياب الأم ..

واستجاب الله لدعاء نبيه فى تلك المناسبة السعيدة ، فكانت الزوجية
المباركة التى شاء سبحانه أن تنحصر فى شرها ذرية نبيه المصطفى ..



كانت سن « الزهراء » عندما تزوجت ثمانية عشر عاماً ، ولكن الهوى
جسح بالمستشرق «لامانس» فخيّل اليه أنها كانت أسن من ذلك بكثير ،
« وانما عمد بعض كتّاب السيرة الى تأخير ميلادها ، كيلا يقال انها
ظلت مزهوداً فيها مرغوباً عنها الى أن فاتت سن الشباب » ..

(١) طبقات ابن سعد : ١٥/٨

(٢) طبقات ابن سعد : ١٦/٢

— وهل عندك شيء ؟

أجاب على : « لا ، يارسول الله .. »

لكن الرسول ذكر أن « عليا » أصاب درعا من مغنم بدر ، فعاد

يسأله : « فأين درعك التي أعطيتك يوم كذا ؟ »

أجاب وقد غلبه التأثر لما يلقى من بر النبي ورعايته :

— هي عندي يا رسول الله ..

قال عليه الصلاة والسلام : « فأعطاها إياها (١) .. »

فانطلق « علي » مسرعا ، وجاء بالدرع ، فأمره النبي أن يبيعها ليجوز

العروس بثمنها (٢) ..

وتقدم « عثمان بن عفان » فاشترى الدرع بأربعمائة وسبعين درهما ،

حملها « علي » ووضعها أمام الرسول ، فتناولها بيده الكريمة ثم دفعها

إلى « بلال » ليشتري ببعضها طيبا وعطرا ، ثم يدفع الباقي إلى

« أم سلمة » لتشتري جهاز العروس (٣) ..

ودعا الرسول صحابته فأشهدهم أنه زوج ابنته فاطمة من علي بن أبي

طالب ، على أربعمائة مثقال من فضة ، على السنة القائمة والفريضة

الواجبة ، وختم خطبة الزواج بمباركة العروسين الهاشميين ، والدعاء

لهما بالذرية الصالحة ..

ثم قدم إلى الضيوف وعاء تمر ..

وعلى هذا النحو من البساطة ، تمت خطبة الزهراء بنت النبي لابن

عمه علي ، وعقدت أخطر مصاهرة عرفها الاسلام في تاريخه الحافل

الطويل ..

وتمَّ عقد النكاح في شهر رجب من السنة الأولى للهجرة ، فلما أهلَّ

(١) طبقات ابن سعد : ١٢/٨

(٢) صحيح البخاري : كتاب البيوع . ومسنند أحمد ١٤٢/١

(٣) مسند أحمد : ٩٣/١ ، ١٠٤ ، ١٠٨ وسنن النسائي : كتاب النكاح باب ٨١

قال « على » يائسا : « بعد أبي بكر وعمر ؟ »
أجابوه :

« ولم لا ؟ .. ووالله ما بين المسلمين - وفيهم أبو بكر وعمر - من له مثل قرابتك من رسول الله ، وقد كفله أبوك ، ورعته أمك ، ثم نشأت في كنفه وربيت في بيته ، وكنت أسبق رجل الى الاسلام به »

وتشجع « على » وأخذ طريقه الى ابن عمه ، حتى اذا جاءه حيّاه بتحية الاسلام ، ثم جلس قريبا منه على استحياء ، لا يذكر حاجته .. وأدرك صلى الله عليه وسلم أن أخاه وابن عمه وصاحبه ، جاء لأمر لا يقوى على الافصاح عنه ، فأقبل عليه يسأله في تلطف :

— ما حاجة ابن أبي طالب ؟

أجاب بصوت خفيض ، وهو يغض من بصره :

— ذكرتُ فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ..

قال الرسول وما يزال على بشره وتلطفه : « مرحبا وأهلا ؟ »
ثم أمسك لا يزيد ..

وطال صنته ، فانصرف « على » حائرا قلبا ، لا يدرى بم يجب أهله وأصدقاءه الذين كانوا في انتظاره ، يترقبون عودته برأى الرسول .. فلما ألحوا عليه ، قال : « ما أدري والله شيئا : تحدثت الى رسول الله بالأمر ، فمازاد على قوله : « مرحبا وأهلا ! »

هتفوا جميعا : « يكفيك من رسول الله إحداهما ! »

ثم تركوه مستجدا الأمل ، حتى الرجاء !

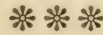
وأقبل في اليوم التالي فوقف غير بعيد من الرسول ، وقال بحيث يسمعه عليه الصلاة والسلام :

« أردت أن أخطب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ابنته ، فقلت : والله مالى من شيء ، ثم ذكرت صلته وعائدته فخطبتها اليه » ..
فما راعه الا أن التفت اليه أبو الزهراء وسأله مترفقا :

تجىء بنت زمعة . فإن الرسول لم يتزوجها إلا جبرا لخاطرها وعزاء لها عن زوجها « السكران بن عمرو » الذى لم يكده يعود بها من مهاجرنا فى الحبشة حتى مات وتركها أرملة مسنة ، قد هدت المحن قواها ، وطحنتها السنون الطوال العجاف ..

ولم يغب عن فاطمة ، ولا غاب عن سودة ، أن حظ هذه الزوجة من الرسول بر ورحمة ، لا حب وتآلف وامتزاج ، فلا عجب أن بقيت الزهراء « أم أبيها » فى مكانها الأول ، دون أن تشعر بأن وجود « سودة » يعنى عنها ..

أما حين جاءت « عائشة » فالأمر جد مختلف !
فلا عجب أن لم يمس على دخولها بيت زوجها النبى أربعة أشهر ، حتى كانت « الزهراء » فى طريقها إلى بيت على بن أبى طالب (١) ..



والواقع أن « عليا » كان يتلبث حتى تحين فرصة موالية مسعفة يستطيع فيها أن يطمع فى قبول الزهراء الانتقال من بيت أبيها الى بيت الزوجية ..

وطال انتظاره سنين عددا ، حتى اذا دخل الرسول بعائشة الحبيبة ، خامر « عليا » الرجاء فى تحقيق رغبته ، لكنه ظل محجبا فترة ، لا يدري بم يمهرها وليس فى يده مال . ثم زاد إحجامه ، حين بلغه أن أبا بكر وعمر - رضى الله عنهما - قد طلبا يد الزهراء ، فردهما أبوها صلى الله عليه وسلم فى رفق بالغ (٢) ..

وشعر خاصة أصحاب « علي » بما يهيمه ، فشحجوه على خطبة الزهراء ، وذكروا له قرابته من أبيها ، ومكاته عنده ، ومكانة أبويه من قبله : والده أبى طالب ، وأمه فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف (٣) ..

(١) الاصابة ١٥٧/٨ . والاستيعاب : ١٨٩٣/٤

(٢) طبقات ابن سعد : ١١/٨ . وسنن النسائي : ٢٦ ك/٧ ب

(٣) نسبه قريش ٤٠ - وهى احدى القواطم الاربع التى آثرهن الرسول بهدية جاءته .

حتى دخلت « عائشة بنت أبي بكر » في حياة محمد - صلى الله عليه وسلم - زوجة وربة بيت ، فأحست « الزهراء » أن قد آن لها أن تنتقل من بيت أبيها راضية أو كارهة ، لكى تخلى المكان لربته الشابة الذكية الحسنة ! ..

ولا أرتاب فى أن الزهراء رضى الله عنها قد ذكرت أمها الراحلة طويلا ليلة زمت « عائشة » الى محمد ، بعد الهجرة بأشهر معدودات ، وأخذت مكان خديجة فى داره وديناه ، ولعل الزهراء بكتها أحر بكاء فى ليلتها تلك ، ثم هون عليها الأمر أن يجد أبوها - الذى تؤثره على نفسها - فى عروسه اللطيفة ، ما يؤنس وحشته بعد رحيل خديجة ، وما يسرى عن فؤاده بعض الشجن الذى أثقله زمنا طال حتى أوشك أن يبلغ خمسة أعوام ..



وزواج « أبى الزهراء » من عائشة لم يكن مفاجأة لابنته ولا لأحد من قومه ، فهو صلى الله عليه وسلم قد خطبها قبل هجرته من مكة ، يوم سعت اليه « خولة بنت حكيم » متلطفة مترفقة تقول :

« يا رسول الله ، كأنى أراك قد دخلتكم خلة لفقده خديجة ! » ..

ثم ما زالت به حتى أذن لها أن تمضى فتخطب له سودة بنت زمعة ، وعائشة بنت أبى بكر (١) ..

وما كانت الزهراء لتكره أن يجد أبوها النبى من تسكن اليها نفسه ويرتاح لها فؤاده ، وانها لتعرف ما يحمل من أعباء الرسالة ومشاق الجهاد ، وما يكابده من محنة الغربة عن الوطن ، ومأساة الاضطهاد من قومه وعشيرته ..

وقد جاءت « سودة » قبل عائشة ، فشعرت فاطمة - كما لم يشعر سواها - أن الفراغ فى حياة النبى زوجا ، ما يزال كما كان قبل أن

(١) تاريخ الطبرى : ١٧٦/٣ - وانظر معه السمع الثمين ٣١ - والإصابة ح ٨ وانظر الفصل الخاص بالسيدة عائشة ، فى كتابى « نساء النبى » ط الهلال

أختها الحبيبة « زينب » من بيت أبويها ، وزفوها الى دار أبي العاص ابن الربيع ، وفاطمة طفلة في عامها الرابع ..

ولقد مضت الأعوام ، ونمت الطفلة فأدركت مع الزمن حكمة الزواج ، وأعدتها فطرتها لأن تستجيب لهذا الوضع الطبيعي الذي بلته كل أنثى قبلها : من حواء ، الى خديجة وزينب ورقية وأم كلثوم ..

وكانت الى ذلك كله ، تحس ابن العم ، على بن أبي طالب ، قريبا منها في المنزل الجديد ، وتلمحه يحوم حول أبيها الرسول وفي نفسه أمر بكنمه لا يريد أن يفتح عنه ، وعلى لسانه كلمات يمسكها قبل أن تمش شفثيه ، على أن « فاطمة » لم تكن بالتي يخفى عليها سر ابن العم ، فمنذ بلغت سن الزواج وهي تحس بالهام فطرتها ووحى قلبها ، أن « عليا » متعلق بها غير منصرف عنها ولا راغب في سواها من بنات المسلمين ..

وكذلك هي : لم تشعر في عالمها النفسى بمن هو أقرب اليها من «علي» وأعز موضعا ، وهو بعد أكثر من أخ عزيز وابن عم قريب ، فليس بين فتية قريش من يفوقه شجاعة وذكاء وعزيمة ، ولا بين شباب المسلمين جميعا من هو أسبق منه الى الاسلام أو أقرب الى رسول الله (١) ..

ولكنها مع ذلك أغلقت قلبها دونه كما أغلقت دون الرجال جميعا ، مؤثرة مكانها الى جانب أبيها الحبيب ، متشبثة بموضعها في بيته الكريم ، فمنذ ماتت أمها « السيدة خديجة » - رضى الله عنها - وهي ترى نفسها ربة هذا البيت التي تحمل عبء ادارته ، وخليفة الأم الراحلة في الوقوف الى جانب البطل المجاهد ، تهيب له راحة وسكنا ، وقد بلغت في ذلك المجال ما جعلها تظفر بأجل كنية ، فتدعى « أم أبيها » ! وما كانت لتعدل بموضعها ذاك الأعز ، موضعا سواه !

لكن الى متى ؟

هذا ما لم تفكر فيه فاطمة بنت محمد ، أو لعلها فكرت فيه حينما ثم انصرفت عنه ، كيلا تفسد حاضرها بما يحتمل أن يأتي به الغد المجهول !

(١) السيرة : ٢٦٢/١ وانظر معها ترجمة الامام على في الاستيعاب وسنن الترمذى : كتاب المناقب

أما البيوت ، فلما توفيت زوجات النبي ، جاء كتاب عبد الملك بن مروان الى واليه بالمدينة ، يأمره أن تخلط الحجرات المسجد ، فضج أهل المدينة بالبكاء ، كيوم وفاته صلى الله عليه وسلم ..

الى هذا المنزل الجديد المتواضع ، جاءت فاطمة بنت محمد مهاجرة من مكة ، لترى أباه صلى الله عليه وسلم في أعز موضع ، ولتجد المهاجرين وقد اطمأن بهم المقام ، وآخى الرسول بين الأنصار وبينهم ، ليذهب عنهم وحشة الاغتراب ، ويشد أزر بعضهم بعض .. وتمت المؤاخاة قبل قدوم « فاطمة » من البلد العتيق ، ولعلها لو كانت يثرب يومها ، لما استغربت أن ترى أباه صلى الله عليه وسلم يقف في أصحابه فيقول :

« تأخوا في الله أخوين أخوين » ..

ثم يأخذ بيد علي بن أبي طالب ويقول :

« هذا أخى » (١) ..

ويختار لعمه جعفر - وكان ما يزال غائبا بأرض الحبشة - معاذ بن جبل ، ولأبى بكر الصديق ، خارجة بن زهير الخزرجي ، ولعمر بن الخطاب ، عتيان بن مالك العوفي ، ولأبى عبيدة بن الجراح ، سعيد بن معاذ ، ولعثمان بن عفان ، أوس بن ثابت أخا بنى النجار ، وللزبير بن العوام بن خويلد ، سلمة بن سلامة .. وهكذا ذهب كل مهاجر بأخ ، وذهب علي بن أبي طالب بسيد البشر أخا ! ..

ولن يمضى وقت طويل ، حتى نرى عليا ، صهرا لأخيه النبي ، وزوجا لأحب بناته اليه ..

كانت « فاطمة » اذ ذاك قد قاربت عامها الثامن عشر ، وما تزال منصرفة عن الزواج زاهدة فيه ، متأثرة بنفورها القديم منه ، يوم انتزعوا

(١) السيرة : ١٥٠/٢ وتاريخ الطبرى : حوادث الهجرة

مما أثار همة المهاجرين والأنصار ، فأقبلوا يتنافسون على العمل وقاتلهم
يقول :

لئن قعدنا والنبي يعملُ
لكذاك منا العسلُ المضللُ
فيجيبه المسلمون :

لا عيش الا عيش الآخرة
اللهم فارحم الأنصار والمهاجرة !

وروى الرسول يومئذ وهو ينفذ بيده الكريمة وفرة « عمار بن
ياسر » وقد جاء مثقلا بما يحمل من اللين ..
وسمع على بن أبي طالب يشد مرتجزا :

لا يستوى من يعمر المساجدا
يدأب فيه قائما وقاعدا
ومن يترى عن الغبار حائدا

فأخذها عنه « عمار » وجعل يرتجز بها حتى تم البناء ..

ولم يكن البيت الجديد للرسول قصرا فخما ولا صرحا مشيدا ، بل
كان حجرات بسيطة مطلة على فناء المسجد النبوي ، بعضها من حجارة
مرصوفة ، وبعضها من جريد يمسه الطين ، وكانت جميعا مستقوفة
بالجريد ..

أما ارتفاعها فيقول الحسن بن علي ، حفيد الرسول وابن بنته
الزهراء : كنت أدخل بيوت النبي صلى الله عليه وسلم وأنا غلام مراهق ،
فأنال السقف بيدي

وفي البخارى : إن بابه عليه الصلاة والسلام كان يقرع بالأظافر -
يعنى : لا حلق له !

أما الأثاث فأقصى ما عرفت المدينة يومئذ بساطة وخشونة وتواضعا :
كان سريره صلى الله عليه وسلم ، خشبات مشدودة بالليف ، بيع زمن
بنى أمية ، بأربعة آلاف درهم ..

هجرةً ، ليس فيها ساكن ..

ولم تسر رحلتها بسلام : فما كادت تودعان أم القرى وينفصل بهما الركب مستقبلا طريق الشمال ، حتى طاردهما اللثام من مشركى قريش ، وباء « الحويرث بن تقيذ بن عبد بن قصي » - وكان ممن يؤذى أباهما النبي بنكة - بإثم اللحاق بهما حتى نخس بغيرهما فرمى بهما إلى الأرض (١) ..

وكانت فاطمة يومئذ ، ضعيفة نحيلة الجسم ، قد أنهكتها الأحداث الجسام التي لقيتها قبل أن تمتلىء شبعاً ورياً ، وترك الحصار المنهك أثره في صحتها وان زاد معنويتها قوة على قوة ، فلما نخس بها « الحويرث القرشى » فرمى بها وأختها على أديم الصحراء الأوعث ، سارت بقية الطريق متعبة ، الى أن بلغت « المدينة » وما تكاد ساقاها تنهضان بها ، فلم يبق هناك من لم يلعن الحويرث ، وسوف تسر السنوات وأبوها الرسول لا ينسى الفعلة الآثمة ، بل سنراه في العام الثامن للهجرة ، يذكر الحويرث يوم الفتح الأكبر ، ويسميه مع نفر الذين عهد النبي الى أمرائه أن يقتلوهم وإن وجدوا تحت أستار الكعبة .. وكان على بن أبى طالب ، أحق هؤلاء الأمراء بقتل الحويرث ، وقد فعل ! (٢) ..



كان الرسول قد شرع في بناء مسجده ومنزله ، حيث بركت ناقته القصواء عند وصوله الى دار الهجرة ، ونزل صلى الله عليه وسلم ريثما يتم البناء ، في دار أبى أيوب الأنصارى ، وهى الدار التي صارت من بعده الى مولاه « أفلح » فاشتراها منه المغيرة بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام بألف دينار ، بعد ما خربت وتداعت جدرانها ، فأصلحها وتصدق بها على بعض فقراء المدينة .. وكان صلى الله عليه وسلم يعمل في بناء مسجده وبيته الجديد ،

(١) السيرة : ٥٢/٤

(٢) السيرة ٥٢/٤ - وتاريخ الطبرى ، حوادث السنة الثامنة للهجرة

— ماذا ستلاقين من بعدى يا صغيرتى؟! لقد نلت حظى من الدنيا فأنا هامة اليوم أو غد ، وأختاك زينب ورقية قد اطمأن بهما مكانهما فى كنف أكرم زوجين ، ولأم كلثوم من سنها وتجربتها ما يغرى بشيء من الطمأنينة عليها ، وأما أنت يا فاطمة ، فتستقبلين الحياة هكذا فى مستهل الصبا ، حافلة بالمتاع منذرة بمزيد من المحن والآلام ..
فردت فاطمة وهى تذكر أباهما البطل :

— اطمئنى ، فلا بأس علىَّ يا أماء ، لتطفق قريش ماشاءت لها وثينتها أن تطغى ، ولتمضين فى اضطهادها للفتنة المسلمة الى أقصى وأفدح ما تستطيع ، فلقد طابت نفوسهم باحتمال هذا العذاب الجليل ، و « فاطمة » أجدر بأن تحمل منه ما يكافىء ما نعمت به من بنوتها للنبي ، واستثارها بالحظ الأوفى من محبته واعزازه ..

واستجاب الله لها ، فامتحن إيمانها بأقصى ما يمتحن به مثلها ، فقد كان تعلقها بأبيها يجعلها تتعذب لما يلقى من فادح الأذى ، وتروِّع بالذى يكابده أتباعه من اضطهاد مرير ، حتى لتكاد تحس لسع الصخور الملتهبة التى كانت تلقى عليهم حين يحمر القيظ ، وتتحسس على بدننها أثر السياط التى كانت قريش تلهب بها ظهور من تقدر عليه من المستضعفين وصحبت « فاطمة » أبويها الى شعب أبى طالب ، حيث عاشت هنالك بين أسوار الحصار المنهك سنين عددا ، ثم عادت الى مكة بعد انهيار الحصار ، لتشهد بعينها موت أمها خديجة ، ثم هجرة أبيها الى يثرب ، بعد أن لم يبق له فى مكة مكان !

وعلى أثره هاجر « على » ابن العم أبى طالب ، وكان قد تمهل ثلاثة أيام فى مكة ، ريثما أدى عن النبي المهاجر ، الودائع التى كانت عنده للناس (١) ..

وبقيت فاطمة وأختها أم كلثوم ، حتى جاء رسول من أبيهما فصحبهما الى يثرب ، وأغلقت دار محمد بمكة ، كما أغلقت دور المسلمين فيها

(١) السيرة ٢/١٢٩

يربضوا بين هذا الحب للبنت الرابعة ، وبين ما عرف عن العرب بخاصة من كراهة للإناث ، فهل كان الرسول في حبه لفاطمة ، متأثرا بما كان يظن من عدم ترحيبه بمولدها بعد أن سبقتها أخوات ثلاث ؟

لست أستبعد هذا ، فمحمد في أبوته الرحيمة وانسانيته المهذبة ، أهل لأن يغمر بحبه هذه البنت التي شاء لها القدر أن تجيء حيث يظن ألا تلقى ترحابا ، وأحق بأن يجوها مزيدا من عطفه حتى لا تحس - ولو على سبيل الوهم - أنها غير مرغوب فيها . ونحن الأمهات قد بلونا هذا الشعور الغامر بالحنان والرحمة ، حين تولد لنا بنت ثانية أو ثالثة ، فكيف إذن يكون موقف الأب الكريم الذي اصطفتى ليُبعث رسولا ؟ .. مثله بلا ريب من يدود عن طفلته تلك الظلال الكئيبة التي تحيط بمولد البنت الرابعة ، ويحميها من ذلك الاحساس المر الذي قد يكسر قلبها ويعقد نفسياتها ..

ولنا أن نقول بعد هذا ، ان تلك المكانة الخاصة لفاطمة عند أبيها ، لم تنقص حبه لأخواتها الثلاث ، ولنا أن نقول كذلك إن حظ الزهراء من حب أبيها صلى الله عليه وسلم قد ازداد بعد موت هؤلاء الأخوات ، ثم تضاعف بمولد الحسنين ، وانحصار ذريته صلى الله عليه وسلم في نسل هذه الابنة الوحيدة التي بقيت له !

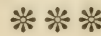


دخلت « فاطمة » على أمها السيدة خديجة ، تحدثها - والدنيا لا تسعها من فرط فرحتها وزهوها - عما سمعت من دعوة أبيها لقومه أن يشتروا أنفسهم ، فإن أحدا لن يغنى عن أحد من الله شيئا ، حتى فاطمة بنت محمد ، لن يغنى عنها أبوها النبي شيئا إذا لم تؤمن ..

وهي قد آمنت بالله وصدقت بنبيه ورسالته ، وباعت دنياها بالآخرة ، وللآخرة خير وأبقى ..

ومرت الأم الطيبة بيدها الحانية على جبين ابنتها الطفلة ، وغسغت في رفق :

ولو أنصفوا ، لما رأوا في أمر الحلية سوى مظهر من مظاهر عطفه صلى الله عليه وسلم على حفيدته الطفلة التي حرمت من أمها زينب ، ولقطة كريمة من لفتاته التي طالما أسعدت النساء من أهله وعشيرته ، وسنجدده صلى الله عليه وسلم في موقف آخر ، يهدى حلة من استبرق ، فيقول لابن عمه علي : « اجعلها خُمرًا بين القواطم » فشقيها « علي » أربعة أخمرة ، أحدها لفاطمة بنت محمد ، والثاني لفاطمة بنت أسد بن هاشم ، زوج أبي طالب وأم بنيه علي وجعفر وعقيل ، والثالث لفاطمة بنت الشهيد حمزة بن عبد المطلب ، والرابع لفاطمة بنت أبي طالب « أم هانئ » ، وفي رواية ، لفاطمة بنت شيبه بن ربيعة ، زوج عقيل بن أبي طالب ..



وندع هذا لنسأل : لم استأثرت السيدة فاطمة بهذه المكانة الخاصة عند أبيها صلى الله عليه وسلم ؟

وهو سؤال يعرض دائماً لكل من يكتب عن الزهراء ، أما متعصبو المستشرقين فأراحوا أنفسهم كما رأينا بجواب سهل قريب ، هو أن ما روى عن حب محمد لفاطمة إنما اخترعته الشيعة بعد وفاته - صلى الله عليه وسلم - وما هذا بمستغرب من بعض المستشرقين ، فهكذا يلتوى تاريخ الإسلام في أيديهم ويصطبغ بصبغة من التعصب لا نلومهم عليها وهم بشر لا يبرأون من ضعف وهوى ، وإن كنا في الوقت نفسه نأسف لما ضاع ويضيع على الإنسانية من جهود هؤلاء العلماء الذين تقدر ما أتيح لهم من صبر على البحث ، ودأب في الدرس ، كانا جديرين بأن يؤتيا خير الثمر ، لو برئنا مما شابهما من شوائب هذا التعصب ، وهيهات ! وأحسب أنهم لو حاولوا انحياد الفكرى ليواجهوا موضوع حب الرسول لابنته « فاطمة » ، لاستطاعوا أن يصلوا الى نتائج أعمق وأبعد من هذه التي وصلوا إليها ارتجالاً من أقرب الطرق ، وربما أتيح لهم أن

وكان الأستاذ أبو النصر مرجوا عندنا لأن يدحض الفرية بما في كتب السيرة والحديث عن فاطمة بصفة خاصة ، وهذا الذي جئنا ونجى به من أخبارها في حياة أبيها النبي ، ومكائنها لديه ، لم نأت به من عندنا ، ولا نقلناه عن مصادر متأخرة قد تظن بها الظنون وتحمّل على أنها من مخترعات الشيعة أو مختلقات الرواة ، بعد أن دخلت الزهراء في تاريخ الاسلام وشارك اسمها في سيره واتجاهه أعنف مشاركة ، كلا ... وانما كان مرجعنا الأول هو « ابن اسحق » شيخ كتاب السيرة ، و « ابن سعد الزهري » أول مؤرخ لطبقات الصحابة ، والطبري عميد مؤرخي الاسلام المتقدمين ، وكتب الحديث الستة الأمهات (١) . ولا أذكر أنني سقت هنا خبرا واحدا غير مأخوذ من هذه الأصول ..

وليس يغيب عنى ما قيل في حاجة هذه المراجع الى التحرير والتوثيق ، ولا أنا بجاهلة ما حف بها من ظلال لم تسلم من مثلها الآثار الثقيلة قط ، لكنى هنا انما أرد على الزعم القائل « بأن المؤرخين المسلمين وكتاب السيرة . تناسوا فاطمة كما تناسوا أخواتها ، ثم عادوا فأثروها بأكبر العناية والاهتمام بعد ظهور التشيع »

فهذه هي كتبهم بين يدي ، أقرأ فيها وأنقل منها ما أثقل من أخبار « الزهراء » ثم لا أرى بي حاجة الى رد الزعم الباطل بأكثر من هذا ، اللهم الا أن أعرض مثلا آخر من تهافت هذه العصابة الحاقدة من المستشرقين . في حديث الحلية التي روى أن الرسول قال عنها : « لأهبتها أحب أهلى الى » ثم دفعها الى حفيدته « أمامة بنت أبي العاص ابن الربيع » فلقد تلكأ غير واحد من المستشرقين عند هذا الحديث ، يريدون أن ينقضوا به كل ما تواترت به الأخبار من حب الرسول لابنته فاطمة ، ومن عجب أنهم حملوا خبر الحلية محل الثقة التي لا يرتفع اليها ظن ولا تجوز عليها ريبة ، وتلقوا أخبار « فاطمة » بالكذب والاتهام ، مع أن الراوى واحد !

(١) راجع مفتاح كنوز السنة : ص ٢٧٨ ، ٢٧٩

« خير نساء العالمين أربع : مريم وآسية وخديجة وفاطمة » ..
 وسمع كذلك يقول لها : « ان الله ليرضى لرضائك ويعضب لغضبك »
 وعن ابن جريج : « قال لى غير واحد : كانت فاطمة أصغر بنات
 النبى صلى الله عليه وسلم وأحبهن اليه » (١) ..

وهذه المرويات تلفتنا الى ما سبق أن أشرنا اليه من موقف متعصبى
 المستشرقين فى اتهام ما يملأ كتب السيرة والحديث من حب النبى لابنته
 فاطمة ، والزعم بأنها مرويات صنعت بأخرة ، بعد ما تطورت فكرة
 الشيعة تطورها السياسى والدينى ، ذا الأثر البالغ فى التاريخ الاسلامى
 كله ..

وفى ذلك يقول « لامنس » :

« ان المؤرخين المسلمين تناسوا فاطمة فلم يحفلوا بها أول الأمر ،
 حتى اذا ظهرت فكرة التشيع فى الاسلام ، عادوا يطيلون الحديث عنها ،
 وأخذت شهرتها تديع وتنتشر على حين ظلت أخواتها وليس لهن ذكر
 ولا عنهن حديث » ..

ويرد أحد الكتاب المسلمين - الأستاذ عمر أبو النصر - على هذا
 الزعم قائلاً :

« فأما عدم ذكر مؤرخى السيرة لفاطمة وغير فاطمة من بنات رسول
 الله صلى الله عليه وسلم ، فمرده أن مؤرخى السيرة انما كانوا يؤرخون
 للنبوة والاسلام ، ولم تكن النبوة والاسلام معلقين بينات الرسول
 متصلين بهن ، خصوصاً وأنهن لم يخضن حرباً ولا اندفعن فى معركة ولا
 كان لهن من الشأن فى سياسة الرسول وشريعته ما يدفع المؤرخ الى
 ذكرهن والتبسط فى تاريخهن . ومن البداهة والحالة هذه ألا يذكر
 المؤرخون من أخبارهن الا ما كان له كبير شأن أو عظيم أثر » (٢)

وهو رد لا ينفى زعم « لامنس » ..

(١) انظر صحيح البخارى : فضائل أصحاب النبى ، ومسنند أحمد ٢٠٤/٥ وصحيح مسلم :
 كتاب المناقب (٢) فاطمة بنت محمد : ٦٠

بنت عبد المطب ، لا أغنى عنك من الله شيئاً ، ويا فاطمة بنت محمد ،
 سليني ما شئت من مالي ، لا أغنى عنك من الله شيئاً ..
 وحقق قلب « فاطمة » حناناً وتأثراً ، فهومت تقول :
 - ليك يا أحبّ والد وأكرم داع ..

ثم جمعت نفسها وسارت بين الناس بهيكلها الصغير اللطيف ، مرفوعة
 الهامة مشرقة الأسارير ، وكأنما ازدهاها أن يختارها أبوها النبي ، من
 بين أخواتها جميعاً . بل من بين أهل بيته الخاص ، ليؤكد للبشر أنه لا
 يغنى من الله شيئاً عن أعز الناس عنده وأحبهم اليه وأدناهم منه ..
 لقد بدأ بقريش قومه وقبيلته ، ثم بنى مناف عشيرته الأقربين ، ثم
 عمه العباس وعمته صفية ، ثم كانت ابنته فاطمة هي آخر من يتخذه
 الرسول مثلاً في ذلك الموقف الجليل . فعندها اذن ، ينتهي أقصى ما يبلغه
 صلى الله عليه وسلم في العظة والاعتبار ، وإذا كان محمد لا يغنى عن
 بنته فاطمة من الله شيئاً ، فهل يطمع غيرها - كائناً من كان - في أن
 يغنى عنه أحد من الله شيئاً ! ؟

وليست هذه هي المرة الوحيدة التي يضرب النبي فيها المثل بابنته
 فاطمة ، تأكيداً لما يريد نشره في أمته من الحق ، فلقد حدثوا أن امرأة من
 قريش سرقت بعد أن أسلمت ، وبلغ الرسول أمرها فأشفقت قريش
 أن تقطع يدها ، فاستشفعوا لها عند الرسول حتى جاءوا « أسامة بن
 زيد » ليشفع فيها وكان الرسول يَشْفَعُه ، فلما فعل ، قال صلى الله
 عليه وسلم :

« لا تكلمني يا أسامة ، فإن الحدود إذا انتهت اليّ ، فليس لها
 مترك ، ولو كانت بنت محمد لقطع يدها » (١) ..

ولم يقل الرسول : « لو كانت بنت محمد » على الاطلاق والتعميم ،
 بل سمى « فاطمة » وهى من عرفت قريش مكاتبتها الأثيرة عند أبيها
 الرسول ، ولقد سُمع صلى الله عليه وسلم يقول :

الرسول وهو يقول منكرا :

« أتقتلون رجلا أن يقول : ربي الله ؟ ! » ..

فالتفتوا اليه وشرر الغضب يتطاير من عيونهم ، فجدبوه بلحيته ، ثم
 لم يدعوهم الا وقد صدعوا رأسه ! (١) ..

وغادر محمد - صلى الله عليه وسلم - البيت الحرام ، ومشى في
 الطريق ، وابنته تتبعه عن كثب ، فلم يلقه أحد من الناس ، لا حرّاً ولا
 عبداً ، الا كذبه وآذاه ، حتى بلغ بيته ، فتدثر في فراشه مقرورا ينتفض
 من شدة ما أصابه ..

وكانت هناك ، تقف غير بعيد من أبيها وتحوم بعينيها وقلبها حوله ،
 اذ هو ساجد في الحرم ، وحوله ناس من مشركي قريش ، فجاء « عقبة
 ابن أبي معيط » بسلى جزور ، فقذفه على ظهره ، فلم يرفع - صلى الله
 عليه وسلم - رأسه حتى تقدمت ابنته فاطمة فأخذت السلى ودعت على
 من صنع ذلك ، واذا ذلك رفع النبي رأسه وقال :

« اللهم عليك المأء من قريش !.. اللهم عليك أبا جهل بن هشام وعتبة
 ابن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة ، وعقبة بن أبي معيط ، وأبي بن خلف » ..
 فخشع المشركون لدعائه ، وغضوا بأبصارهم حتى انتهى من صلاته
 وانصرف الى بيته ، تصحبه ابنته فاطمة ..

ولن تمضى غير أعوام معدودات لترى فاطمة هؤلاء المأء الذين دعت ودعا
 عليهم أبوها الرسول ، صرعى مجندين حول ماء بدر ..
 وكانت هناك ، يوم خرج أبوها النبي الى قريش وقد نزل عليه قوله
 تعالى : « وأنذر عشيرتك الأقرين » فجعل ينادى :

« يا معشر قريش ، اشتروا أنفسكم لا أغنى عنكم من الله شيئا ..
 « يا بني عبد مناف ، لا أغنى عنكم من الله شيئا ..
 « يا عباس بن عبد المطلب ، لا أغنى عنك من الله شيئا ، ويا صفية

يلحق بالعصبة الكافرة التي باءت بغضب من الله ..

وودت لو يسلم شيخ الهاشيين « أبو طالب » فانه لكما قال أبوها الرسول : « وأنت أى عمّ ، أحق من بذلت له النصيحة ودعوته الى الهدى ، وأحق من أجابنى اليه وأعانتى عليه » ..

وودت كذلك لو يسلم أبو العاص بن الربيع ، ابن خالتها هالة ، وزوج تقيقتها العزيزة زينب . بل وودت لو يسلم بنو هاشم جميعا ، فهم آل أبيها وعشيرته الأقربون ، يعز عليه فراقهم ، ويشق عليه حربهم وعداوتهم ، لكن الله أراد أن يستحن آل النبي ويصهرهم في بوتقة الابتلاء وشاء تعالى - جلّت مشيئته - أن يضرب رسوله المصطفى المثل الأعلى في قوة العقيدة وصدق الايمان وجلال التضحية ..

كما آثر - سبحانه وتعالى - فاطمة بنت محمد بالحظ الأوفى من الألم العبقري ، فكتب لها أن تشهد الحرب المقدسة وتصلى نارها منذ طفولتها الباكرة ، وتعيش دون أخواتها جميعا ، حتى يجود أبوها البطل بأنفاسه ، ويلحق بالرفيق الأعلى ..
وكانت لذلك كله أهلا ..

وهذه هي ، قد هجرت ملاعب الصبا وانتبذت من صواجبها مكانا قريبا من أبيها في قلب الميدان ، وكان صغر سنها يتيح لها أن تخرج من البيت وتتبع أباهما إذ يسعى كل يوم الى أندية قريش ومحافلها ليشر بدعوته ، ويلقى في سبيلها ما يلقي من كيد الطغاة وأذى السفهاء ..

كانت هناك ، قريبا منه ، يوم أقبل يمشى الى الكعبة حتى استلم الركن ، فما أحه المشركون حتى وثبوا اليه وثبة رجل واحد ، وأحاطوا به يقولون : أنت الذى تقول كذا وكذا ؟ - وعدتوا ما قال من شتم آبائهم وعيب آلهتهم وتسفيه أحلامهم ..

فيقول الرسول : نعم ، أنا الذى يقول ذلك ..

وأمسكت « فاطمة » أنفاسها وهى ترى رجلا منهم يأخذ بجمع رداء أبيها ، وشل الذعر حركتها فوقفت حيث هى ، وقام أبو بكر دون

اختاره أبوها فضمه اليه واتخذَه ولدا (١) - أخوا وزميلا ، فما كان يكبرها بأكثر من أربع سنين ، لولا أنها استحييت أن تفضى اليه بهومها التي تدور حول الزواج ، ولو حاولت أن تفعل لما طاوعها لسانها .. ثم كان الحادث الأجل الذي هز الجزيرة هزا ، فانتزع فاطمة من شواغلها الخاصة وأيقظها في عنف من أحلام طفولتها ، وألقى بها في دوامة الأحداث الهائلة التي أعقبت المبعث ..

ووجدت نفسها - ولما تتجاوز الخامسة من عمرها - تواجه الصدمة العنيفة ، وتقف في مهب الأعصار المارد الذي أثارته الوثنية العتيقة العاتية ، في وجه الدين الجديد ..

لكنها لم تأسَ قط على ما فاتها من مرح الصبا ولهو الحداثة ، ولا عز عليها أن تتخلى هكذا سريعا عما كانت تنعم به من راحة وخلو بال ، بل حلت تمام صباها راضية ، وهجرت ملاعب أترابها ولداتها في غير تردد ، واستقبلت الحياة الجديدة وهي تدرك على صغر السن ، معنى بنوتها للنبي الذي اصطفاه الله رسولا ، وتعى فداحة العيب الذي يجب عليها أن تحمله ، لتكون جديرة بمكانها من البطل الذي يلقي قريشا مجتمعة ، أعزل الا من إيمانه بالحق ، وحيدا الا من فئة قليلة مضطهدة

ولم تعد « فاطمة » تشعر بالوحدة التي كانت فيها قبل المبعث ، فلقد ربطت الاسلام بينها وبين أبيها النبي ، ووالدتها أم المؤمنين ، وأخواتها المسلمات ، برابطة أقوى من النسب وأعلى من الدم وأقرب من الرحم ، ونسى كل فرد في البيت المحمدي شواغله الخاصة ، منذ تلاقوا جميعا حول دين واحد ، لا يدينون بغيره ، ورب واحد ، يجثون له سجدا ، لا يشركون به الها آخر ولا يعبدون ربًا سواه ..

وسرها أن « على بن أبي طالب » لم يتردد في الايمان بأبيها الرسول ، اذ كان بمثابة أخ لها عزيز ، ولا يهون عليها أن يختلف بهما الدين فنحظى هي بنعمة الاسلام دونه ، ويترك هو مكانه في بيت سيد البشر ،

كانت رابعة البنات في تلك البيئة التي عرفناها مفتونة بالبنين ، لكنها مع ذلك دخلت التاريخ الاسلامي كما لم يدخله أحد قط بعد أيها النبي ، وتركت فيه من خطير الآثار ما جاوز كل تصور واحتمال ، يوم استقبلها البيت المحمدي وليدة ، قبل المبعث بخمس سنوات ..

ولقد شاء الله أن يقترن مولدها بالحدث الجليل الذي ارتضت فيه قريش « محمدا » حكما فيما اشتجر بينها من خلاف على وضع الحجر الأسود ، بعد تجديد بناء الكعبة المكرمة ، فاستبشر أبواها بمولدها واحتفلا بها احتفالا لم تألفه « مكة » في مولد أثنى سبقتها ثلاث أخوات ليس بينهن ولد . وأمضت طفولتها سعيدة بحب أبويها وتدليل أخواتها ، وبخاصة كبراهن « زينب » التي كانت لها بمثابة أم صغيرة ..

حتى تزوجت « زينب » من ابن خالتها أبي العاص بن الربيع ، ومن بعدها تزوجت « رقية » وأم كلثوم « من ابنى عبد العزى بن عبد المطلب ، فعز على فاطمة أن تفارقها أخواتها واحدة في اثر أخرى ، وأعيها - في طفولتها الباكرة - أن تدرك حكمة هذا الزواج الذي يفصل بين البنت وأبويها ، وبين الأخت وأختها ، وشغلتها هذه الخاطرة أياما وليالي ذات عدد . حتى تركت أثرا عميقا في مشاعرها الغضة وقلبها البكر . وكان للظروف التي طرأت على الأسرة حينذاك ، يد في تقوية ذلك الأثر : فلقد شغل الأب بتأملاته التي انتزعت من دنيا الناس ومضت به الى عزلة عابدة متأملة ، وشغلت الأم بزوجها الحبيب تحنو عليه ما أقام معها وترسل قلبها في أثره اذا غاب ، وشغلت الأخوات الثلاث بحياتهن الزوجية الجديدة ، وثركت « فاطمة » شبه وحيدة مع خواطرها التي انفردت بها وراحت تؤثر في وجدانها على مهل ..

وكانت بحيث تجد في ابن العم ، على بن أبي طالب - ذاك الذي

فاطمة الزهراء

- أحب البنات
- في دوامة الأحداث
- الهجرة
- البيت الجديد
- سحابة سيف
- محنة ثقيلة
- حلم هنىء
- يقظة مروعة
- التمام الشمل
- بدء تاريخ !

وقد عز الموقف على « أم كلثوم » وهي تسمع أباها يقول : « رحم الله المحلقين .. » قالها ثلاثا ..

ولم تظمن ابنته ، حتى قال من بعد ذلك : « والمقصرين .. » (١)

وتم النصر الأكبر ..

فتحت مكة ، بعد عامين من صلح الحديبية ، وأدركت « أم كلثوم » هذا الفتح ، كما أدركته أختها « فاطمة » ..

ورق قلباهما لذكرى الراحلات الغاليات : أمهما خديجة ، وشقيقتيهما زينب ، ورقية ..

ثم رحلت « أم كلثوم » ..

ماتت في بيت عثمان ، في شهر شعبان سنة تسع ، عن غير ولد (٢) ..
 ووسدوها ثرى « يثرب » الى جانب ما بقى من رفات أختها ، ووقف
 النبى على قبر ابنته دامع العينين (٣) ، مثقل القلب بألم الشكل المتتابع ..
 ورحم الله « أم كلثوم » فأعفاها من محنتى اليتيم والترمل ، فلم تشهد
 أباها النبى بعد عام واحد يرحل عن الدنيا ، ولا شهدت زوجها «عثمان»
 يلتقى مصرعه الدامى بعد نحو ربع قرن من الزمان ، على مرأى من زوجته
 اللتين جاءتا الدار بعدها : أم البنين بنت عبيدة بن حصن ، وناقلة بنت
 الفرافصة الكلبيية (٤) ..

(١) تاريخ الطبرى ، حوادث سنة تسع ، والاصابة ج ٨ . والاستيعاب ١٩٥٢/٤

(٢) ، (٣) مسند أحمد : ٣٥٤/٥

(٤) تاريخ الطبرى ، حوادث سنة ٣٦ هـ - ونسب قريش : ١٠٢

لكنها عاشت ست سنوات ، رأت فيها الاسلام يبلغ أوج انتصاره ، وشاهدت أباهما البطل يخرج من معركة في اثر معركة ، مؤيدا مظفرا .. و « عثمان » زوجها معه ، صاحباً ومجاهداً ..

وفي ذى القعدة من السنة السادسة للهجرة ، خرج أبوها صلى الله عليه وسلم على راحلته القصواء ، مع نحو ألف وخمسمائة من أصحابه ، يريدون « مكة » لقضاء العمرة ، وليس معهم سلاح الا السيوف في القرب ..

وتصدت قريش لهم ، تأبى أن يدخلوا مكة ..

وقال الرسول لصهره ذى النورين « عثمان بن عفان » : اذهب الى قريش فأخبرهم أننا لم نأت لقتال أحد ، وانما جئنا زوارا لهذا البيت بمعظمين لحرمة ، معنا الهدى* نحره ونصرف ..

وأمسكت « أم كلثوم » قلبها ، وهى تخشى على زوجها غدر المشركين وساورها القلق ، وهى فى انتظار أوبة عثمان ، بعد أن طال غيابه .. فما راعها الا نبأ ذاع ، أن عثمان قد قتل ..

وبادر النبى صلى الله عليه وسلم — لما بلغه النبأ — فدعا المسلمين الى « بيعة الرضوان » وفيها بايع لعثمان رضى الله عنه ، فضرب بشماله على يمينه وقال : « انه ذهب فى حاجة الله وحاجة رسوله .. » (١)

لكن لم يطل بأمر كلثوم الحزن !

فلقد عاد « عثمان » من رحلته ، ولم يصبه أذى .. وتم صلح الحديبية ..

وكان « عثمان » ممن لم يرضوا عن شروطه ..

وحين نحر الرسول هديه وحلق رأسه ، حلق عامة الصحابة ، وقصر

نفر ، منهم « عثمان بن عفان » ! (٢)

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد : ٧٠/٢

(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد : ٧٥/٢

فما من امرأة خير من بنت عمر الـ بنت النبي ، فهل تشغل مكان أختها
« رقية » في بيت عثمان ؟

وعجبت لأن أبـها لم يحدثها في هذا الأمر من قبل ، وقد عهدته
لا يزوج احدى بناته دون أن يعرف رأيها ..

وعادت بها الذكرى الى ماض بعيد ، يوم وقفت هي وأختها الـ راحلة
« رقية » تصغيان الى أبيهما حين عرض عليهما رغبة ابنى أبى لهب في
الزواج منهما ..

وقد عقد الزواج ، ثم واجهت الأختان حظهما المشترك ، الى أن
طلقهما ابنا حمالة الحطب في وقت واحد ..

وتزوجت « رقية » بعد ذلك من عثمان ، فأى قدر عجيب يجمع بين
الأختين ، لو كتب لأم كلثوم أن تتزوج هي أيضا من زوج شقيقتها :
عثمان بن عفان ؟ !

وبينا هي تحدق - شبه حاملة - في الخيوط الخفية التي يسجها
القدر ليربط بينها وبين أختها رقية ، دخلت عليها « أم عياش » خادم
النبي ، تدعوها للقاء أبيها صلى الله عليه وسلم ..

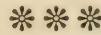
وتم عقد زواجها من عثمان ، « على مثل صداق رقية ، وعلى مثل
صحبتها » ..

وخرجت الى بيت زوجها وعليها ثوب عرس ، شبيه بذلك الذى دخلت
به رقية على عثمان ..

وبعث النبي معها « أم عياش » كما بعثها مع أختها من قبل ..
فلما شارفت البيت الجديد ، أحست كأن طيفا من أختها الـ راحلة
ينتظرها لدى الباب ، ليصحبها هنالك فلا يفارقها في يقظة أو منام ..
ولعلها هسست في شجن :

« لم يبق يا رقية الا أن ألحق بك حيث ترقدين ، فيجمعنا الموت كما
جمعتنا الحياة منذ كنا ! » ..

ثم أغلقن الدار التي شهدت ماضيهن الخلى ، وسعين الى الحجون
 فروين قبر الأم بدموعهن ..
 وأمسكت أم كلثوم بيد أختها الصغرى فاطمة ، ومضت بها الى حيث
 كان « زيد » ينتظرهما متهيئا للرحيل ..
 وألفتا نظرة وداع على مغاني مكة وما تدريان أتكون اليها عودة !
 ثم اندمجتا فى الركب المهاجر ، وقد خفف عنهما شجن الفراق أنهما
 ذاهبتان الى أبيهما الرسول فى منزله الكريم بين الأنصار !



ومضى على الهجرة عامان حافلان بجليل الأحداث ..
 وشهدت « أم كلثوم » عودة أبيها منتصرا من « بدر » ، كما شهدت
 موت شقيقتها الغالية « رقية » يوم النصر ..
 وأهلَّ العام الثالث وما يزال الحزن على رقية جديدا ، وما تزال
 قريش تبكى قتلاها وتتداعى للثأر من الفئة الظافرة ..
 وكانت « أم كلثوم » تلمح « عثمان » فى هذه الفترة ، وهو يلازم
 أباه ويلتمس لديه العزاء عن فقيدته الغالية ..
 الى أن كان يوم من أيام شهر ربيع ، وقد أوى الرسول الى بيته
 يستريح ، فاذا عمر بن الخطاب يسعى اليه مستشار الغضب ليشكو اليه
 صاحبيه أبا بكر وعثمان ..
 لقد عرض على أحدهما بعد الآخر ، أن يتزوج من بنته « حفصة »
 بعد أن مات عنها زوجها حصن بن حذافة ، فسكت أبو بكر ، وأجاب
 عثمان : ما أريد أن أتزوج اليوم (١) ..
 وسمعت « أم كلثوم » أن أباه الرسول قال لعمر ملاحظا :
 - يتزوج حفصة من هو خير من عثمان ، ويتزوج عثمان من هي
 خير من حفصة ! (٢) ..
 وخفق قلبها لما سمعت !

وبناتها الثلاث : زينب وأم كلثوم وفاطمة ، يحطن بفراشها ويتزودن
منها قبل الرحيل ...

وفي اليوم العاشر من رمضان سنة عشر من المبعث ، حُبلت الى
الحجون ، وهناك أضجعها زوجها الرسول بيديه في حفرتها ، ثم ودعها
وآب الى بيته محزوناً ، فضم اليه ابنتيه أم كلثوم وفاطمة ، يواسيهما
ويعينهما على المصاب الفادح ..

وأحسن من تلك اللحظة أن مكانه بمكة قد بنا به ، فلم يعد له فيها
بعد رحيل « خديجة » مقام !

لكن طيفاً منها ظل يلم به غادياً ورائحاً ، فيؤنس غربته في وطنه ،
حتى أذن الله له في الهجرة الى يثرب ..

وودع الرسول بناته ، ثم ذهب في ضحوة النهار الى بيت الصديق
أبي بكر فاستصحبه ..

وتلبث لحظة قبل أن يفصل عن مكة ، فأشرف من عليه هناك على مهد
الصبا ومبعث النور ، ثم قال :

« والله انك لأحب أرض الله الى الله ، وانك لأحب أرض الله الى ،
ولولا أن أهلك أخرجوني ما فارقتك » ..

ومضى في طريقه الى الغار يصحبه الصديق ، وترك ابنتيه أم كلثوم ،
وأختها فاطمة ، وحيدتين في البيت المهجور ، يكاد يتلفهما الأسى لولا
رحمة الله ..



وتلكأت الأيام في سيرها متباطئة مشحونة بالقلق واللهفة ، ومضت
الليالي حوالك ليلاء مثقلات بالسهد والشجن ، حتى جاءت البشرية
بوصول النبي سالماً الى يثرب ، ثم ما لبث زيد بن حارثة أن أقبل ،
ليصحب أم كلثوم وشقيقته الصغرى الى دار الهجرة

وأضت بنتا النبي يومهما الأخير بمكة مع أختيهما زينب زوجة
أبي العاص ، ورقية زوجة عثمان ، يذكرن الأمس السعيد الذي ولّى وراح

فلم يعرد الرجال اهتماما ، وقام المطعم - بمرأى من القوم ، وفيهم أبو طالب قد انتحى ناحية من المسجد - والتمس الصحيفة ليشقها . فإذا الأَرْضة قد أكلتها فلم تدع منها الا : « باسك اللهم » (١) .. ووجمت قريش ، وأسقط في يديها وأحست بالسهم الذي راشته يرتد الى صدرها فيمزقه ..

ونفض أبو طالب يسعى الى الشعب بالبشرى ، وقد ذكر - وهو في طريقه من البيت العتيق - بنيه الذين هاجروا الى الحبشة ، فهتف منشدا وهو يرجو أن يبلغهم هنالك صدى من صوته :

ألا هل أتى بحريتنا صنع ربنا على نأيهم ، والله بالناس أروكذ
فيخبرهم أن الصحيفة مُزقت وأن كل ما لم يرضه الله مُفسد
تراوحها إفك وسحر مجمع ولم يُلَفَّ سحر آخر الدهر يصعد
جزى الله رهطا بالحجون تتابعوا على ملاء ، يهدى لحزم ويرشد
قعودا لدى خطم الحجون كأنهم مقاولة ، بل هم أعز وأمجد
قضوا ما قضوا في ليلهم ثم أصبحوا على مهل ، إذ سائر الناس رُقِّد (٢)

وأيقظ صوته كل من في الشعب ، فهبوا من مضاجعهم يهتفون البشرى السعيدة ، وصاح المسلمون منهم : « الله أكبر » .. وباتوا ليلتهم وما تمس جنوبهم مضجعا ، لفرط الفرح والانفعال .. وأصبحوا ساعين الى الكعبة فطافوا بها ، ثم آبوا الى بيوتهم في مكة ، ينتظرون ماذا يكون من قريش بعد أن خاب كيدها وتهاوى الحصار



وفي بيت النبي بمكة ، رقدت السيدة خديجة في فراشها تنهياً للقاء ربها بعد أن اطمأنت على زوجها الحبيب ، ثم ما لبثت روحها أن فاضت ، والنبي الى جانبها يهون عليها سكرات الموت ، ويشرها بما أعد الله لها من نعيم (٣) ..

(١) انظر حديث «نقض الصحيفة» في السيرة : ١٤/٢ : ١٦ والحوار بنصه منقول منه

(٢) القصيدة رواها ابن اسحاق ، وعدد أبياتها ستة وعشرون - السيرة : ١٨٤١٧/٢

(٣) الاصابة ج ٨ ، والسقط الثمين ١٧

أجاب هشام :

— نعم ، ابن زاد الركب ، والمطعم بن عدى ، وأنا ، معك ..

فطلب اليه أبو البختری أن يلتبس مؤيدا خامسا ، فذهب الى زمعة ابن الأسود بن المطب بن أسد ، فكلمه فى بنى هاشم وذكر له قرابته منهم وحقهم عليه ، فأجاب زمعة ..

وتواعد الخمسة على اللقاء ليلا يخطم الحجون — بأعلى مكة — وهناك أجمعوا أمرهم وتعاهدوا على القيام فى أمر الصحيفة حتى ينقضوها ، واتفقوا كذلك على أن يبدأ « زهير » فىكون أول من يتكلم فى مجتمع القوم ..

فلما أصبحوا غدوا الى أنديتهم ، وغدا « زهير » عليه حلة ، فطاف بالبيت سبعا ، ثم أقبل على الناس فقال :

— يا أهل مكة ، أناكل الطعام ونلبس الثياب وبنو هاشم هلكى لا يباع ولا يبتاع منهم ؟ .. والله لا أقعد حتى تشق هذه الصحيفة القاطعة الظالمة ..

قال أبو الحكم بن هشام ، وكان فى ناحية المسجد :

— كذبت ، والله لا تشق !

فأجابه صوت « زمعة بن الأسود » :

— أنت والله أكذب ، ما رضينا كتابها حيث كتبت !

وثنى أبو البختری :

— صدق زمعة : لا نرضى ما كتبت فيها ولا نقر به ..

وأيدهما المطعم :

— صدقتما وكذب من قال غير ذلك ، نبرأ الى الله منها ومما كتب

فيها ..

وتابعهم هشام بن عمرو مؤيدا ، فنقل أبو الحكم عينيه بين هؤلاء

الرجال الخمسة ثم صاح مستريا :

— هذا أمر قضى بليل ، تشوور فيه بغير هذا المكان ..

المجال لتور فجر جديد ..

فلقد عاد العم « أبو طالب » في ليلته تلك من زيارة الحرم الأقدس ، ليحدث مَنْ في الشعب عما رأى هنالك وما سمع :

قال ان هشام بن عمرو - ذلك الذي كان يحمل المئونة الى المحاصرين ، ليلا - مشى الى زهير بن أبي أمية المخزومي ، أخي هند أم سلمة ، وابن عاتكة بنت عبد المطلب ، فقال له :

- يا زهير ، أقد رضيت أن تأكل الطعام وتلبس الثياب وتنكح النساء ، وأخوالك حيث علمت ؟ .. أما اني أحلف بالله أن لو كانوا أخوال أبي الحكم بن هشام ، ثم دعوته الى مثل ما دعاك اليه من مقاطعتهم ، ما أجابك اليه أبدا ! ..

فأصغى زهير ، وفكر مليا ثم سأل :

- ويحك يا هشام ! .. فماذا أصنع ؟ .. انما أنا رجل واحد ، والله لو كان معي رجل آخر لقمتم في نقض الصحيفة حتى أنقضها .. قال هشام :

- قد وجدتَ رجلا ..

فسأله : من هو ؟ ..

أجاب : أنا ...

قال زهير : ابغنا رجلا ثالثا ..

فذهب هشام الى المطعم بن عدى بن نوفل بن عبد مناف ، فقال له : - يامطعم ، أقد رضيت أن يهلك بطنان من بني عبد مناف وأنت شاهد على ذلك موافق لقريش فيه ؟ .. أما والله لئن أمكنتموهم من هذه ، لتجدنهم اليها منكم سراعا ..

فكان جواب مطعم كجواب زهير ..

ومضى هشام بعد ذلك الى أبي البختری بن هشام ، فحدثه بمثل ما حدث به صاحبيه زهيرا ومطعما ، فسأله أبو البختری :

- وهل أجد من يعين على هذا ؟ ..

وأحست دنو أجلها ، وان بدا أنها تقاوم الضعف والمرض ببسالة ،
وتتشبث بالحياة من أجل زوجها الحبيب ، ومن أجل بنتها أم كلثوم
وفاطمة ..

وقالت تناجي ابنتها :

— ليت الأجل يمهلى حتى تنجلي المحنة ، فأموت قريرة العين راضية

فهتفت « أم كلثوم » من كل قلبها :

— لا بأس عليك يا أماه !

ثم خنقتها العبرات فلم تزد ..

واستطردت الأم :

— أى وربى لا بأس علىَّ يا ابنتى !.. ما من امرأة فى قریش ذاقت

ما ذقت من نعيم !.. بل ما من امرأة فى هذه الدنيا نالت مثل الذى نلت

من مجد : حسبى من دنياى أنى زوجة الحبيب المصطفى ، وحسبى من

آخرتى أنتى المؤمنة الأولى ، وأنى أم المؤمنين ..

ثم أسبلت عينيها وهمست :

— اللهم انى لا أحصى ثناء عليك !.. اللهم انى لا أكره لقاءك ،

ولكنى أطمع فى مزيد من التضحية لأكون جديرة بما أنعمت علىَّ !..

واحتضر الضوء النحيل الشاحب الذى كانت تبعثه ذبالة واهية هناك ،

ولفَّ الكونَ سكونَ خاشع ، وأرهف الليل سمعه لهذه النجوى

المؤثرة ، فلم يعد يسمع فيه سوى أنفاس أم المؤمنين ، وخفقات قلب

ابنتها التى راحت تدعو صامتة ..

ثم .. فتح الباب ، فانبثق منه شعاع من نور باهر أضاء المخدع ،

ودخل رسول الله بهى الطلعة متهلل الأسارير ، فما كادت زوجته تلمحه

حتى نهضت للقائه بوجه مشرق وقد سرى فى بدنها الكليل فيض من

القوة والعافية ..

وأصغت « أم كلثوم » الى ما كان أبوها عليه الصلاة والسلام يحمل

من الأنباء ، فأحست كأن ظلام الليل ينقشع رويدا رويدا ، كما يفسح

حدثوا أن أبا جهل بن هشام ، لمح حكيم بن حزام بن خويلد
 الأسدي ، يسير متخفيا معه غلام يحمل قمحا ، يريد به عمته خديجة
 بنت خويلد ، وهي مع زوجها الرسول وبنتيها أم كلثوم وفاطمة في
 الشعب ، فتعلق به أبو جهل وصاح :
 « أتذهب بالطعام الى بنى هاشم ؟.. والله لا تبرح أنت وطعامك حتى
 أفضحك بمكة » ! (١)

حتى بلغ منهم الجوع مبلغا يصوره لنا قول سعد بن أبي وقاص بعد
 محنة الحصار بستين :
 « لقد جئعت حتى انى وطئت ذات ليلة على شيء رطب فوضعتة في
 فمي وبلعته ، وما أدري ما هو الى الآن ! » (٢) ..
 ومن عجب أن ذلك السهر الذي راشته قريش ، ارتد عن المؤمنين
 دون أن يززع ايمانهم مثقال ذرة ، أو يرحزهم قيد شعرة ، عن موقفهم
 من نصره الرسول ، وعاد السهم منطلقا الى معسكر قريش فأصاب منها
 مقتلا ! ..

ذلك أن نفرا من مشركي قريش ، روعهم الحصار الوحشي المضروب
 على المؤمنين منهم ، فثارت ضمائرهم وسلطت عليهم سوط عذاب ..
 وبدأ الحصار يهتز ويتداعى تحت وطأة الندم وعذاب الضمير ..
 حدثوا أن هشام بن عمرو بن ربيعة العامري - وكان ابن أخي نضلة
 ابن هاشم لأمه - كان يأتي ليلا بالبعير قد أوقره طعاما ، حتى اذا بلغ
 به فم الشعب ، خلع خطامه من رأسه ثم ضرب على جنبه ، فيدخل البعير
 على بنى هاشم وبنى عبد المطلب ، بما يحمل (٣) ..
 وذات ليلة ، خرج الرسول الى قريب من فم الشعب يستقبل البعير
 الموقر طعاما ، كيما يشرف على توزيعه في ذوى العيال ممن معه ، وسهرت
 « أم كلثوم » عند فراش أمها التي علت بها السن وأنهكتها الأحداث

(١) السيرة : ٣٧٩/١ . تاريخ الطبرى : ٢٢٥/٢

(٢) السيرة : ١٧/٢

(٣) السيرة : ١٤/٢

أراد الله بها خيرا ففارقها « عتبية بن أبي لهب » عدو الله ونجت بذلك
الفراق من نكد العيش مع « حمالة الحطب » كما نجت معها أختها
العزيزة « رقية » التي ما لبثت أن تزوجت « عثمان بن عفان » وهاجرت
معه الى الحبشة ..

وبقيت « أم كلثوم » مع أختها الصغرى « فاطمة » في بيت أبيهما
الرسول بمكة ، تشاركان أم المؤمنين الأولى عبئها الجليل ، وتستقبلان
معهما البطل النبي اذ يعود كل يوم الى بيته ، وعلى جسمه الكريم ندوب
المعركة ، وعلى ثيابه الطاهرة آثار ما كان يلقي من أذى قريش وحرابها ،
فيحطن به في بر وحنو ، يحاولون ما استطعن أن ينفضن عنه هذه
الآثار ، وأن يروحن عنه في الفترات القليلة التي كان يسكن فيها الى
بيته وأهله ..

وهكذا عاشت « أم كلثوم » مع أسرتها في صميم معركة الاضطهاد
الأولى التي بلغت أقصى ذروتها حين يئست قريش من خذلان أبي طالب
لابن أخيه ، وخاب سعيها لديه كي يسلمه الى أعدائه فييطشوا به ..

ثم أسلم حمزة بن عبد المطلب ، وأسلم عمر بن الخطاب ، فطار صواب
قريش وتخلي عن رجالها ما عرفوا به من رشد وحلم ، فانتصروا فيما
بينهم على مقاطعة بني هاشم ، وسجلوا مقاطعتهم في وثيقة علقوها في
جوف الكعبة (١) ، وخرج محمد بأسرته ومن تبعه الى شعب أبي طالب ،
وانحازت اليه بنو هاشم وبنو عبد المطلب ، الا أبا لهب ..

وهناك عاشوا في ضيق الحصار ، حتى انهم كانوا يأكلون الخبط
وورق السمر ، وأقاموا على ذلك نحو ثلاث سنين لا يصل اليهم شيء
إلا سرا ..

(١) انظر حديث « الصحيفة » في السيرة ٢٧٥/١ وفي تاريخ الطبري : ٢٢٥/٢

أم كلثوم

- عودة الى البيت
- الهجرة
- مع رقية دائماً
- الرحيل

وقسا الصراع وظال ، ثم رفّت روحها على شفتيها في حشجة وانية ،
وعيناها على زوجها ، وغابت عن الوجود ..

ورنا إليها « عثمان » يتزود لفراق طويل ، وفي مسمه صدى من
حشجة الموت ، مختلطا بهتاف البشرى بانتصار المسلمين في « بدر » ..

وجاء الأب الثاكل فدنا من ابنته الراقدة يودعها بادى الحزن والأسى ،
ثم اثنى في رفق نحو ابنته « فاطمة » التى أكبت على مضجع أختها
تبكى ، فجعل صلى الله عليه وسلم يمسح دموعها بطرف ثوبه (١) ..

وهنا لم تتسالك النساء أنفسهن أمام المشهد الفاجع ، فانسجن خارج
الغرفة مجهشات بالبكاء وقد تخلى عنهن ما كن يصطنعن فى حضرة الرسول
من تجمل وتصبر ..

وهاج نحيبهن غضب « عمر بن الخطاب » فزجرهن فى عنف وقسوة
محاوولا أن يأخذهن بما يجب لمثل هذا المكان من سكينه ووقار ، لكن
الرسول الرحيم كفه عنهن قائلا :

« مهما يكن من العين ومن القلب فمن الله والرحمة ، ومهما يكن من
اليد واللسان فمن الشيطان » ..

وصلى الأب النبى على ابنته رقية ..

وشيعت « يثرب » جثمان بنت الرسول ، ذات الهجرتين ، حتى ووريت
الثرى الطيب الذى ارتوى يومئذ بدماء الأبرار من شهداء « بدر » ..

وضرب أبوها الرسول ، لصهره « عثمان » بسهمه وأجره ، مسا أفاء
الله على المسلمين فى « بدر » إذ كان انما تخلف عن شهودها ، لمرض
« رقية » الراحلة (٢) ..

(١) الاصابة : ٨٢/٨

(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد : ٦/٢

هنالك كفت « رقية » عن أسئلتها ، وسارت مترنحة نحو مخدع أمها :
الراحلة حيث تهالكت على فراشها جامدة العين زائغة البصر ، مثلجة
الأطراف ..

الى أن جاء أبوها صلى الله عليه وسلم ، فأذاب ذلك الجبود القاتل
بحرارة لقاءه ، وأزاح بحنوه ذلك الركام الصخري الذى جثم على قلب
ابنته ..

وأسعفها الدمع ما شاء لها حزنها وأسأها ، ثم أوت الى الصدر الرحب
الكريم ، وثابت الى السكينة والصبر ..

ولم يطل بها المقام بمكة بعد ذلك ..
هاجر أبوها النبی الى يثرب ، وكذلك هاجرت هى فى صحبة زوجها
وفى دار الهجرة ، وضعت طفلها عبد الله بن عثمان (١) ، فملاً عليها
منزلها الجديد أنسا ، وأقبلت عليه تريد أن تسمى به مرارة ثكلها لجنينها
البكر ، ولوعة مصابها فى أمها ، وما ذاقت فى هجرتها من شجن الغربة ..
وحسبت أنها قد استوفت حظها من الآلام ، لكن الله تعالى امتحنها
بمصاب جديد ..

مات « عبد الله » طفلاً بنقرة من ديك ، فترنحت رقية تحت وطأة
الشكل المرير المضاعف ، صريعة الحمى ..

وأقام « عثمان » الى جانبها يمرضها ويرعاها ، حتى اذا تناهى الى
سمعه صوت داعى الرسول يؤذن أن حى على الجهاد ، ويستنفر المهاجرين
والأنصار للقاء عدوهم فى « بدر » ود عثمان لو يلبي الداعى الكريم ،
لكن قلبه لم يطاوعه على فراق « رقية » التى كانت تعالج ما يشبه
سكرات الموت ، فتخلف عن شهود موقعة بدر مكرها ، وراح يشهد
معركة الموت فى أعز من له ! (٢)

(١) نسب قريش : ٢٢ والاصابة ج ٨٢/٨ . والاستيعاب : ١٠٢٧/٣
(٢) الاصابة ٨٢/٨ - وتاريخ الطبرى : حوادث السنة الثانية للهجرة .. والطبقات الكبرى
لابن سعد : ٦/٢

سلة بن عبد الأسد معه امرأته « أم سلمة ، هند بنت أبي أمية » ،
والسكران بن عمرو معه امرأته « سودة بنت زمعة » ..

وراحوا خلال سفرهم الطويل يعللون أنفسهم بلقاء الأحباب ،
ويتشاغلون بتشل ما ينتظرهم في الوطن من أنس وطمأنينة ..
حتى اذا عبروا البحر واستقلوا رواحهم ساعين الى البلد العتيق ،
خدرتهم النشوة وتركوا خيالهم يحملهم على أجنحته السحرية الى الوطن
الى أن بلغوا مشارف مكة ، فكانت اليقظة المروعة ..
فهنالك على الصخور الملتهبة ، رأوا بعيونهم التي ما زالت بها بقية من
خدر الحلم ، نفرا من اخوانهم المسلمين المستضعفين ، تسومهم زبانية
قريش سوء العذاب ..

وأخذت العائدين صيحات " من هنا ومن هناك ، تعدهم بالويل والهلاك .
وصمت الحادي ، وطارت النشوة ، وتمزقت الرؤى ، وتبعثرت الأحلام ..
ولبثوا هنالك يومهم ، حتى اذا أدبر النهار دخل بعضهم مكة في جوار
من الوليد بن المغيرة المخزومي ، أو أبي طالب بن عبد المطلب الهاشمي ..
وعلى أثرهم دخل الباقر مستجيرين بالحرم الأقدس ، وعلى وجوههم
نور الاستشهاد ..

وآبت « رقية » الى بيت أبيها مشوقة مجهدة ، فحفت أختاها أم كلثوم
وفاطمة للقائها ، وتشبثا بها معانقتين ، وهما تغالبان الدمع وتكلفان
التجلد .. وأفلتت من عناقها وسألت مسترربة :

— أين أبي ، وأين أمي ؟ ..

أجابتا :

— أبوك بخير ، وقد خرج للقاء العائدين معك من مهاجرة الحبشة ..
ثم اختلجت شفاهما في تأود مكتوم ..

وعادت رقية تسأل وقد أوجست خيفة : « وأمى ، أين هي ؟! »

فأطرقت « أم كلثوم » صامته لا تجيب ، أما « فاطمة » فغادرت الغرفة
وهي تشجج باكية ..

على أن قلوبهم ظلت أبدا تنزع الى مكة ، وتحن الى من تركوا بها من الأهل والأحباب ..

وظلت أسماعهم مرهفة ، تتلهف على أبناء الرسول وصحبه في حربهم المقدسة مع عبدة الأوثان ..

ولعل السيدة « رقية » كانت أشد المهاجرين حنينا الى مكة ، ولعلها ما افتقدت أبويها وأخواتها من قبل ، مثلما افتقدتهم آنذاك ، فلقد أثرت الأحداث الشداد التي مرت بها في صحتها أيما تأثير ، فأسقطت جنينها الأول ، حتى خيف عليها من فرط الضعف والاعياء ..

لكنها وجدت من رعاية زوجها وحبه ، ومن عطف المهاجرين وعنايتهم ، ما أعانها على اجتياز الأزمة الحرجة ، ريثما عاودتها العافية بورود الأبناء من مكة ، أن قریشا يئست من الرسول وصحبه ، فرفعت الحصار المنهك الذي ضربته على الهاشميين ..

وأضافت الشائعات أن قریشا ثابت الى رشدها لما رأت من عجيب ثبات النبي وصدق ايمان الذين اتبعوه ، فمالت طائفة منها الى الاسلام عن تأثر واقتناع ، ورغبت أخرى فيه التماسا للغنم والمجد حين يعلو أمر محمد ويتشر الدين الجديد ..

وقد أصغى مهاجرة الحبشة الى هذا الذي قيل وشاع ، فهفت قلوبهم الى العودة الى الوطن ..

ولم يقو بعضهم على مغالبة ذلك الحنين المستثار ، فتهيئوا للرحيل على عجل ، يحدوهم الشوق الى أحب أرض وأعز موضع ، على حين آثر آخرون أن يتلبثوا في مهاجرهم ، ريثما يستيقنون مما قيل عن مهادنة قریش للرسول صلى الله عليه وسلم ، واسلام كثرة منها ..



سار الركب في طريق مكة ، وقد بلغ عددهم ثلاثة وثلاثين رجلا يتقدمهم « عثمان بن عفان » وزوجته السيدة « رقية » والزبير بن العوام ابن أخت السيدة خديجة ، وعبد الله بن جحش ابن عمه الرسول ، وأبو

خضراءهم (يعنى شجرتهم التى منها تفرعوا)
 وأما عبد الله بن أبى ربيعة ، فأخجله أن يكون النجاشى الغريب ، أبر
 بجيرانه منه ، وما فيهم من لا يست اليه بقربى أو رحم ..
 قال لعسرو : لا تفعل ، فان لهم أرحاما وإن كانوا قد خالفونا ..
 ورد « عمرو » فى إصرار :

— والله لأخبرنه أنهم يزعمون أن عيسى بن مريم عبد ! (١)
 ومضى النهار كله وقطعة من الليل ، وعسرو بن العاص يدبر لغده ،
 أما المهاجرون فباتوا آمنين لا يخافون من النجاشى غدرا ، وقد أجمعوا
 رأيهم أن يجيبوه اذا سألهم عن عيسى بن مريم ، بما قال الله وما جاءهم
 به نبيهم محمد ، وليكن بعد ذلك ما يكون ..

فلما أصبحوا دعاهم النجاشى وسألهم عما يقولون فى « عيسى » فأجاب
 جعفر : « نقول فيه الذى جاءنا به نبينا صلى الله عليه وسلم : هو عبد الله
 ورسوله وروحه وكلسته ألقاها الى مريم العذراء البتول » ..

قالوا : قد النجاشى يده الى الأرض فأخذ منها عودا وقال لجعفر :
 — والله ما عدا عيسى بن مريم ما قلت ، هذا العود ..
 ثم أمسك لحظة ، وجعل ينقل بصره بين البطارقة ، وعسرو وصاحبه ،
 حتى استقر على المهاجرين فقال :

« اذهبوا فأنتم آمنون بأرضى ، من سيكم غرم — كررها ثلاثا —
 وما أحب أن لى جبلا من ذهب ، وأنى آذيت رجلا منكم » ..
 والتفت من بعد ذلك الى بطارقه قائلا :

« ردوا عليهما هداياهما ، فلا حاجة لى بها ، فوالله ما أخذ الله منى
 الرشوة حتى رد على ملكى فأخذ الرشوة فيه ، وما أطاع الناس فى
 فأطيعهم فيه » (٢)

ورجع عسرو وعبد الله الى قريش بخفى حين ..
 وأقام المهاجرون مع خير جار ما شاء الله لهم أن يقيموا ..

(١) السيرة : ٢٦٠/١ ، ٢٦١

(٢) السيرة : ٢٦٢/١

— أيها الملك ، كنا قوما أهل جاهلية نعبد الأصنام ونأكل الميتة ونأتي الفواحش ونقطع الأرحام ونسئ الجوار ويأكل القوي منا الضعيف ، حتى بعث الله إلينا رسولا منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه ، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا دونه من الحجارة والأوثان ، وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الرحم وحسن الجوار والكف عن المحارم والدماء ، ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم وقذف المحصنات ، وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئا ، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام ، فصدقناه وآمنا به واتبعناه على ما جاء به من الله ، فعدا علينا قومنا فعذبونا وفتنونا عن ديننا ليردونا إلى عبادة الأوثان عن عبادة الله تعالى ، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث ، فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا وحالوا بيننا وبين ديننا ، خرجنا إلى بلادك واخترناك على من سواك ، ورجعنا في جوارك ورجونا ألا نظلم عندك أيها الملك » (١)

فصمت النجاشي مليا ثم سأل :

— هل معك مما جاء به عن الله من شيء ؟

أجاب جعفر : نعم ..

قال النجاشي : فاقرأه على ..

فتلا جعفر صدرا من سورة مريم ..

قالوا : فبكى والله النجاشي حتى اخضلت لحيته ، وبكت أساقفته

حتى أخضلوا مصاحفهم ، ثم قال :

— ان هذا والذي جاء به « عيسى » ليخرج من مشكاة واحدة .

والتفت إلى عمرو وعبد الله ، مبعوثي قريش ، قائلا :

— انطلقا ، فلا والله لا أسلمهم إليكم ولا يكادون ..

فانصرفا ، أما عمرو بن العاص فلم يفقد ثقته في دهائه ولا استسلم

للhezيمة صاغرا ، بل قال مهردا : والله لآتيه غدا عنهم بما أستأصل به

(١) السيرة : ٢٥٩/١ ، وتاريخ الطبري ، حوادث الهجرة إلى الحبشة

النجاشى فينا ، ثم يقدم الى النجاشى هديته ، ويسألاه أن يسلمنا اليهما قبل أن يكلمنا ..

« فخرجا حتى قدما الحبشة ، ففعلا .. وقالوا لكل بطريق منهم : انه قد ضوى الى بلد الملك غلمان منا سفهاء فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا فى دينكم ، وجاءوا بدين مبتدع لا نعرفه نحن ولا أتم ، وقد بعثنا الى الملك فيهم أشراف قومهم ليردهم اليهم ، فاذا كلمنا الملك فيهم فأشيروا عليه بأن يسلمهم الينا ولا يكلمهم ، فان قومهم أعلى بهم عينا - أبصر بهم - وأعلم بما عابوا عليهم ..

فوعدهما البطارقة خيرا ، ثم انهما قدما هداياهما الى النجاشى فقبلها منهما ، ثم كلماه بثل ما كلمنا به البطارقة ، فقالت البطارقة حوله : صدقا أيها الملك ، قومهم أعلى بهم عينا وأعلم بما عابوا عليهم ، فأسلمهم اليهما فليرداهم الى بلادهم وقومهم ..

« فغضب النجاشى وقال : لاها الله !.. اذن لا أسلمهم اليهما ولا يكاد قوم جاورونى ونزلوا بلادى واختارونى على سواى ، حتى أدعوهم فأسألهم عما يقول هذان فى أمرهم ، فان كانوا كما يقولان أسلمتهم اليهما ورددتهم الى قومهم ، وان كانوا على غير ذلك منعتهم منها وأحسنت جوارهم ما جاورونى .. » (١)

وهذا هو قد أرسل الى رجالنا يدعوهم ، فلننتظر ما الله يرضى لنا ..

وطال انتظارهن قبل أن يعود الرجال من قصر النجاشى ويحدثوا عما كان ..

استقبلهم النجاشى وقد جسع أساقفته حوله ومعهم صحفهم منشورة ، فسألهم : « ما هذا الدين الذى فارقتم فيه قومكم ولم تدخلوا به فى دينى ولا فى دين أحد من هذه الملل ؟.. »
فأجاب عنهم « جعفر بن أبى طالب » :

(١) السيرة : ٣٥٧/١ - ومعها السمط الثمين للمحب الطبرى ٨٦

تعلم ، آيت اللعن ، أنك ما جد
 كريم ، فلا يشقى لديك المجانب
 وأنك فيض ذو سجال غزيرة
 ينال الأعدى نفعها والأقارب (١)

فهزت قريش رأسها لما سمعت نداءه ، وقال قائلاً مستهزئاً : ما يبلغ
 صوت الشيخ من مكيدة عمرو وصاحبه ؟ وماذا تجدى الكلمات مع
 الهدايا التي حملها مبعوثاً مكة الى النجاشي وبطارقته ؟

وكان المهاجرون في منزلهم النائي ، يرهفون أسماعهم الى ما تنثر
 من شائعات شتى مبهمة عن ائتمار قريش بالمسلمين المغتربين فلا يكادون
 يلقون إليها بالا ، حتى رابهم ذات يوم وصول « عمرو بن العاص وعبدا
 ابن أبي ربيعة » الى هناك والتماسها لقاء البطارقة واحدا بعد الآخر ..
 ثم ما لبث المهاجرون أن تلقوا دعوة النجاشي ليتحدث اليهم في أمر
 ذي بال ، فذهبوا وهم يتساءلون :

— ما تقولون للرجل اذا جئتموه ؟
 وكان الجواب الذي أجمعوا عليه :

— نقول والله ما علمنا ، وما أمرنا به نبينا ..

وسعت المهاجرات الى منزل رقية بنت النبي ، وقد خامرهن شيء من
 القلق ، فاذا لديها « أم سلمة ، هند بنت زاد الركب » (٢) تحدث عما
 علمت من مكيدة الرجلين ..
 قالت :

— هو ما سمعتن من ائتمار قريش بنا لما بلغها أنا جاورنا بالحبشة
 خير جار : أمنا على ديننا ، وعبدنا الله تعالى لا تؤذنى ولا نسمع شيئاً
 نكرهه ، فبعثوا هذين الرجلين معهما هدايا مما يستطرف من متاع
 مكة ، وقالوا لهما أن يدفعا الى كل بطريق هديته ، قبل أن يكلمنا

(١) السيرة : ٢٥٧/١

(٢) تزوجها الرسول بعد وفاة زوجها أبي سلمة المخزومي - الطبري : ٤٢/٣

وقال « عثمان بن مظعون » يعاتب ابن عمه وكان شريفاً في قومه :

أخرجتني من بطن مكة آمنًا
 وأسكنتني في صرح بيضاء تقذع
 تريش نبالا لا يواتيك ريشها
 وتبرى نبالا ريشها لك أجمع
 وحاربت أقواما كراما أعزة
 وأهلكت أقواما بهم كنت تفزع
 ستعلم ان نابتك يوما مليمّة
 وأسلمك الأوباش ، ما كنت تصنع! (١)

وبلغت هذه الأصوات ومثلها مكة ، فأفزعت قريشا فوق ما بها من
 فزع ..

وأطار النوم من عيونها ، أن أصحاب محمد قد آمنوا بأرض الحبشة
 وأصابوا بها دارا وقرارا ، فائتمر المشركون فيما بينهم على أن يبعثوا منهم
 رجلين من دعاتهم ، لكي يفسدوا ما بين النجاشي وبين المهاجرين المغترين ..
 ووقع اختيارهم على « عبد الله بن أبي ربيعة » - والد عمر -
 و « عمرو بن العاص بن وائل » وجمعوا لهما هدايا للنجاشي ولبطارفته ،
 فانطلقا بها على مرأى ومسمع من محمد صلى الله عليه وسلم ، ومن بقي
 الى جانبه من أصحابه وآله ..

وأشفق « أبو طالب » على من بأرض الحبشة - وفيهم ولده جعفر ،
 وولدا ابنته أميمة وبرة ، ورقية حفيدة أخيه عبد الله - من مكيدة عمرو
 وصاحبه ، فأنشد شعرا يستثير فيه كرم « النجاشي » ويحضه على أن
 يحمي جواره :

ألا ليت شعري كيف في النأي جعفر

وعمر ، وأعداء العدو الأقارب ؟ ..

وهل نالت أفعال النجاشي جعفرا

وأصحابه ، أو عاق ذلك شاغب ؟

الرسول ، وكيف حال الأهل والصحابة بمكة؟! قالوا : على العهد بهم ، لم ينسوا من هاجروا في سبيل الله . وحدثوا أن « النبي » اقتقد أبناء ابنته ، حتى أتت امرأة أخبرته صلى الله عليه وسلم أنها رأت رقية وزوجها ، فقال : « منحهما الله ، أن عثمان أول من هاجر بأهله » (١)

لم تضق الحبشة بالوافدين الثمانين ، كما لم تضق بمن سبقوهم ، بل أمتهم « النجاشي » وأحسن جوارهم ، وتركهم أحرارا يعبدون الله لا يخافون على ذلك أحدا .. هنالك رفع « عبد الله بن الحارث بن قيس » صوته منشدا وهو يرجو أن يسمع من بمكة : (٢)

يا راكبا بلغنْ عنى مغفلة
من كان يرجو بلاغ الله والدين
كل امرئ من عباد الله مضطهد
بيطن مكة مقهورٍ ومفتون
إنا وجدنا بلاد الله واسعة
تنجى من الذل والمخزاة والهون
فلا تقيموا على ذل الحياة وخز
ى فى الممات وعيب غير مأمون
ثم اثنى الى قلبه المثقل بأشجان العربة ، فهاجت مواجعه لما ذكر من بغى قريش ، وقال : (٣)

أبت كبدى ، لا أكذبك ، قتالهم
على ، وتأباه على أناملى
وكيف قتالى معشرا أدبوكم
على الحق أن لا تأشبهه باطل

(١) الاصابة : ٨٢/٨ ، وأنظر معه فى الاصابة ترجمة عبد الله بن الحارث (٢ ، ٣) السيرة : ٣٥٤/١ ،

وتبادل المهاجرون الأولون تحية الاسلام ، ثم قاموا جميعا للصلاة ، يؤمهم عثمان بن مظعون الجمحي صاحب الرسول ، فلما قضاوا الصلاة رفعوا وجوههم الى السماء يدعون الله أن ينصر دينه ، ويحسى رسوله من كيد المشركين ..

واستقبلوا الجنوب راحلين ، وقد استمروا ما يملأ قلوبهم من شجن ، وطاب لهم أن يكتووا بنار الغربة في سبيل دينهم الحق ، والتسوا العواض عن فارقوا من الأهل والأحباب ، في هؤلاء الصُحْب الكرام ، رفاق السفر والاخوان في الدين والهجرة ..

وزحبت الحبشة بالمهاجرين الأولين ، وأوسعت لهم في أرضها مكانا سهلا ، ثم ما لبثت أن استقبلت أفواجا جديدة من اخوانهم المسلمين ، حتى بلغت عدتهم ثلاثة وثمانين غير أبنائهم الذين خرجوا بهم صغارا ، أو ولدوا في مهاجرهم ..

وسرَّ « رقية » أن تجد فيهم من بنى هاشم : ابن عم أبيها « جعفر بن أبي طالب » ، ومعه امرأته « أسماء بنت عيسى » ..
ومن بنى أمية ، آل زوجها عثمان : عمرو بن سعيد بن العاص بن أمية ، وأخاه خالد ، ومعهما زوجتاها ..

ومن بنى أسد : عبد الله بن جحش - ابن أمية بنت عبد المطلب عنة الرسول - وأخاه عبيد الله ، ومعه امرأته أم حبيبة بنت أبي سفيان بن حرب ، التي تزوجها الرسول بعد سنين ..
ومن أخوالها بنى زهرة : عامر بن أبي وقاص بن أهيب بن عبد مناف، ابن زهرة ..

ومن بنى عامر : ثمانية نفر ، منهم السكران بن عمرو ، ومعه امرأته « سودة بنت زمعة بن قيس » التي تزوجها الرسول بعد عام الحزن ..

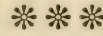
وأحاط المهاجرون العشرة الأولون بالوافدين يسألونهم كيف تركوا

والروح والأبدان . فليقبل الرب
فليقبل الرب

وهز الصوت الشجي قلب « رقية » فأصغت إليه وهي ترتجف انفعالا وتأثرا ، ثم أطلت من هودجها لعل أثرا من مكة لا يزال يلوح من بعيد ، فإذا زوجها « عثمان » على قيد خطوة منها ، يرنو إليها في عطف مشوب بالعتاب !

وفهمت « رقية » ما يهجس في خاطره ، فأشرق وجهها بابتسامة راضية وقالت :

— الله معنا ، ومع الذين تركناهم برغنا في جوار البيت العتيق ..
ثم استدبرت أحب أرض ، وقد هون عليها محنة الفراق أن « عثمان »
إلى جانبها ، وأكرم^١ به صاحبا وعشيرا ..



وفي أول مرحلة من الطريق ، أناخت الإبل ريشا تجمع المهاجرون الأولون في سبيل الله ، فبلغت عدتهم عشرة^(١) ، فيهم من بنى عبد شمس ، آل عثمان : أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس ، أخو هند ، وصهر أبي سفيان ، تصحبه زوجته سهلة بنت سهيل بن عمرو العامرية ..

ومن بنى أسد بن عبد العزى بن قصى ، أخوال رقية : الزبير بن العوام بن خويلد ..

ومن بنى عبد الدار بن قصى ، أبناء عم عثمان ورقية : مصعب بن عمير بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار ..

ومن بنى زهرة ، أخوال الرسول : عبد الرحمن بن عوف الزهري ..
ومن بنى مخزوم : عبد الله بن عبد الأسد ، ابن عم الرسول ، برة بنت عبد المطلب ، تصحبه زوجته « هند بنت زاد الركب ، أبنى أمية بن المغيرة المخزومي » التي تزوجها الرسول بعد « أحد » ..

(١) السيرة : ١٤٥/١ . وفي رواية أنهم كانوا أحد عشر رجلا وأربع نسوة « الطبرى : ٢٣١/٢ »

وطال ليل قريش وهى تذكر « عثمان بن عفان » الذى رضى أن يبيع أهله وعشيرته ودنياه فى سييل رضى محمد وربه ، وانه ليعلم ما يلتقى أصحاب « محمد » من أذى ، ويقدر أنه باتباعه الدين الجديد ، قد حكم على نفسه بالنبد من المجتمع القرشى الذى أحله مكانا مرموقا ..



ولو نظرت قريش ليلتئذ بظهر الغيب ، لرأت فتى أمية : « عثمان بن عفان » يهاجر من مكة ، موطن آباءه ومهد طفولته ومناط عزته ، الى بلد ناء وقوم غرباء ..

« ذلك أن محمدا - صلى الله عليه وسلم - لما رأى ما يصيب أصحابه من البلاء ، وأنه لا يقدر أن ينعمهم ، قال لهم : لو خرجتم الى أرض الحبشة فان بها ملكا لا يُظلم عنده أحد ، وهى أرض صدق ، حتى يجعل الله لكم فرجا مما أنتم فيه ! »

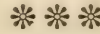
فكان « عثمان بن عفان » أول من هاجر الى الحبشة ، وهاجرت معه زوجته السيدة « رقية » على قرب عهدهما بالزواج (١) ..

وتجلد المهاجر وهو يلقى نظرة وداع على البلد الحبيب ..
أما « رقية » فلم تملك دمعها ، وهى تطوف بسغانى صباها مودعة ، وتعانق أباه وأمه وأخواتها الثلاث ، قبل أن تتبع زوجها الى ذلك البلد النائى المجهول ..

وتنهلت فى مسيرها الى حيث كانت راحلتها تنتظر ، فلما آن أوان الرحيل تلفتت وراها لتسأل عينيها من الوطن فحال الدمع دون ما تبغى وكذلك سارت الجمال وئيدا تريد أن تتزود من عير أم القرى ، فلما خرجت الى الصحراء العارياة الجرداء ، انطلقت خفافا ، تتسع غناء الحادى :

الأهل والأوطان	فراقهم صعب
لكنه الايمان	فداؤه القلب

ومن ناحية الأم عند عبد المطلب بن هاشم ، فجدة عثمان لأمه ، هي البيضاء أم حكيم بنت عبد المطلب جد النبي (١) ..
 وكان « عثمان » الى هذا النسب العريق ، بهي الطلعة ، فخم السميت موفور المال ، رضى الخلق ..
 ثم أعزه الله فى الاسلام فكان من السابقين الأولين (٢) ..



تقدم « عثمان » الى رسول الله يسأله شرف المصاهرة ، فوجه صلى الله عليه وسلم ابنته « رقية » ولم يثر زوجان قط أجمل منها ولا أبهى ..

ولم تشارك « مكة » هذه المرة فى الاحتفال بالعرس الكريم ، بل باتت قريش بغيظها مسهدة تفكر فى هذا الخصم العنيد الذى يزداد على الاضطهاد قوة وثباتا ، ويتحدى فى قلة عزلاء من صحابته ، قبائل قريش مجتمعة ، وفيها الجاه والكثرة والبأس !
 وعجبت لهؤلاء النفر الذين اتبعوه ، يؤثرونه على أنفسهم وأهليهم وأموالهم ، ولا يترددون فى افتدائه بالمهج والأرواح ، بل يرون الاستشهاد معه أو فى سبيله مجدا وانتصارا ..

من هؤلاء ، من كان بالأمس له عدوا ، ومنهم من تردد أمداء قبل أن يؤمن برسالته ، ولكنهم جميعا ما كادوا يسلمون حتى التفوا حواله يبذلون له الحب محضا خالصا على نحو لا تعرف الدنيا له مثيلا ..

وتذاكرت قريش ليلتئذ صبر المسلمين على محنة التعذيب فى مستهل المبعث ، فقد « وثبت كل قبيلة على من فيها من المسلمين فجعلوا يحبسونهم ويعذبونهم بالضرب والجوع والعطش ، وبرمضاء مكة اذا اشتد الحر » حتى يفتنوهم عن دينهم ، فيؤثر أحدهم أن يموت على أن يرتد الى دين الكثرة الغالبة ! (٣)

(١) الاستيعاب : ١٠٢٨/٤ - ونسب قريش ١٨

(٢) السيرة : ٢٦٧/١

(٣) تاريخ الطبرى : ٢٢٠/٢ - والسيرة : ٢٢٩/١

بالمِرصاد ، وتَأبى ما وسعها الجهد أن تخلو الأخت الى أختها ، ولو استطاعت لأقامت بينهما سدا ..

وهكذا احتسبت ابنتا محمد هومهما في صمت وصبر ، حتى أراحهما الله من ذاك الكرب ، ونجاهما من كيد حمالة الحطب وعيشتها النكدة !..

على أن الحياة في بيت أبيهما - صلى الله عليه وسلم - كانت قد تغيرت عما ألقنا في أمسها السعيد ، فولى عنها ما كانت تنعم به من راحة وهدوء ..

أو لم يقل الرسول لزوجته : « مضى عهد النوم يا خديجة » ؟ .. بلى ، وجاء عهد السهد والاضطهاد والامتحان والعذاب في سبيل الله ، وان النبي ليعود الى بيته كلما خرج ، محزوناً لما يجد من عنت قومه وصداهم عن سبيل الله ، فما تزال السيدة خديجة تثبته وتهون عليه ما يلقي ، حتى يزول ما به من حزن ..

ومع كل هذا العذاب ، طاب لرقية وأم كلثوم أن تشاطرا أبويهما ما يلقيان في سبيل الله ، وارتاحت نساها لاحتلال كل صنوف الأذى ، واستعدبتا الألم والتضحية في تلك المعركة المقدسة ..

وخاب ظن حمالة الحطب وظن المشركين من قريش ، فلم يُشغل « محمد » - صلى الله عليه وسلم - بابنتيه عن دعوته ، ولم يشق عليه رجوعهما الى بيته ، فقد نجاهما الله من محنة العيش مع ابني حمالة الحطب وأبى لهب ، ثم ما لبث أن أبداهما خيراً منهما : زوجاً صالحاً كريماً ، من النفر الثانية الذين سبقوا الى الاسلام ، وأحد العشرة المشهود لهم بالجنة ، ذلك هو « عشان بن عفان بن أبى العاص بن أمية ابن عبد شمس » (١) أعزه الله في الجاهلية فكان من أعرق قتيان قريش ، نسباً ، يلتقى مع الرسول الكريم من جهة الأب عند عبد مناف بن قصي ،

(١) نسب قريش : ١٠ وصحيح مسلم : ٢٨/٤ ، ٢٩ وصحيح البخاري : ٦٢ باب ٥ ، ٧ ، ١/٨ باب ١١٩

يطعمهم به . ويغدو التجار على أبي لهب فيربحهم فيما اشتروا من الطعام واللباس ، حتى جهد المسلمون ومن معهم من بنى هاشم جوعا وعريا (١) وأدع الخبر بغير تعليق ، وأدع معه ذلك الاستطراد الطويل الذي مضيت فيه بالرغم منى ، مستثارة بما قرأت عن أبي لهب وأنا ألتبس أخبار ابنتى محمد ، فى زواجهما الخائب بابنى ذلك العم الجاحد العاق ، وعودتهما الى أبويهما ، شفاء لحقد حماتهما أم جميل بنت حرب ، حمالة الحطب ..

وبين هاتيك السطور التى نقلتها ، أقرأ ما لم يكتب عن معاملة هذه العبسية لابنتى محمد ، اذا صحت الرواية القائلة بأن الطلاق تم بعد انتقالهما الى بيت أبي لهب ، وليس قبل الدخول بهما كما تقول رواية أخرى (٢) ..

وأكاد ألمحهما وراء هذا كله ، فى تجربتهما القاسية المرة ، حين غادرتا بيتهما الأول الذى تظله أجنحة الحب والسلام ، الى بيت تتلقاهما فيه - وهما فى جلوة العرس - امرأة سليطة ركبها الشيطان ، فتلقى عليهما ظلها الثقيل صباح مساء ، وترصد حركاتهما وسكناتهما ، وتحاسبهما على النظرة والهمسة واللفتة ، وتنقم عليهما ما ترى فى سمتهما النبيل وملامحهما اللطيفة ، من مخايل السيدة « خديجة بنت خويلد » موضع غيرتها وحسدها ..

فاذا قابلت العروسان صنيع حماتهما بالتجمل والصبر ، أساءت الظن بوداعتهما فحسلتها محمل الازدراء والترفع ، وازدادت لذلك شراسة وغلظة وجفاء ..

ولم تفكر احدهما فى الشكوى لأبويهما ، فقد كاتتا أبر بهما من أن تروعهما بالحديث عن أفاعيل « أم جميل » .. وكان الظن أن تجد كل منهما فى أختها متنفسا لكرهها وموضعاً لشكايتها ، لولا أن « أم جميل » كانت هنالك دائماً ، تقف لهما

(١) السيرة - ١ وأنظر كذلك مسند أحمد ٤٩٢/٣ ، ٣٤١/٤ . وتاريخ الطبرى : ٢٢٥/٢

(٢) ابن حجر : الإصابة ٢٨/٨

وربما استيقظ ضسير أبي لهب مرة ، وغلا في عروقه الدم الذي يحن الى ابن الأخ ، فثار مغضبا لما يرى من جور قريش على بنى هاشم . حدثوا أن أبا سلسة المخزومي ابن برة بنت عبد المطلب ، استجار بخانه أبي طالب ، حين أرادت قريش أن تقتنه عن اسلامه ، فمشى رجال من بنى مخزوم الى أبي طالب فقالوا له :

— لقد منعت منا ابن أخيك محمدا ، فمالك ولصاحبنا تمنعه منا ؟ قال : انه استجار بى وهو ابن أختى ، فان أنا لم أمنع ابن أختى لم أمنع ابن أختى ..

وكان أبو لهب حاضرا ، فقال مغضبا : يامعشر قريش ، والله لقد أكثرتم على هذا الشيخ !.. ما تزالون تنوثبون عليه في جواره من بين قومه ، والله لنتهنن عنه أو لنقومن معه في كل ما قام فيه حتى يبلغ ما أراد ..

فأثروا أن يبقوا عليه في حزبهم وقالوا :

« بل ننصرف عما تكره يا أبا عتبة » (١)

لكنها مرة واحدة يتيمة ، لم يذكر الرواة أن « أبا لهب » وقف مثلها مرة أخرى ، بل ظل على مظاهرته أعداء قومه حتى مات ..

وأعشى سحر « أم جميل » عينيه فلم يعد يبصر ، وقذف به وراء هاشميته ورجولته ، بل وراء الانسانية جميعا ..

حدثوا أن بنى هاشم والمؤمنين حين جهدوا من ضيق الحصار في شعب أبي طالب ، كانوا اذا قدمت العير مكة وأتى أحدهم السوق ليشتري شيئا من الطعام لعياله ، يقوم أبو لهب عدو الله فيقول : يا معشر التجار ، غالوا على أصحاب محمد حتى لا يدركوا معكم شيئا ، فقد علستم مالى ووفاء ذمتى ، فأنا ضامن ألا خسار عليكم ..

فيزيدون عليهم في السلعة قينتها أضعافا ، حتى يرجع المسلم أو الهاشمى الى أطفاله وهم يتضاغون من الجوع وليس في يديه شيء

الجبل ، أكنتم مصدقيّ ؟ .. قالوا : ماجربنا عليك كذبا . قال : فاني نذير لكم بين يدي عذاب شديد . فانبرى له أبو لهب قائلاً : تبا لك ، ألهذا جمعتنا ؟ .. فأنزل الله تعالى :

« تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ . مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ . سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ . وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ . فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ » ..
ذلك لأنها كانت تحمل الشوك فتطرحة على طريق رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث يسر ..

قال ابن اسحاق :

« فذكر لي أن أم جميل حمالة الحطب ، حين سمعت ما نزل فيها وفي زوجها من القرآن ، أتت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو جالس في المسجد عند الكعبة ومعه أبو بكر الصديق ، وفي يدها فهر من حجارة - قطعة تملأ الكف - فلما وقفت عليهما أخذ الله يبصرها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا ترى إلا أبا بكر ، فقالت : يا أبا بكر ، أين صاحبك ، فقد بلغني أنه يهجوني ، والله لو وجدته لضربت بهذا الفهر فاه . أما والله إني لشاعرة . ثم قالت :

مَذَمَّمَا عَصِينَا

وَأَمْرَهُ أَيْنَنَا

وَدِينَهُ قَلِينَا

وانصرفت ، فقال أبو بكر : يا رسول الله ، أما تراها رأيتك ؟ فقال : ما رأيتني ، لقد أخذ الله يبصرها عنى (١)

وفي حمالة الحطب ، يقول « الأحوص ، الشاعر الأنصاري » :

ما ذاتُ جبل يراه الناس كلهم

وسط الجحيم ولا يخفى على أحد

كل الجبال ، جبال الناس ، من شعَرَ

وجبلها وسط أهل النار من مسد (٢)

(١) السيرة : ٣٨٢/١

(٢) نسب قريش : ٨٩

لهب الى صميم المعركة بين محمد وقريش ، فبا روى أحد أشد عداوة
منهما لنبي الله ، ولا بلغ أحد من أذاه قدر ما بلغا ، ولا سُمع أن أحدا
من بنى هاشم ظاهر قریشا على حفيد هاشم ، كما فعل أبو لهب ! ..
وانه لموقف يدعو حقا الى الدهشة والعجب ..

وليس مثار الدهشة أن أبا لهب لم يسلم ، فكذلك بقي أكثر
الهاشميين على دين آبائهم زمنا طالا أو قصر ، لكنهم مع ذلك أبوا أن
يخذلوا ابن عبد الله أو يسلموه ..

أقبل حمزة بن عبد المطلب ، أخو أبي لهب ، ذات يوم متوشحا قوسه
عائدا من رحلة صيد ، فلقيته امرأة تقول :

« يا أبا عمارة ، لو رأيت ما لقي ابن أخيك محمد آنفا من أبي الحكم
ابن هشام ؟ وجده ها هنا جالسا فأذاه وسبه وبلغ منه ما يكره » ..

فاحتسل حمزة الغضب - ولم يكن قد أسلم بعد - واندفع غير ملق
بالا الى أحد في الطريق ، حتى عثر بأبي الحكم جالسا في القوم بالبيت
العتيق ، فأقبل نحوه حتى اذا قام على رأسه ، رفع القوس فشجه به
شجة منكرة ثم قال :

« أتشتمه وأنا على دينه أقول ما يقول ؟ .. فرمى ذلك عليّ ان
استطعت ! » (١)

وهكذا أسلم حمزة ، لأنه لم يطق أن يؤذى ابن أخيه بمرأى منه أو
مسمع !

وكذلك لم يطق أحد من بنى هاشم أن يخذل محمدا ، سواء في ذلك
الذين أسلموا منهم والذين لم يسلموا ، غير أبي لهب !
نقل السهيلي رواية عن ابن عباس :

« لما أنزل الله تعالى : وأندر عشيرتك الأقربين . خرج رسول الله صلى
الله عليه وسلم حتى أتى الصفا فصعد عليه وهتف : وا صباحاه ! فلما
اجتمعوا اليه قال : أرايتم لو أخبرتكم أن خيلا تخرج من سفح هذا

(١) السيرة : ٣١٢/١ ، ومعها الاصابة ، ترجمة حمزة « رضه » وتاريخ الطبري :

— انكم قد فرغتم محمدا من همته ، فردوا عليه بناته فاشغلوه بهن ..
 ومشوا الى أصهار الرسول الثلاثة ، فقالوا لهم واحدا بعد الآخر :
 — فارق صاحبك ونحن نزوجك أى امرأة من قريش شئت ..
 فأما « أبو العاص » فأبى ، مؤثرا صاحبته على نساء قريش جميعا ،
 وأما ابنا أبى لهب فاستجابا على الفور ، واختار عتبة زوجة من آل
 سعيد بن العاص ، بدلا من « رقية بنت محمد » (١)
 وفى الحق ، ان ابنى أبى لهب لم يكونا بحاجة الى سعى من قريش
 فى طلاق العروسين ، فلقد تكفلت به « أم جميل بنت حرب » من قبل ،
 حين أقسمت ألا يظلمها وبنتى محمد سقف ، ثم مازالت بزوجها « أبى
 لهب » حتى أثارت حفيظته على البنيتين البريئتين ، فقال لولديه :
 — رأسى من رأسيكما حرام ان لم تطلقا ابنتى محمد ..
 وكان الظن بابنى العم ألا يفعلا ..
 بل كان الظن بالعم ألا يقف هذا الموقف من حفيدتى أخيه عبد الله ،
 وابنتى محمد الذى ابتهج بسولده وأعتق جاريته حين بشرته به ..
 لكن « أم جميل » كانت وراءه ، تسوقه أمامها مسلوب النخوة
 مضيع المروءة فاقد الارادة ، وتسم الدم الياشمى الذى يجرى فى
 عروقه ، وتنسيه ما توجهه عليه عمومته لمحمد من نجدة وحفاظ ..
 لكننا أردات هذه العشمية أن تكيد لبني هاشم ، الذين استأثروا
 بأكثر المجد والسلطان دون قومها بنى عبد شمس ، فراحت تفريق شمل
 الهاشميين وتنزق أواصرهم وتضرب بعضهم ببعض ..
 أو كأنما أردات هذه المرأة الحقود ، أن تشفى غليلها من « خديجة
 بنت خويلد » التى كانت ملء العينون مهابة وجلالا ، ملء الآذان عفة
 وطهرا ، فراحت تؤجج غضب القوم على محمد ، لتغيظ غريبتها خديجة
 وتفسد عليها سعادتها التى كانت مضرب الأمثال ..
 ولم يكفها أن ردت اليها ابنتيها طالقين ، بل خرجت ومعها زوجها أبو

(١) السيرة : ٢٠٧/٢ - وانظر معبا الاصابة : ج ٢٨/٨ - و (مسند أحمد)

لججت وكنتُ في الذكرى لجوجا
 لهمَّ طالما بعث النسيجا
 ووصفٍ من خديجة بعد وصف
 فقد طال انتظاري يا خديجا
 بطن المكتين على رجائي
 حديثك أن أرى منه خروجا !
 ويظهر في البلاد ضياء نور
 يقيم به البرية أن تسوجا
 فيباليتهى اذا ما كان ذاكم
 شهدتُ فكنتُ أولهم ولوجا (١)

ثم صمت الصدى ، وعاد السكون يلف الكون الهاجع ، فأغمضت
 خديجة عينيها ، واستسلمت للرقاد بعد أن ألح عليها السهاد ..
 ومضت أيام وليال ، كثر فيها خروج محمد الى غار حراء وقلب خديجة
 يصحبه مطيفا به محوما عليه ، وان بقيت بجسمها في البيت ، تعد له
 زاده ، وتبعث وراءه من يحرسه ويأتيها بأبائنه ، وترصد مطلع النور
 المرتقب ..

وقد تذكر ابنتها رقية وأم كلثوم ، فيرق قلبها رحمة لهما واشفاقا
 عليهما مما قد تلقيان في عشرة « أم جميل » لكنها لا تلبث أن تنسى
 همها ذلك فيما يملأ دنها من طلائع الأمر الجليل المرتقب ..

ولم يكذب السيدة خديجة ظننها ..
 فما كاد محمد صلى الله عليه وسلم يتلقى رسالة ربه ويدعو الى الدين
 الجديد ، حتى أخرجت « رقية وأم كلثوم » من بيت أبي لهب ، وردتا
 الى بيت أبيهما !..

وكانت قريش قد ائتمرت بالرسول في بناته قائلة :

على ولديهما من السلطان ما يجرح عزة رجولتهما ، ان لم يهدر شخصيتهما اهدارا ..

وقالت أم كلثوم لرقية :

— انك لتعلمين أن أبانا لن يقضى هذا الأمر دوننا ، فباذا ترينك فاعلة ؟ ..

فشجب وجه رقية وهى تجيب :

— لست بالتي تعق أباه ، فتعرضه للحرج أمام أهله وعشيرته الأذنين ..

ثم رنت الى أختها وقالت تشجعها في رقة وعطف :

— لا عليك يا أختاه ، فسكون معا ..



وكذلك تم الأمر في هدوء مشوب بالقلق ، وبارك محمد ابنتيه نم تركهما في حراسة الله ورعايته ، وانصرف الى ما كان يشغله من تعبد وتأمل ..

وكذلك شغلت السيدة خديجة عن ابنتيها بالتفكير في زوجها الحبيب ، وقد ازداد ميلا الى الخلوة واغراقا في التأمل ونزوعا الى الصمت ، وبدا كأنه نفض يديه من شواغل الدنيا وانطوى على نفسه يعالج وحده ذلك الهم الجليل الذى يكتسه حتى عن « خديجة » موضع حبه وثقته وسكنه ..

ليته يدعها تشاركه الهمَّ وتحمل معه العبء الذى تحسه ثقيلًا باهظًا !
ليته يرحمها مما تعانيه من قلق ووحشة ، فيفيض اليها بالذى يشغل باله !
وفجأة ، لاح لها في هدأة الليل شعاع من نور أضاء الظلمة التى أغرقت الكون من حولها ، وتناهى الى مسمعها فى ذلك الصمت العميق ،
صدى من قول ابن عمها « ورقة بن نوفل » لها ، وقد استبطناً أمرا توقعه ، بعد أن سمع حديث ميسرة عن محمد فى رحلتها الى الشام :

وما كان لها وهي الحريصة على طمأنينته أن تعكر هدوءه بمخاوفها من أم جميل بنت حرب ، أو تشغله بالصراع بين حرصه على هناءة ابنتيه ، وبين برّه بقومه واحترامه لأعمامه واعتزازه بعشيرته الهاشمية ، أو تعرضه - وهو في حالته تلك - لعداوة عمه عبد العزى وبغضاء امرأته وفي العرفة القريبة ، كانت الفتاتان مطرقتين ساهمتين ، وأختيهما الصغرى ترقبهما في حيرة : ان الأمر اليوم ليختلف عما شاهدت من « زينب » فلقد كانت بادية البشر والاشراق تستعد للفرح في غبطة وعلى استحياء ، أما رقية وأم كلثوم فتبدوان أقرب الى الاكتئاب والقلق . ولم تستطع طفولة فاطمة أن تميز بين زواج قام على المودة والتعاطف والألفة ، وآخر تعقده أوامر العشيرة وروابط الدم .. ولم تتبادل الأختان حديثا عن حياتهما المقبلة ، لكن أفكارهما كانت تدور بلا ريب في مدار واحد : ما بال الأسرة تتعجل زواجهما ، هلا أتاحت لهما وقتا تألفان فيه فكرة الانتقال الى دار أم جميل ؟ ..

وفي الحق انهما ما أنكرتا من أمر عتبة وعتيبة شيئا واضحا محمدا ، فهما من فتيّة آل هاشم الأمجاد ، ولهما كذلك في بنى عبد شمس عز الخؤولة وصراحة النسب القرشى الكريم ، أما العم عبد العزى ، فله - الى جانب حسبه وثرائه - مكرمة سابقة هيئات أن يججدها آل محمد ، فانه ما كاد يسع بشرى مولد محمد ابن أخيه عبد الله ، حتى أعتق جاريته « ثويبة » التي حبلت اليه البشرى السعيدة ..

وما غاب شيء من هذا عن بال رقية وأم كلثوم ، لكنهما رغم ذلك تجفلان من فكرة الانتقال الى بيت العم ، أيكون هذا لأنهما لم تألفا بعد الوضع الجديد ، ولم يتح لهما وقت لتأخذا نفسيهما بالرضى عنه ؟ أم لعلهما تكرهان أن تستبدلا بالعيش مع أمهما السيدة المهذبة اللطيفة الوقور ، عشرة « أم جميل بنت حرب » - زوج العم عبد العزى - ذات السمات السوقى والطبع الجامح الحاد ؟ .. أو من يدري ، لعلهما أحستا بهدى الفطرة ، فطرة حواء التي قلما تخطيء في مثل هذا ، أن لأم جميل

وبقيت الأم وحدها وقد شعرت بانقباض لا تدرى سببه ، فعلته بقرب فراقها لابنتها ، على أنها ما لبثت بعد فترة تأمل ، أن عرفت فيم انقباضها : لقد كانت لا تستريح الى « أم جميل بنت حرب بن أمية بن عبد شمس » زوجة عبد العزى وأم ولديه ، ففيها شيء من قسوة القلب وشراسة الطباع وحدة اللسان .. وفيها كذلك صلف أحمر وطيش أهوج يأنان بها عما يجب لمثلها من اتزان ووقار ، ويفقدانها ذلك السمات الجليل الذي يغلب على السيدات القرشيات ، وقد أشفت « السيدة خديجة » على ابنتها من معاشره هذه المرأة ، فما لهما بها قبل وما تزالان صغيرتين ، ولو أن الأمر بيديها لحالت دون اتمام هذا الزواج المقترح ، لكنها تخشى ان هى فعلت ، أن تثير الهاشميين عليها ، وتعرض لاتهمم اياها بأنها تحاول أن تمزق ما بين محمد وآله من أواصر القربى ..

والسيدة خديجة الى جانب هذا ، تعرف لأم جميل اتناءها الى بيت قرشى كبير ، ولن تسكت على مهانة الرفض بل ستسعى جهدها لتؤلب قومها على خديجة ، وانها لقادرة على أن تفعل ، وحسبها أن تتناولها بلسانها السليط وتنتقل فى المجتمع القرشى متحدثه بما شاءت وشاء لها حقدتها من مقتريات ..

وكانت السيدة خديجة بحيث تفضى الى زوجها بمخاوفها ، فما اعتادت قط أن تخفى عنه شيئاً مما يهجس به خاطرها أو يجول فى سريرتها لكنها كرهت أن تشغل محمدا بهذه الهواجس ، وهى تراه مشغول البال دائم التفكير منصرفاً عن شواغل الدنيا ، وانها لتدرك بفتنتها وقوة حبها لمحمد ، أن هناك أمراً خطيراً يشغله ، وان لم تدر كنه هذا الأمر ، ولا هى بحيث تحمله على الافضاء به اليها قبل أن يفعل ذلك هو من تلقاء نفسه ، وانما حسبها أن توفر له ما يحتاج اليه من هدوء وسلام ، وأن تحوم حوله من غير أن تثقل عليه ، وترمقه فى خلوته بعين ساهرة ، دون أن تفتحم عليه خلوته ..

— كلا ، لن نتركينا يا حلوة ، حتى تريدى أنت !..

فصاحت « فاطمة » بسلء سذاجتها :

— لكنى لن أريد !..

وعقبت الأم هامة فى دعاة وشجو :

— كذلك تقولين الآن يا صغيرتى ، وكذلك كنا نقول من قبل ..

وأسبلت جفنيها حاملة ، وارتدت بها الذكرى الى أربعة عشر عاما مضت ، فرأت نفسها تعيش خلية البال قد نفضت يديها من الرجال وصمت على ألا تتزوج ، حتى لقيت محمدا فلم تنتظر حتى يتقدم اليها خاطبا ، بل كانت هى التى سعت اليه ، غير مكترثة بما قد يقول الناس ، ولا ملقية بالا الى مايحتمل أن يلقاها به المجتمع القرشى ، حين يبلغه نبأ سعيها للزواج من شاب فقير ، وهى التى ردتْ خاطبيها من سراة قريش وكبار رجالها . وهذه هى تقف بعد بضعة عشر عاما من زواجها بمحمد ، ئتبارك اليوم السعيد الذى لقيته فيه ، وتستعيد ذكراه الحلوة ، فتشعر يدفء الحب يذود عنها برودة الشتاء وهى تدنو حثيثا من عامها الخامس والخمسين !..

وآبت من حلمها الهنىء الذى ماتزال فى نشوة منه ، فاذا صغيرتها « فاطمة » تبادرها سائلة :

— من يكون الخاطبان يا أم ؟..

أجابت فى ايجاز وهى ترنو الى رقية وأم كلثوم ، وقد وقفنا غير بعيد تصغيان :

— عتية وعتيبة ، ابنا العم عبد العزى (١)

وأطالت النظر الى ابنتيها لتلمح وقع الجواب عليهما ، لكنهما انسجبتا إلى مخدعهما فى سكون ، دون أن تنبسا بنت شفة ..
وتبعتهما فاطمة ..

(١) هذا هو اسمه ، وقد غلبت عليه كنيته « أبو لبيب » بعد ذلك . وأمه لبني بنت حاجر الخزاعية ، وجدته لأمه : هند بنت عمرو بن كعب ، من تيم بن مرة - راجع جمهرة انساب العرب : ١٨ - ذخائر

ولم تنتظر « فاطمة » لتسمع أكثر من هذا ، بل أسرعت تعدو الى أختيها في بهو الدار وأسرت اليهما بالنبا الخطير ..
 ووجمت الأختان لما سمعتا ، فقد كان الأمر كله مفاجأة غير متوقعة ،
 ومن ثم استغرقتهما جمود صامت ، ثم راحت كل منهما تنظر الى الأخرى ،
 وكأنها تستنجد بها أو تحاول أن تستين موقفها ، لكن بصريهما ارتد
 اليهما بغير جواب ..

هنالك التفتتا معا الى « فاطمة » وقالتا بصوت واحد :

— فهل عرفتِ لأى أبناء العم يسعى جدنا الشيخ ؟

أجابت الصغيرة :

— كلا ، فما أطلقت صبرا بعد أن سمعت حديث الجد ، وبأدرت
 اليكما بالنبا دون انتظار لما وراءه ..

وأطرقت لحظة مفكرة ثم قالت بصوت خفيض ، وكأنها تحدث
 نفسها :

— وماذا يعيننى من اسم الخاطبين ؟.. ليكونا من يكونان ، فلن
 يتغير الموقف فى كثير أو قليل ، وعما قريب يتكرر المشهد القاسى ،
 وتنتزع رقية وأم كلثوم من بيتنا كما انتزعت زينب من قبل ،
 وتنقلان الى دار أخرى غير هذه الدار ، وأبقى هنا وحدى ، بغير أخت !
 واغرورقت عيناها بالدموع ، حين أقبلت أمها تلمس أختيها ، ولم
 يفت الأم فى اشتغالها بالأمر المهم ، أن صغيرتها فاطمة تبكى ، فانعطفت
 اليها تسألها فى حنان :

— ماذا يبكيك يا صغيرتى ؟..

أجابت وهى تتشبث بها معانقة :

— لاتدعى أحدا ينتزعى منك ومن أبى ، فلست أطيع فراقكما ..

فتبسنت « خديجة » ضاحكة من قولها ، وأجابتها :

لم يكن قد مضى على زواج « زينب » من أبى العاص بن الربيع غير رقت قصير ، حين استقبل البيت المحمدى وفدا من آل عبد المطلب ، جاءوا يلتسون مصاهرة ابن عمهم الأمين ، وقد خافوا أن يسبقهم اليه كفاء كريم من شباب قريش ..

وكانت الشقيقتان رقية وأم كلثوم ، على مألوف عاداتهما من الملازمة ، حين وفد القوم ، فقالت أم كلثوم وقد عرفت بفطنتها فيم جاءوا :

— ما أرى دورك الا قد حان يا رقية ..

وقبل أن تهم رقية بجواب ، أقبلت « فاطمة » تقول ردًا على ما سمعت من كلام أختها أم كلثوم : « بل جاء دوركما معا ! .. »

ذلك أنها كانت تنعم بملاعبة أبيها حين جاء الضيوف ، فلم تشأ أن تفارقه ، بل انتظرت وفي حسابها أنهم قد ينصرفون على عجل ، فستأنف ما كانت تحظى به من صحبة أبيها ..

وأتيح لها بذلك أن تسمع قول شيخهم أبى طالب :

— انك يا ابن الأخ قد زوجت زينب لأبى العاص بن الربيع ، وانه نعم الصهر ، غير أن بنى عمك يرون لهم عليك مثل ما لابن أخت خديجة ، وليسوا دونه شرفا ونسبا ..

أجاب محمد : « صدقت يا عم .. »

واستطرد الشيخ يقول : « وقد جئناك نخطب ابنتينا رقية وأم كلثوم ،

وما أراك تضمن بهما على ابنى عمك .. »

قال محمد :

— معاذ القراة والرحم ، ولكن هلا أمهلتنى يا عم حتى أتحدث فى

هذا الى ابنتى ؟ ..

رقية ذات الهجرتين

- الخطابان
- ظلال على الأفق
- في بيت أبي لهب
- مع حمالة الحطب
- النجاة
- زواج .. وهجرة
- الهجرة الثانية
- مآثم في يوم النصر !
- الثرى الطهور

الزهراء (١) ، وظلت معه حتى قتل ، فكان مشهدها وهي تطيف به اذ هو مسجى على فراشه ، ينزق القلوب ويفتت الأكباد ..

قالت « أم الهيثم النخعية » : (٢)

أشاب دؤابتى وأذلّ ركبى « أمانة » حين فارقت القرينا
تطيف به لحاجتها اليه فلما استيأست رفعت رهينا
وكان الامام الشهيد قد قال لأمانة حين حضرته الوفاة : « انى لا آمن
أن يخطبك هذه الطاغية - يعنى معاوية - بعد موتى ، فان كان لك فى
الرجال حاجة فقد رضيت لك المغيرة بن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب
عشيرا » ..

فلما انقضت عدتها ، كتب « معاوية » الى مروان بن الحكم يأمره
أن يخطبها عليه ، وبذل لها مائة ألف دينار . فلما ذكرت ذلك للمغيرة
المطلبى الهاشمى ، قال مغضبا :

— أتزوجين ابن آكلة الأكباد ؟ فلو جعلت أمرى الى ؟

أجابت وقد ذكرت وصية زوجها الامام الراحل : « نعم .. »
فقال المغيرة : « قد تزوجتك .. »

وأقامت معه حتى ماتت ، عن غير خلف (٣) وكذلك مات أخوها «على»
مراهقا ، كما نص على ذلك المصعب الزبيرى ، وابن حزم (٤)

وكل ما وصل الينا من أخباره - فيما بين مولده وموته - خبر
« زعموا فيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أردفه خلفه يوم فتح
مكة » (٥)

وبسوتهما انقطع عقب « زينب الكبرى بنت النبى » وبقيت قصتها
المثيرة ملء سمع الزمان ..

(١) المصعب الزبيرى - نسب قريش ٢٢

(٢) تاريخ الطبرى - فى مقتل الامام على

(٣) المصعب الزبيرى : نسب قريش - ٢٢ - جمهرة انساب العرب ١٤

(٤) نسب قريش : ١٢ - وجمهرة الانساب ١٥

(٥) نسب قريش : ٢٢

بأناب ملتاعا شارد النظرات ، الى أن جهزوها للرحلة التي لايتوب منها مسافر ..

وصلى عليها أبوها الرسول في مسجده ، ثم شيعها الى مرقدتها حيث أودعوها ثرى يشرب وسووا عليها الرمال ..
ورجع « أبو العاص » الى داره التي كانت بالأمس جنة الحب ، فأمست بعد رحيل « زينب » منزل الذكريات والأشجان ..

وكاد الحزن يهلكه ، لولا أن وجد في ولده «علي» بعض عزاء ، وفي ابنته « أمامة » صورة حية من الراحلة ، تؤنس وحشته ، وتأسو جراحه ، وتمحو بعض ما ران على البيت من وجوم واكتئاب ..

وكذلك وجد الرسول في « أمامة » ما يخفف حزنه على « زينب » فكان يأنس بها ويهش لها ، وقد يحملها على عاتقه ويصلى بها ، فاذا سجد وضعها حتى يقضى صلاته ثم يعود فيحملها ..
وحدثت السيدة عائشة أن الرسول صلى الله عليه وسلم أهديت اليه هدية فيها قلادة من جزع ، فقال : لأدفعنها الى أحب أهلى الى . فقالت النساء : ذهبت بها ابنة أبى قحافة !.. لكن رسول الله دعا « أمامة » بنت زينب ، فأعلقها فى عنقها ..

ولم يكن جزع فاطمة على موت زينب بالذى يوصف ، فلقد راحت تبكى فيها أمها وشقيقتها وصديقتها وصاحبتها ، وتذكر أيامها السعيدة فى مكة اذ البال خلى" وشمل الأسرة ملتئم . ثم كان لها - بعد سنين - بعض عزاء فى تسمية وليدتها باسم « زينب » احياء لذكرى الفقيدة الغالية ، وترديدا لاسمها الحبيب الذى لا يسل ..

ولحق « أبو العاص بن الربيع » بزيب ، أيام أبى بكر ، فى ذى الحجة من السنة الثانية عشرة للهجرة (١) ..

وأوصى بابنته أمامة الى « الزبير » ابن خاله العوام. بن خويلد بن أسد . وقد زوجها الزبير من على بن أبى طالب بعد وفاة خالتها

وها هي ذى تستقبل مع هلال المحرم « أبا العاص بن الربيع » وقد أتى من تلقاء نفسه مسلما ، ففتفاء بمقدمه الذى اقترن بموعد الذكرى السابعة لهجرة نبي الاسلام ..

وقد توجه « أبو العاص » فور مقدمه ، الى مسجد الرسول ، مارا في طريقه بيت زينب ، فهلل المسلمون وكبروا حين رأوه يبائع النبى صلى الله عليه وسلم ، ثم حفوا به مهنيين ، لكنه كان مشغول البال عنهم بأمر أهمه : أترى الرسول يرد اليه « زينب » بعد الذى كان ؟

وساوره القلق ، ثم ذكر أن الاسلام يَجِبُ ما قبله ، فجمع شجاعته وتقدم الى الرسول بحاجته فى استرجاع زينب ..

وأثنى الرسول عليه خيرا ، ثم قام عليه الصلاة والسلام ، وسار الى بيته ومعه ابن الربيع ..

ودعا اليه ابنته ، فردها على أبى العاص : قيل ردها اليه على النكاح الأول ، وقيل ردها عليه بنكاح جديد (١)

واجتمع الشمل الممزق ، وتلاقى الزوجان الحبيبان بعد فراق طال مداه حتى استنفد الصبر وغلب التجمل وأفى الاحتمال ..



ومضى عام واحد ، ثم كان الفراق الذى لا لقاء بعده فى هذه الدنيا ماتت « زينب » فى مستهل السنة الثامنة من الهجرة ، متأثره بعلتها التى لزمته منذ طرحت جنينها على أديم الصحراء وهى خارجة من مكه وريع « أبو العاص » للمصاب الفادح ، فأكب على الحبيبة يناجيا ويتشبث بها حتى أبكى من حوله ، ولم يجرؤ أحد منهم على ابعاده عن فراش الراقدة ، حتى جاء أبوها محزوننا فاستودعها الله ، ثم قال للنساء : - اغسلنها وترا : ثلاثا أو خمسا ، واجعلن فى الآخرة كافورا ..

هنالك غادر « أبو العاص » مخدع الغالية بخطوات مترنحة ، ووقف

(١) على القول الاول اقتصر الطبرى « ٢٩٣/٢ » ورواه ابن عبد البر فى الاستيعاب ١٧٠٣/٤ عن ابن عباس . ثم اتبعه بالقول الاخر وقال : وهو قول الشعبي وطائفة من أهل السير

أجابوا : « لا .. فجزاك الله خيرا ، فقد وجدناك وفيا كريما ! .. »
 فأدار فيهم بصره ، ثم قال على مهل وكأنه يزن كل كلمة مما يقول :
 — فأنا أشهد أن لا اله الا الله وأن محمدا عبده ورسوله . والله ما
 منعى من الاسلام الا تخوف أن تظنوا أنى انما أردت أن آكل أموالكم ،
 فلما أداها الله اليكم وفرغت منها ، أسلمت (١) ..
 وخلق القوم واجبين كأنما انقضت عليهم صاعقة ، وانطلق مستقبلا
 يثرب ..

هلاً هلال المحرم من سنة سبع ، وقد عاد الرسول وصحبه من
 الحديبية — على بعد مرحلة من مكة — بعد أن عقدوا الصلح التاريخي
 الذى بدا كأنه المحاولة الأخيرة لمشركي مكة ، قبل المعركة الفاصلة
 وتناقل الناس هنا وهناك ، حديث الرسول يوم حالت قريش بينه
 وبين ما أراد من دخول مكة ليحج الى البيت العتيق مسالما لا يريد قتالا :
 « يا ويح قريش !.. لقد أكلتهم الحرب . ماذا عليهم لو خلوا بيني
 وبين سائر العرب ، فان هم أصابوني كان ذلك الذى أرادوا ، وان
 أظهرنى الله عليهم دخلوا فى الاسلام وافرين ، وان لم يفعلوا قاتلوا وبهم
 قوة ، فما تظن قريش ؟.. فوالله لا أزال أجاهد على الذى بعثنى الله
 به حتى يظهره الله أو تنفرد هذه السالفة ! »
 وأشار الى صفحة عنقه ..

وصدق رسول الله : يا ويح قريش ، لقد أكلتهم الحرب وما يزالون
 على عنادهم وكفرهم ، وانهم لعلى يقين أنها معركة خاسرة ، لكنهم مع
 يقينهم ذاك ، يأبون الا أن يلقوا بقلذات أكبادهم وقودا لنار الحرب ..
 وفى قريش أهل وعشيرة ، وفى مكة للمسلمين المهاجرين وطن ورحم
 وقربى ، وان يثرب لتفتح قلبها قبل ذراعها لكل من ينفذ اليها من هؤلاء
 مسلما ، وتوطيء له فى رحابها منزلا وسكنا ..

(١) السيرة : ٣١٢/٢ — وتاريخ الطبرى : ٢٩٣/١ والاستيعاب : ١٧٠٢/٤

أموال المشركين ، فأبيت قائلاً : بئس ما أبدأ به اسلامي ، أن أخون أمائتي (١) ..

فحدقت زينب فيه لعلها تستبين ما وراء كلامه ، لكنه تحاشى نظرتها وراح يتشاغل بسلامة طفليه النائمين في سلام ..
وفي الصبح ، بعث الرسول من يصحب « أبا العاص » الى المسجد ؛ حيث كان صلى الله عليه وسلم يجلس في جمع من صحابته ، بينهم رجال السرية الذين أصابوا مال أبي العاص ..
وقال لهم الرسول :

— ان هذا الرجل منا حيث قد علمتم ، وقد أصبتم له مالا ، فان تحسنوا وتردوا عليه الذي له فإننا نحب ذلك ، وان أبيتتم فهو فيء الله الذي أفاء عليكم فأنتم أحق به ..
أجابوا بصوت واحد :

— يا رسول الله ، بل نرده عليه ..

وأسرعوا يفعلون ، حتى ان أحدهم ليأتي بالدلو ، وبالاناء الصغير ، وبالسقاء البالي ، الى أن ردوا عليه ماله بأسره ، لم يفقد منه شيئاً (٢)
وحان موعد رحيله ، فقال الرسول وهو يودعه :

— حدثني فصدقني ، ووعدني فوفى لي ..

والتفت « أبو العاص » الى دار زينب مودعاً من بعيد ، ثم مضى وقد اعتزم أمراً ! ..

مضى حتى بلغ مكة ، وفرحت قريش اذ رأته يعود بتجارته رابحة ، وبأموالها مشرة لم تسس ، وأقبلت عليه تستعجله الحديث عما كان من أمره مع الأعداء في يثرب ، لكنه استسهل القوم حتى أدى الى كل ذي مالٍ منهم ماله ، ثم وقف بحيث يُسمع وصاح بأعلى صوته :

— يا معشر قريش ، هل بقي لأحد منكم عندي مال لم يأخذه ؟ ..

(١) هشام : السيرة : ٢١٤/٢

(٢) السيرة : ٢١٢/٢ - وتاريخ الطبري : ٢٩٣/٢

وأضاف بعد صمت قصير :

« انه يجبر على المسلمين أذناهم ، وقد أجرنا من أجارت » (١) ..

ثم انصرف عليه الصلاة والسلام فدخل على ابنته وعندها ابن خالتها ،
فما كادت تراه حتى هتفت ضارعة :

— يا رسول الله ، ان أبا العاص ان قرَّب فابن عم ، وان بعد
فأبو ولد ، وانى قد أجرته ..

فرنا اليهما الأب الكريم فى عطف وتأثر ، ثم قال يحدث ابنته :

— أى بنية ، أكرمى مشواه ، ولا يخلصنَّ اليك ، فانك لا تحلين

له (٢) ..

وتركهما وما يدريان علام استقر رأيه فيهما ، فأتبعاه بصريهما حتى
اذا بعد ، التفت كل منهما الى صاحبه ، وقالت زينب لائمة :

— هان عليك فراقنا يا أبا العاص ..

فأجابها وهو يمسك قلبه :

— معاذ الحب يا زينب ، أما والله ما طاب لى من بعدك عيش ..
فسألته :

— ففيم اذن هذا العذاب ؟ .. وحتام ؟ ..

— أجا ب :

— حتى يقضى الله فينا أمره ..

وأخفى وجهه بين راحتيه ، كيلا تلمح زينب دمعة ترنحت فى مقلتيه ..
همست فى ضعف :

— يرحمنا الله يا ابن الخالة ..

فرفع وجهه اليها وقال متمهلا :

— لقد عرضوا علىَّ بالأمس أن أسلم وأخذ ما معى من أموال فانها

(١) تاريخ الطبرى : ٢٩٢/٢ - السيرة : ٣١٣/٢ والاستيعاب : ١٧٠٢/٤ - وطبقات ابن
سعد : ٦٣/١٢

(٢) السيرة : ٣١٣/٢ - وتاريخ الطبرى : ٢٩٣/١٠ والاستيعاب : ١٧٠٢/٤

السرى ، وأرهقته المطاردة ، وأضناه الفراق !..

فسرت رعدة في جسدها ، وقامت اليه تريد أن تحييه ، حتى اذا نم
يقب بينها وبينه الا خطوة واحدة ، وقفت فجأة كمن تذكرت شيئا فاتها ،
ورنت اليه بنظرة متسائلة دون أن يقوى لسانها على كلام ..

وهز ابن الربيع رأسه أسفا وهو يجيب عن سؤالها الصامت :

— كلا يا زينب ، لم آت يثرب مسلما ، وانما خرجت تاجرا الى
الشام في أموال لى وأخرى لرجال من قريش ، فلما فرغت من تجارتي
وأقبلت قافلا ، لقيتني سرية لأبيك فيها زيد بن حارثة ومعه مائة
وسبعون رجلا ، فأصابوا كل ما معى وأعجزتهم هاربا ، حتى اذا جن
الظلام جئتك متخفيا مستنجيرا !..

فعدت الى مكانها الأول ، وهى تقول بصوت يقطر أسى ويأسا :

— مرحبا بابن الخالة ، مرحبا أبا على وأمامة ..

ولفهما صمت مشحون بالشجن ، وغرق الكون من حولهما فى سكون
خاشع ، وبدا كأن الدنيا قد أمسكت أنفاسها لحظة ، ثم تناهى الى
سمعها صوت أبيها النبى يكبر فى المسجد ، فجمعت زينب نفسها وقامت
انى الباب ، ثم صاحت بملء صوتها :

« أيها الناس ، انى أجرت أبا العاص بن الربيع » (١) ..

وحمل نسيب الفجر صوتها الى من فى المسجد ، فلما سلم الرسول

صلى الله عليه وسلم أقبل على من معه فقال :

« أيها الناس ، هل سمعتم ما سمعت ؟ .. »

أجابوا :

« نعم يا رسول الله » ..

قال :

« أما والذى نفس محمد بيده ، ما علمت بشيء من ذلك حتى سمعت

ما سمعتم » ..

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد : ٦٣/٢
والاصابة : ٩١/٨ - والسيرة : ٢١٢/٢

وألوف ممن كانوا أشد الناس عداوة له وحربا عليه ، وبدا أن النصر
الأكبر آت دون ريب ، فهل يسلم « أبو العاص » ؟ ..

ودنا الفجر وماتزال في يقظتها الحاملة ، فلم تكد تشعر ببابها وهو
يفتح في تردد وحذر ، ثم يبدو منه فجأة « أبو العاص بن الربيع » وقد
شحب وجهه وبان عليه القلق ..

وارتابت « زينب » في يقظتها وظنت أن ما ترى ليس الا طيف من
تحب ، يسرى اليها في هدأة الليل ، ليذكرها بما لم تنس من ماض لهما
سعيد ، ولى وراح ..

وعجبت للطيف يبدو هكذا شاخصا كما لم يبد لها من قبل على كثرة
ما ألمَّ بها ، وغمغمت في شجو ورقة :
- أبو العاص ! ..

فراعها أن يجيب بصوته المألوف :

- أجل يا أعز من لى .. أبو العاص ، ألقى به المقادير قريبا من
يثر ، فسعى اليك والمطاردون في أثره ..

ولم تصدق « زينب » أذنيها ، بل ظلت ترمقه بنظرة حاملة وهي دا
تزال أشبه بمنومة ، واستمرت أن تبقى هكذا ، سعيدة بلقيا الطيف
على غير موعد ، الى أن لمحت نور الفجر الوليد يتسلل من كوى الدار ،
وسعت بلال بن رباح يؤذن لصلاة الصبح بصوته الرخيم ، فتجيبه أصوات
المؤمنين الذين هبوا من مضاجعهم عندما سمعوا دعاء السناء :
« الله أكبر » ..

وميزت خطوات قريية ساعية الى المسجد فعرفت أنه أبوها يخرج
ليصلى بالناس ..

وقالت كمن تحدث نفسها :

« ربا ، لكأنى في يقظة ، ولكأنى بك يا أبا على الى جانبى ! .. »

فرد عليها صوت من حسبه طيفا :

- أجل يا زينب ، وهذا ضيفك ينتظر أن تحببه بعد أن أجهده

ظفروا بهما ، لكنه صلى الله عليه وسلم لم يكد يخلو الى نفسه ويتدبر ما كان من أمره باحراق الرجلين ، حتى رأى أنه جاوز فيهما ما يحق لمثله من حدود العقاب ، فلما تنفس الصبح بعث الى أصحابه مسترجعا ما سبق من أمره ، ومستبدلا بالاحراق عقوبة القتل ..

حدث أبو هريرة قال :

« بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم سرية أنا فيها ، فقال لنا : ان ظفرتهم بهمار بن الأسود أو الرجل الآخر الذى سبق معه الى زينب - سماه ابن اسحاق فقال : هو نافع بن عبد قيس - فحرقوهما بالنار ..

« فلما كان الغد بعث الينا فقال : انى كنت أمرتكم بتحريق هذين الرجلين ان أخذتموهما ، ثم رأيت أنه لا ينبغي لأحد أن يعذب بالنار الا الله ، فان ظفرتهم بهما فاقتلوهما » (١) ..



ومضت سنوات ست ، حافلة بجليل الأحداث ، و « زينب » فى حمى أيها بالمدينة تعيش على أمل لم يغلبها عليه اليأس قط ، وهو أن يشرح الله صدر « أبى العاص » للاسلام ..

وليس بمستغرب ألا نسمع عنهما خبرا فى هاتيك السنين. ، وألا نلمح للسيدة زينب أثرا فيما كان بين نساء أبيها صلى الله عليه وسلم من شواغل الغيرة والتنافس ، وألا نعرف لأبى العاص بعد موقعة بدر ، مشاركة فى تلك الحرب الطاحنة التى لم تهدأ لحظة ، بين المسلمين فى المدينة والمشركين فى مكة ..

حتى كانت ليلة من ليالى جمادى الأولى من السنة السادسة للهجرة ، وقد باتت « زينب » مؤرقة تسامر ذكريات أملت بها فذادت النوم عن عينها .. وطاب لها أن تحلم فى يقظتها بالغد الذى طال انتظارها اياه ، فالمسلمون يزدادون كل يوم قوة وعددا ، وقد دخل فى دين محمد ألوف

ورجع « كنانة » الى أخيه بعد أن اطمأن عليها وهو يردد بلاء صوته .
 عجبت لهبَّارٍ وأوباشٍ قومه
 يريدون اخفارى بنت محمد ! ..
 ولست أبالى ، ما حيت ، عديدهم
 وما استجمعت قبضا يدي بالمهند ! (١)

استقبلت « يثرب » بنت الرسول باحتفال مهيب ، شابت فرحة اللقاء
 فيه ، سورة الغضب لما أصاب العقيلة الكريمة أولَ خروجها من مكة ،
 وحملت الركبان الى قريش قول شاعر الأنصار منذرا متوعدا :
 أتانى الذى لا يقدر الناس قدره
 لزينب فيهم من عقوق ومأثم
 فأقسمت لا تنفك منا كتاب
 سراة خميس فى لهام مسوِّم
 نزوع قريش الكفر حتى نعلتها
 بخاطمة فوق الأنوف بميسم
 نزلهم أكناف نجد ونخله
 وان يثهموا بالخيل والرجل نثهم
 يد الدهر حتى لا يعوج سربنا
 ونلحقهم آثاراً عاد وجرهم
 فأبلغ أبا سفيان إما لقيته
 لئن أنت لم تخلص سجودا وتسلم
 فأبشر بخزى فى الحياة معجل
 وسربال قار خالدا فى جهنم ! .. (٢)

كذلك تحدثت الركبان بغضب الأب الرسول لابنته ، حتى لقد أمر
 أصحابه أن يحرقوا بالنار الرجلين الأثيمين - هبارا وزميله - اذا هم

« كنانة » دونها ونثر كنانته وهو يزأر :

— والله لا يدنو منى رجل الا وضعت فيه سهما ..

فتراجع المطاردون الجبناء ووقف « أبو سفيان » بعيدا يقول لكنانة :

— كف عنا نبلك حتى نكلمك ..

فكفك كنانة ..

وتقدم أبو سفيان حتى دنا منه وقال :

— انك لم تصب يا ابن الربيع : خرجت بالمرأة على رءوس الناس

علائية وقد عرفت مصيبتنا ونكبتنا وما دخل علينا من محمد ، فيظن

الناس أن ذلك عن ذل أصابنا ، وان ذلك منا ضعف ووهن . ولعسرى

ما لنا بجسها عن أبيها من حاجة ، ولكن ارجع بالمرأة حتى اذا هدأت

الأصوات وتحدث الناس أن قد رددناها ، فسلكها سرا فألحقها بأبيها (١)

فكبر على « كنانة » أن يردها ليعود فيتسلل بها سرا بعد أن يذاع في

الناس أن قد ردتها قريش ، لولا أن سمع توجعها فالتفت اليها فراعاه أن

رآها تنزف دما ، وقد طرحت جينيتها على أديم الصحراء ! ..

وعاد بها الى مكة ، حيث بقى « أبو العاص » الى جانبها أياما

يرعاها ولا يفارقها لحظة من ليل أو نهار ، فلما تسالكت بعض قواها ،

خرج بها « كنانة » حتى أسلمها الى « زيد بن حارثة » وما تزال

تنزف دما ..

ولم يتبعها في هذه المرة طالب ، بل أغمض الذين طاردوها بالأمس

أعينهم ، وقد ركبهم الخزي والعار من قول « هند بنت عتبة » تعيرهم

وتسخر بهم :

— أمعركة مع أنثى عزلاء؟ .. فهلا كانت هذه الشجاعة يوم بدر؟

أفى السلم أعيار ، جفاءً وغلظةً

وفي الحرب أشباه النساء العوارك؟ (٢)

(١) السيرة ، ٢٠٩/٢ - وتاريخ الطبرى : ٢٩٢/٢

(٢) السيرة : ٢١٠/٢

فان عندى حاجتك ، فلا تضطنى منى فانه لا يدخل بين النساء ما يدخل بين الرجال (١) ..

ولمست الكلمات الرقيقة الناعمة قلب زينب الطيبة الطاهرة ، فهت بأن تفضى الى هند يرجيلها القريب ، لولا أن شعرت بما يشبه الخوف ، فكتمت عن بنت عتبة خبر سفرها ..
ومضت كلتاها لشأنها ..

أما زينب فقالت : « والله ما أراها قالت ذلك الا لتفعل ، ولكنى خفتها فأنكرت أن أكون أريد اللحوق بيثرب » (٢) ..
وأما هند ، فراحت تؤجج في قريش نار الثأر ، وتغذيها بوقود من الحقد والبغضاء ..

وسرعان ما حل الموعد المضروب ..
وودعت « زينب » أبا العاص وداع مئجة غير قالية ولا هاجرة ، وخرجت وفي أحشائها بضعة منه : جنين لم يستكمل شهره الرابع ..
وحاول « أبو العاص » أن يتجلد فقال :
— مهما يحدث يا زينب ، فسأبقى على حبك ما حييت ، وسيبقى طيفك أبدا ملء هذه الدار التي شهدت أيامنا الحلوة ..
ثم خانه تجلده ، فأرخی بصره وترك أخاه « كنانة بن الربيع » يمضى بزینب الى حيث ينتظرها زيد وصاحبه ..
وانطلق « كنانة » يتقود بعيرها نهارا وقد أخذ قوسه وكنانته متأهبا ، فحال قريشا أن يخرج بها هكذا على مرأى منهم ومسرع ، وخرج رجال منهم في أثر المهاجرة حتى أدركوها بذى طوى ، فكان أسبقهم إليها « هبار بن الأسود الأسدي » الذي روعها بالرمح وقد جئن حزنه على اخوة له ثلاثة ، صرعوا جميعا في بدر بأيدي أصحاب محمد ..
ونخس البعير ، فألقى براكبته على صخرة هناك ، واذ ذاك برك

واتتشت بالحلم الهنيء لحظة ، ثم آبت منه حين وقعت عيناها على
« أبى العاصى » غارقا فى شجنه ، فسألته مترفة :

— كم بقى لنا من وقت نقضيه معا ؟

أجاب بصوت واهن :

— ليس بالكثير .. ان هى الا أيام تتجهزين فيها للسفر ، ثم يكون

الفراق المحتوم ..

وبقى سؤال لزيب :

— وترافقنى الى يثرب ؟..

فأمسك دموعا تحيرت فى مقلتيه وأجاب :

— كلا يا ابنة الخالة ، بل يأتى أخوك زيد بن حارثة ورفيق له من

أنصار أبيك حتى يبلغا « بطن ياجج » — على بعد ثمانية أميال من

مكة — فينتظرا هناك حتى تسمى بهما فيصحباك الى أبيك يثرب (١)

وخرجت « زينب » فى الغداة تتجهز للسفر ، فلسحتها « هند بنت

عتبة » التى روعها مصابها فى بدر ، وأخرجها من بيت زوجها أبى

سفيان الى محافل مكة وأنديتها تدعو للثأر من المسلمين الذين قتلوا

أباها عتبة بن ربيعة ، وعمها شيبة ، وأخاها الوليد بن عتبة ، وابن عمها

عبدة بن سعيد بن العاص بن أمية ، وابن زوجها حنظلة بن أبى سفيان

ابن حرب ..

ولم يخفَ على هند — فى ذكائها اللماح — أن زينب انما تتجهز

لتلحق بأبيها ، لكنها أرادت أن تستوثق من الأمر ، فدنت منها وقالت

متلطفة :

— يا بنت محمد ، ألم يبلغنى أنك تريدن اللحوق بأبيك ؟..

فتحيرت « زينب » لا تدرى بماذا تجيب . وأضافت هند مجاملة :

— أى ابنة عمى ، ان كانت لك حاجة بمتاع مما يرفق بك فى سفرك

(١) السيرة : ٣٠٨/٢ — وتاريخ الطبرى : ٢٩١/٢

فسألت بقلب واجف :

— هكذا ولما نكد نلتقى ! .

قال وما زال يتخاشى النظر إليها :

— لست راحلا يا زينب ، ولكنك الراحلة هذه المرة !..

وهالها ما تسع ..

كانت تعرف أن قريشا أرادت أصهار الرسول على أن يردوا بتاته
إليه ليشغلوه بهن ، وقد استجاب لهم زوجها أختيها « رقية وأم كلثوم »
فردّاهما إلى أبيهما ، أما أبو العاصي فتركهم يقولون :

— فارق صاحبك ونحن نزوجك أى امرأة من قريش ..

ثم صدمهم بجوابه :

— لا والله انى لا أفارق صاحبتى ، وما أحب أن لى بامرأتى امرأة

من قريش (١)

فهل تراهم عاودوه اليوم فى أمر فراقها فاستجاب لهم بعد الذى كان
فى « بدر » ؟

وشعرت ببرودة تجعد أطرافها وتسرى إلى قلبها ، فاستندت إلى
جدار مخدعها مرتعدة ، تنتظر فى استسلام يأس ، ماذا بعد ..

وأدرك « أبو العاص » ما خطر ببالها ، فبادرها قائلا فى حنو وكأئسا
ذاب قلبه فى صوته :

— رحماك يا حبيبة ، ان أباك هو الذى طلب أن أردك إليه ، لأن
الاسلام فرق بينى وبينك ، وقد وعدت محمدا أن أدعك تسيرين إليه ،
وما كنت لأنكث عهدى ..

وحملها صوته إلى بعيد ..

وتثلت نفسها فى يثرب ، تقبل أباهما وتعانق أخواتها ، وتلقى
النازحين من الأهل والعشيرة .

(١) السيرة : ٣٠٧/٢ وانظر معه ترجمة أبى العاصى وسمى قريش فى طلاقه فى « الإصابة
والاستيعاب »

وأخرج من ثيابه صُرَّةَ قدمها الى الرسول ، فاذا فيها « قلادة » لم يكده « محمد » يراها حتى رق لها رقعة شديدة ، وخفق قلبه للذكرى ..
لقد كانت قلادة « خديجة » أهدتها الى ابنتها زينب يوم عرسها حين زفتها الى أبي العاصى ، ابن أختها « هالة » ..

وأطرق أصحاب الرسول خشعا وقد أخذوا بجلال الموقف وروعته :
قلادة الحبيبة ، تبعثها بنت النبی الى أبيها ، فى فداء زوج حبيب ! ..
وتكلم الأب النبى بعد فترة صمت ، فقال فى حنان :

— إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها وتردوا عليها مالها ، فافعلوا (١)
فهتفوا جميعا بلاء قلوبهم :
— نعم يا رسول الله ..

وأدنى محمد — صلى الله عليه وسلم — إليه صهره الذى غلبه التأثر
لهيئة الموقف ، فأسرَّ إليه حديثا لم يعلم ما هو ، فحنى ابن هالة رأسه
موافقا ، ثم حيا ومضى ، فلما أبعد ، التفت الرسول الى أصحابه من
حواله ، فأثنى على أبي العاص خيرا وقال :
— والله ما ذمناه صهرا !



دخل « أبو العاص » بيته فما رأته زوجته « زينب » حتى وثب قلبها
إليه فرحة بنجاته ، ثم لم تسعفها قواها على النهوض لفرط ما هزها
الانفعال ، فرفعت وجهها الجميل الى السماء تحمد الله أن رده سالما
إليها والى طفليه ، وتضرع اليه تعالى أن يشرح قلبه للإسلام ..

وشغلتها فرحة اللقاء ، فلم تلمح ما يغشى وجه زوجها من وجوم
واكتئاب ، الى أن قال وهو مغضض العينين كأنما يشفق أن يرى وقع
كلماته عليها :

— جئتك مودعا يا زينب ..

(١) السيرة : ٢١٧/٢ - وتاريخ الطبرى ٢٩١/٢ والاستيعاب : ١٧٠١/٤

لكن العمة عجلت اليها بالبشرى : لم يقتل أبو العاص ، بل وقع في
أسر صهره الكريم ..
هنالك تعلقت « زينب » بعنق عمتها ، تقبلها بدموع الفرح ، ثم
سكنت على صدرها مجعدة تستريح ..

وأنتها بقية من الأنبياء بعد حين ..
جاءت بها فلول الجيش المهزوم الذى ترك هامات قريش ورءوسها
مجندلة صرعى حول ماء بدر ..
وأذيعت أسماء الأسرى ، فبعث ذووهم فى الفداء ..
وكان « أبو العاصى » ذا مال ، وقد أراد أهله أن يغلوا فى فدائه ،
لكن « زينب » آثرت أن تفتديه بما هو أعلى من المال ..

سيق أسرى بدر الى يثرب فى أعقاب الفئة الظافرة ، فتأملهم الرسول
صلى الله عليه وسلم ملياً ، ثم نحى عنهم صهره « ابن الربيع » وفرق
الباقيين بين أصحابه وقال :
« استوصوا بالأسارى خيراً » ..
وبقى أبو العاص عند النبى ، حتى جاءت رسل قريش فى فداء
أسراها ..
وغالوا فى الفداء ، حتى ان المرأة لتسأل عن أعلى ما فدى به قرشى ،
فيقال لها : أربعة آلاف درهم . فتبعث بثلها فى فداء ابنها (١) ..
وتقدم « عمرو بن الربيع » أخو أبى العاصى ، فقال للنبى :
— بعثتنى « زينب بنت محمد » بهذا ، فى فداء زوجها ، أخى ، أبى
العاصى بن الربيع .. (٢)

(١) السيرة : ٢١٦/٢ ، والطبرى : حوادث السنة الثانية للهجرة . وانظر الطبقات الأخرى
لابن سعد : ١١/٢ — ولاحظ أن ابن الربيع ، يذكر فى بعض المصادر باسم « أبى العاصى »
وفى بعض آخر باسم « أبى العاص »
(٢) مسند احمد : ٢٧٦/٦ والسيرة ٢١٧/٢

وفي الآخرين أبوها : محمد رسول الله !

وباتت ليلتها وليس فين تظله سماء مكة أشقى منها ولا أفدح هنا
فلما أصبحت ، وقتت ترقب قريشا وهي تسير في ألف مقاتل كاملي
العدة شاكي السلاح ..

كم ترى يكون عدد الجيش مع أيها في يثرب ؟ مائة ؟ مائتان ؟
ثلاثائة ؟ يا زينب ما تتمخض عنه المعركة الرهيبه غير المتكافئة ..

واثنت الى مهد صغيريها ، على وأمامة ، فرنت اليها بعين دامعة
وقلب متصدع ، ثم هست بصوت حزين أبح :

— لن تطلع علينا الشمس في مثل يومنا هذا ، إلا وأتما يتيمان ،
أو أنا ...

ثم أرخت يديها ، وجند الدمع في مقلتيها ، واستسلمت لقضاء الله
وقدره ..

ولم تحاول أن تتبع أنباء القتال الدائر أو تتلصص ما يصل الى مكة
من أخباره ، فأيا ما كانت النتيجة ، فليس أمام « زينب بنت محمد »
الا اليتيم أو الترميل !

واذ هي منطوية على نفسها تجتر مخاوفها ، جاءتها عمة أبيها « عاتكة
بنت عبد المطلب » فابتدرتها قائلة :

— أو ما بلغكِ النبأ العجيب ؟

فنظرت اليها زينب بادية اليأس ، ولم تجب ..
واستطردت العمة :

— انتصر محمد في قلة من صحابته ، على قريش في كثرتها وعدتها ..
فانتفضت زينب هاتفة :

— انتصر أبي ! ؟ .. وا فرحتاه ! ..

ثم تذكرت بغتة زوجها أبا العاص ، فضمت طفليها الى صدرها
واستعبرت باكية ..

الجيران الأقربون !..

وذكرت سعادتها المدبرة ، فشعرت بقلبها يكاد يتصدع : إن زوجها العزيز لا يزال على دين آباءه ، ولو كان قد أسلم لما تمزق الشغل وانفردت هنا بمكة ، بعيدا عن أبيها وأخواتها ..

وتتابعت النذر معلنة عن دنو عاصفة عاتية ، فمحمدا صلى الله عليه وسلم قد وجد في « يثرب » نصرا ومقاما ، وأصحابه هناك يتربصون بقريش ليقطعوا عليها طريقها الحيوى بين مكة والشام ، وقد نجحت جماعة منهم في الظفر بعيرٍ تحمل تجارة لقريش ، فيها عمرو بن الحضرمي ، فعاد المسلمون الى يثرب بالبعير وبعض الأسرى ، وتركوا ابن الحضرمي صريعا بسهم على أديم الصحراء (١) ..

وظل أهل مكة بين مصدق ومكذب ومرتاب في أمر هذه القلة المغتربة مع « محمد » بغير عدة ولا مال ، حتى روعوا بعودة « ضمضم بن عمرو الغفاري » - وكان مسافرا في تجارة بالشام مع أبي سفيان - فما بلغ مكة حتى وقف على بعيره وحوّل رحله وشق قميصه وصاح مستنفرا :
- يا معشر قريش .. اللطيمة اللطيمة ! .. أموالكم مع أبي سفيان قد عرض لها محمد في أصحابه لا أرى لكم أن تدركوها .. الغوث الغوث ! (٢) ..

فجاءته الأصوات من كل جانب :

- أياظن محمد وأصحابه أن تكون عير أبي سفيان كعير ابن الحضرمي ؟ كلا والله ليعلمن غير ذلك !

وصك الصوت سجع « زينب » فأدركت أنها الحرب ..

الحرب بين قريش والمسلمين ..

وفي الأولين زوجها ووالد طفليها على وأمامة : أبو العاص بن الربيع .

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ٥/٢ (٢) السيرة لابن هشام : ٢٦٠/٢

وتاريخ الطبري : ٢٦٣/٢ - والسيرة : ٢٥٢/٢

كانت عليه تأججا وسعيرا ..

وبدأ أتباع محمد صلى الله عليه وسلم ، يهاجرون تباعا فرارا بدينهم من الفتنة والأذى ، حتى لم يبق مع الرسول بمكة الا من حبس أو فتن ، غيرَ على بن أبي طالب ، وأبى بكر الصديق رضى الله عنهما .. وبلغت هذه المرحلة من المعركة ذروتها ، وسرى الهمس فى مكة أن المشركين فقد ائتمروا بمحمد ليقتلوه ويستريحوا منه ..

وأصبحت « زينب » ذات يوم ، ومكة من أدناها الى أقصاها ، تتحدث عن مطاردة قريش لمحمد الذى خرج من « مكة » وليس معه سوى صاحبه أبى بكر الصديق .. وأوجست فى قلبها خيفة « زينب » وهى تصغى الى أنباء المطاردة العنيفة العنيدة ، حتى اذا بلغها وصول أبيها صلى الله عليه وسلم الى مأمته فى دار الهجرة ، اطمأن بالها ..

وجاء رسول من يثرب فصحب أختها « فاطمة وأم كلثوم » الى هناك ، وكانت « رقية » قد هاجرت كذلك من قبل ، وبقيت زينب فى دار ابن الربيع بمكة ، اذ لم يكن الإسلام قد فرق بينهما بعد .. وتلفتت حولها فإذا مكة قد خلت من كل الأهل ، وإذا دار أبيها مغلقة خلاء ، اللهم من أطياف الأحباب الذين هجروها كارهين .. وطالما وقفت زينب بالديار المقفرة الموحشة ، تسألها : أين من كانوا بالأمس يسلونها بهجة وأنسا ؟ أين محمد وخديجة ؟ وأين رقية وأم كلثوم وفاطمة ؟ وأين القاسم والطيب ؟ ..

رحلوا جميعا ، فأما خديجة وولداها فإلى غير مأب ، وأما محمد وبناته فإلى هجرة واغتراب ..

والنسست قبر أمها فأكبت عليه تروى الثرى بدمعها ، حتى اذا أراحها البكاء هونا أغرقت فى تأمل صامت حزين :
واعجبا ! الأحياء من أهلها وأحبابها جد نائين ، والموتى منهم هم

فيغفوا مجهدين ، غفوات خاطفة قلقة ممزقة

وقال لها ذات ليلة وقد راعه ما تكابد :

— والله ما أبوك عندي بمتّهم ، وليس أحب اليّ من أن أسلك معك
ياحبيبة في شعب واحد ، لكنني أكره لك أن يقال إن زوجك خذل قومه
وكفر بأبائه إرضاء لامراته ، فهلا قدرت وعذرت ! ؟

فتتدت عيناها بالدموع ولم تجب ، وإن خيلها الأمل في أن تنجلي
الغمة عن قريب ، كما منتها أمها خديجة ..

على أن الغمة لم تنجل سراعاً ، بل طال عليها الأمد وجاوزت المدى ،
وهذه قريش قد لجت في عداوتها للرسول ، وأمعتن فيمن اتبعوه أذى
واضطهاداً حتى أثختهم بالجراح وأخرجتهم من ديارهم وأموالهم . ثم
لم يكفها كل ذلك الذي فعلت بالمسلمين ، بل مدت يد الأذى إلى بني
هاشم وبني عبد المطلب ، لأنهم أبوا أن يسلموا رجلهم إلى أعدائه
المشركين ، فكانت المقاطعة الرهيبة التي سُجلت في صحيفة علقت
بالكعبة ، وخرجت بالهاشميين إلى شعب أبي طالب بظاهر مكة ، حيث
أقاموا هنالك في حصار طويل منهك (١)

ولم تكن « زينب » فيمن خرج إلى الشعب ، لكن أنباء من فيه
كانت تأتيها في دار زوجها ، فتروعها بالذي يكابده أهلها هنالك ..
ولم تنجل محنة الحصار ، الا لتسلم إلى ليل طويل ، لا يبدو له
آخر ! ..

ماتت « خديجة » ..

ومات « أبو طالب » ..

فأحيا فقدهما ما مات من آمال المشركين في النصر على النبي ، وعادت
معركة الاضطهاد التي فترت هونا عقب فك الحصار ، إلى أشد مما

(١) تاريخ الطبرى : ٢٢٥/٢ والسيرة لابن هشام : ٣٧٥/١

أجابت :

— ما كنت لأكذب أبى ، وإنه والله لكما عرفت : الصادق الأمين ..

ثم أضافت :

— وكذلك أسلمت أُمى وأخوتى ، وعلى ابن العم أبى طالب ، وأبو بكر ، وأسلم من قومك ابن عمك عثمان بن عفان بن أبى العاصى بن أمية ابن عبد شمس ، وابن خالك الزبير بن العوام بن خويلد ..

فلم يبد عليه أنه أصغى الى ما تقول ، بل استطرد متسائلا وفى صوته رنة أسى وملام :

— فهل فكرت يا زينب حين تبعت دين أبيك ، فيما يحدث لو أنى يقيت عن دين آبائى ؟

فهزت رأسها وهى تجيب :

— كلا يا ابن الخالة ، بل رجوت أن تسبق إلى الاسلام كما سيق اليه من قومك عثمان ابن عمك والزبير ابن خالك ..

فأثنى موليا ، وخرج الى دار الندوة ، وبقيت هى تنتظر على جبر .. وآب اليها فى غسق الدجى واجما مطرقا ، فلم تحاول أن تسأله عما به ، بل تركته حتى جلس وقال من تلقاء نفسه بصوت حزين :

— لقيتُ أباك اليوم فى الكعبة يا زينب ، ودعانى الى الاسلام (١)

ثم لم يزد ..

وكان فى وجوم ملامحه ، وترنج صوته ، ما يعنى زينب عن سؤاله :

بم أجاب الدعوة ؟

ووقفا فى أعماق الليل يطويهما الحزن والخوف والأسى ، فلما أرهقتهما وطأة الموقف تدانيا حتى همسا بعناق ، ثم ما لبثا أن تراجعا فجأة ، وكان حاجزا غير مرئى يقف بينهما فيحول دون ما يبغيان من شعور بالتدانى ، والتناس كل منهما فى صاحبه ملاذا وسكنا .. ولم يناما ليلتهما ، ولا ما بعدها من ليل ، اللهم الا أن يغلبهما الكلال

وجها وقالت لأختها :

— هو والله ما قالت أُمى لأبى :

« الله يرعانا يا أبا القاسم ، أبشريا ابن عم واثبت ، والله لا يخزيك ،
الله أبدا . إنك لتصل الرحم ، وتصدق الحديث ، وتؤدى الأمانة ،
وتحمل الكل » ، وتقري الضيف ، وتعين على نوائب الحق » (١)

وابتسمت زينب ، وكذلك فعلت فاطمة ، وإن أحست كلاهما أن
لهذا الأمر ما بعده !

عاد « ابن الربيع » من رحلته ، وملى سمعه شائعات تناقلها
الركبان ، عن ظهور « محمد بن عبد الله » بدين جديد ..

وأسرّت إليه زوجته « زينب » بالنبا اليقين ووجهها يفيض بشرا
وفخرا ، فما راعها الا أن أمسك صامتا لا يعقب !

وسألته :

— ما بك يا ابن الخالة ؟

أجاب وهو يضمها الى صدره :

— بى يا حبيبة أنى خائف ..

ثم أرسلها من بين ذراعيه وهو يردد كمن يحدث نفسه :

— لو تبعته لقال القول : فارق دين آباءه إرضاء لزوجه وحميه ، ولو
خالفته ..

فلم تدعه زينب يتم كلمته ، بل قاطعته فى لهفة وضراعة :

— لكنك لن تدع كلام القوم يثنيك عن الحق ..

ورنت إليه طويلا قبل أن تستطرد قائلة :

— وأنا بعد قد أسلمت يا ابن الخالة ..

قال وقد أسقط فى يده :

— أو قد فعلتها يا زينب ؟

ثم من الله عليهما (١) بوليدهما « على بن أبي العاص » ومن بعده
جاءت أخته « أمامة » ففاض عالمها بالغبطة والفرح ..



وذات صباح ، سعت « زينب » مبكرة الى بيت أبيها وأبو العاص
على سفر ، فالتقت لدى الباب بأُمها عائدة من زيارة عجلي لابن عمها
« ورقة بن نوفل »

ولم يسبق لزينب أن رأت أمها على مثل هذه الحال من اللهفة
والاهتمام والاشتغال ، وقد راعها أن مرّت بها فلم تكذ تراها ، بل
اندفعت لا تلوى على شيء نحو مخدع زوجها ، حيث تلبث هناك فترة
غير قصيرة ، قبل أن تخرج الى بناتها وقد عاودها هدوؤها ..

وأصغت « زينب » الى أمها وهي تحدثها حديثا عجبا عن نزول الوحي
على أبيها صلى الله عليه وسلم وهو يتعبد في غار حراء ، فأخذت بنا
سعت حتى لم تحرجوا ، ذلك أن الأمر كان من الخطر والجلال بحيث
قصرت عن إدراكه وأعيائها أن تبلغ مداه ..

ولبثت في مكانها ساكنة لا تريم ، وأفلت منها زمام أفكارها فلم تدر
من أين تبدأ ولا أين تنتهي ، بل خيل اليها أنها تسبح نائمة في بحر لجي
لا تدرك عبره !

حتى ردها الى يقظتها صوت أختها فاطمة تقول :

— أو ما يسرك يا أختي أنك بنت نبي هذه الأمة ؟

أجابت بعد تأمل صامت :

— أجل والله يافاطمة ، وأى فتاة لا يزدهيها ذلك الشرف الذي ما بعده

شرف ؟ لكنه الذي سمعتُ وسمعت من قول خالي « ورقة » : ليكذبن
أبي ، وليؤذين ، وليخرجن ، وليقاتلن ! (٢)

ففكرت « فاطمة » مليا وقد عزّ عليها أن يؤذى أبوها ، ثم رفعت

(١) نسب قريش ٧٠ - وجمهرة أنساب العرب ١٥٨ - والاستيعاب ٤/١٨٥٤

(٢) تاريخ الطبري ٢/٢٠٧

الذبايح ودعى إليها كل من أظلمته سماء البلد العتيق ..

وصحبت الأسرة المحمدية عروسها الى بيتها الجديد ، ولبت هنالك وقتنا تبارك الزوجين ، وتهون على الغالية مشقة فراقها لبيتها الأول الذى حلت فيه تماثما ..

ثم تركتها فى رعاية زوجها الكريم ..

وهناك أظلت زينب وزوجها أبا العاص سعادة غامرة ، وأتاح لهما الحب المتبادل أن ينعموا بالعيش فى ظل الزوجية الموفقة ، وان مرت بهما بين الحين والحين فترات من وحشة الفراق المؤقت ، ذلك أن أبا العاص كان مضطرا الى السفر فى تجارته ، فيمضى تاركا قلبه فى مكة ، وتحاول « زينب » أن تتجدد للفراق ، وتستعين عليه بزيارة بيت أبيها ، فرارا من وحدتها والتناسا لبعض التسلى ، واسترواحا لذكريات طفولتها السعيدة ، وهنالك كانت تشهد ما يلوح فى أفق الأسرة من طلائع ذلك الغد المغيب ، وقد كثر انقطاع أبيها الى التبعد والتأمل فى خلوته بغار حراء ، وبدت أمها ولا شغل لها إلا أن ترمقه على البعد ، وتهبىء له ما فى طاقتها من أسباب الراحة والهدوء ..

وتتشاغل « زينب » بالمشاركة فى تدير شؤون الدار لكى تتيح لأبها الفراغ للتفكير فى الحبيب واعداد زاده والسهر على سلامته ، حتى يعود « أبو العاص » من سفره فترجع زينب الى بيتها حيث تفضى الى زوجها بما يساورها من قلق ، فيبث فى نفسها الطمأنينة ، ويردها الى مألوف حالتها من دعة واشراق ، وربما أنشدتها بعض ما كان ينشده فى سفره ، وهو عنها بعيد :

ذكرتُ زينبَ لمسا وركتُ اِرمأ

فقلت سقيا لشخص يسكن الحرما

بنت الأمين جزاها الله صالحه

وكل بعلٍ سيثنى بالذى علما (١)

ويلتقى نسبه من جهة الأم مع زينب بنت محمد ، عند جددهما الأدنى :
خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصى ، فأمه « هالة بنت خويلد »
أخت خديجة الطاهرة ، زوج محمد وأم زينب ..

وكان الى جانب ذلك الأصل العريق والعرق الطيب ، كريم الخصال
نبيل الشخصية ، حتى لقد لقبه قومه بالأمين (١) ، كما لقبوا محمد
ابن عبد الله ..

وأتاح له أماته من ثقة الناس به واطمئنانهم اليه ما جعله يتقدم الى
الصف الأول من صفوف التجار ، وهم يومئذ سراة مكة وأثرهاؤها (٢)
ولقائل أن يقول ان السيدة خديجة ساعدت أبا العاص على تحقيق
رغبته ، وأعانت على اختياره زوجا لزينب ، ولآخر أن يقول ان محمدا
كان بحيث يؤثر الهاشيين ، لو لم يكن أبو العاص ابن أخت خديجة ،
وهى من هى فى حياة محمد وفى قلبه وفى دنياه ..

ولكن اذا كانت السيدة خديجة قد مهدت السبيل أمام ابن الربيع ،
فقد كان له وراء هذا من مجده المكتسب والموروث ما يزيه ويغنيه ،
ويفتح له أى بيت شاء من بيوتات مكة ، ويزف اليه أى عروس يختارها
من زهرات المجتمع القرشى العالى ..



تهياً البيت المحمدي للعرس ، وامتلاً بذلك الضجيج المحبوب الذى
يقترن عادة بإعداد بيت جديد . وقد بعث « محمد » فى طلب أزكى
الطور والأطيب ، كما أرسلت خديجة من يجوبون الأسواق القريبة ،
وترصدون من يفد على مكة من التجار ، ليأتوها بخير ما يحملون مما
يصلح للعروس . على حين مضى « أبو العاص » يعد بيته لاستقبال
الوافدة الغالية ، ويسخو فى هذا السبيل بما يتيح له ثراؤه العريض ..
وآن موعد الزفاف ، ورددت أرجاء مكة أصداء العرس ، ونحرت

(١) المصعب الزبيرى : نسب قريش ٢٣١ طظ الذخائر

(٢) السيرة : ٣٠٦/٢ وانظر معها الاصابة لابن حجر : ترجمة أبى العاص

وأصغى بملء سمعه اليه وهو يعرب له عن رغبته في الزواج من « زينب »
ثم كان جوابه ، أنه نعم الصهر الكفاء ، لكنه مع ذلك يرجو أن يمهلها
ريثما يعلن هذه الرغبة الى ابنته ، فإنها لأهل لأن تكون صاحبة
الكلمة الأولى في أمر جليل كهذا ، يعينها أكثر مما يعنى أى فرد سواها
وكان الأب الكريم يعرف شعور ابنته نحو « أبى العاص » ورأيها
فيه ، لكنه ، على ما يعرف من هذا كله ، لم يشأ أن يقطع في الأمر
دونها . وأراد بعد كل هذا أن يعفيها من حرج المواجهة ، فعهد الى أمها
في أن تسبقه اليها بالنبا السعيد ، ثم قام يسعى حتى دنا من غرفتها فوقف
قريبا منها بحيث تسمعه ولا تراه ، وقال بصوت ملؤه الحب والحنان :

— بنيتى زينب ، ان ابن خالتك أبا العاص بن الربيع ذكر اسمك ..

ولم ينتظر جوابها جهيرا معلنا ، فقد كان يعرف أن حياءها سوف
يمسك لسانها عن الرد ، اللهم الا ان كانت تأبى الزواج بالرجل فتغلب
على حياءها كيلا يتم الأمر على ما تكره ..

وتلبث الأب برهة يصغى ، فلم يسمع سوى خفقات القلب الطاهر ،
ودعوات الأم الطيبة .. واذ ذلك عاد الى حيث ترك « أبا العاص » ينتظر ،
فصافحه مهنا داعيا مباركا ..



وذاع النبا السعيد في مكة ، فوجت له قلوب شبان طمعوا في الظفر
بالعروس الهاشمية ، لكن أحدا منهم لم يسعه أن يذم الصهر المختار .
أقصى ما قالوه يومئذ أن بنى العم كانوا أولى بزینب من ابن الخالة ،
ثم أمسكوا فلم يقولوا عن أبى العاص إلا خيرا ، وهل كانوا يستطيعون
أن يقولوا الا خيرا ؟ ..

قرشى صميم ، يلتقى نسه من جهة الأب مع « محمد بن عبد الله » عند
انجد الثالث : عبد مناف بن قصي ، فهو « أبو العاص بن الربيع بن عبد
انعزى بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي » (١)

الأسفار ، وكأننا كانت ترى في وعيها لحديث رحلاته ، وفهسيها لكلامه عن الدنيا والناس ، آية رشدتها الذي تميزت به عن لداتها وأتراها .. وربما جاءها في بعض أوباته من الرحلة بحلية جبيلة أو هدية مناسبة ، فتقبلها في بساطة وبِشْر ، وترى فيها تحية جبيلة لما يربطها من أواصر المودة والقربى ..

وهكذا تفتح له قلبها البكر على مهل ، فأحست تلك اللسة الرقيقة الساحرة تحرك وجدانها في رفق و لطف ، وكانت أمها الى جانبها ترقب هذا التفتح بعين ساهرة لا تنام ، وقد أرضاها بلا ريب أن يظفر « أبو العاص » بقلب « زينب » والا فما كانت خديجة بالتى تفرضه على ابنتها لو أن قلبها ظل معلقا دونه ..

و « خديجة » قد عرفت الحب الطاهر ونهلت من رحيقه العذب ، وخرجت من تجربتها العبقريّة الفذة - التى بدت للقوم فى حينها أشبه بسغامرة - أشدّ تحمسا للزواج القائم على الحب المتبادل ، وأعمق إيسانا بأنه النعمة الكبرى التى تهبها السماء للسعوديين السعداء ..

وتلظفت السيدة الأم ، حتى أنبأت زوجها بهذه العاطفة الحلوة التى لمست قلب فتاته الأولى ، فرقَّ قلب الأب النبيل للحبيبين العزيزين ، وتشلهما وهما يترشفان ، فى حياتهما الزوجية ، من ذلك النبع السخى المبارك الذى شاء له حظه أن ينهل منه أعواما دون أن يزهد أو يسيل ..

هنالك وافقت « خديجة » على أن يتقدم ابن أختها الى أبى زينب خاطبا ، وكان بودها لو تسهلت فترة لتستبقى ابنتها الكبرى الى جانبها ، لكنها رأت حرص الفتية القرشيين على مصاهرة الهاشمى الأمين ، وخشيت اذا هى تريثت أمدا ، أن يسبقوا « أبى العاص » الى طلب يد « زينب » فىكون شىء من الحرج لا ترضاه لزوجها العزيز ..



وقد أحسن « محمد » لقاء « أبى العاص » كما اعتاد دائما أن يفعل ،

تمتد وتطول حتى تبلغ الرحلة منها أشهراً ذوات عدد ، لكنه كان أبداً يرنو الى « أم القرى » على البعد ، خافق القلب مستثار الحنين ، يؤنسه طيف من تلك الصبية الرقيقة الوديدة ، التي يتألق وجهها بانتسامة حلوة ، وتفويض ملامحها بعدوبة أسرة ساحرة ..

ولم يغب عن باله قط ، أن الفتية الأمجاد من آل هاشم يرنون الى خطبتها ، لكنه كذلك كان يعرف فرصته ويطنن الى موآاة حظه ، فليس بين منافسيه جميعاً من يتاح له مثل مكآاته في بيت محمد ، أو تنهياً له فرصة التلطف في كسب ود « زينب » والوسيلة الى الظفر بإعجابها وتقديرها ..

وأبت عليه ثقته في نفسه أن يدخل مع منافسيه في معركة مكشوفة ، بل اكتفى بأن يودع سره العالي لدى خالته الرعوم ، وانصرف مطمئناً الى تدعيم مركزه وبناء مجده ، ليكون لزينب نعم القرين ..

وكذلك أبت عليه فطنته أن يحاول كسب عواطف فتاته في عجلة ، أو أن يطرق باب قلبها البكر في عنف ، فهي على نضجها واتزانها ماتزال الصبية الخجول ، وأى تسرع في الكشف لها عن حبه قد يחדش حياءها العذرى ويجرح براءة صباها ، وهو ما كان ابن الخالة يتجنبه ويتقيه ..

وقد كلفه هذا الموقف جهداً غير قليل ، وفرض عليه قيوداً ثقلاً من الكتمان والحرص والتأني ، ولكنه في الوقت نفسه جعل « زينب » تطمئن اليه وتأنس له في غير حذر ولا تحرج ، وقد بان لها من مخايل رجولته التي أنضجتها التجربة والرحلة ، ما جعلها تعتر به أخوا ، ولا ترى في فتیان قريش من يوزن به قوة شخصية وسعة خبرة ، وإن وزنوا به أصالة ونسباً ، وربما مالا كذلك ..

وقد اعتاد « أبو العاص » أن يجعل بيت « محمد » قبلته بعد الكعبة كلما آب من سفر ، فكانت « زينب » ترتاح الى محضره ، ويطيب لها أن تصغى الى ما في جعبته من طرائف وغرائب التقطها من مدرسة

لم تكن قد تجاوزت العاشرة من عمرها حين رتت اليها عيون الهاشميين ، وتنافست بيوتات مكة على الظفر بها عروسا لمن يختاره لها أبواها من كرام الفتية القرشيين ..

ولكن واحدا منهم ، لم يكن له من الأمل فى الزواج من « زينب » مثل ما لابن خالتها « أبى العاص بن الربيع » أحد رجال مكة المعدودين شرفا ومالا ، فلقد أتاحت له فرصة لم تتح لسواه ، إذ كانت خالته « السيدة خديجة » تنزله منزلة الابن ، فتهيا له بذلك أن يغشى بيت « محمد » كلما أراد ، فيجد من الترحاب البالغ والود الصادق ، ما يطمعه فى أن يكون الزوج المختار لزينب ، تلك التى خفق لها قلبه منذ حدثتها بالكرة ، فراح يرمقها وهى ترقى سراعا فى مدارج النمو ، وتفتح للصباء ملء النظرة والبهاء ..

وكان مكانها فى بيت أبيها ، كبرى بنات أربع ، قد أسرع بها الى النضج قبل الأوان ، بما ألقى عليها من عبء المشاركة فى حضانة أخواتها ، مع الأم الطيبة التى كانت حينذاك قد تجاوزت عامها الخمسين ، وأجهدتها بلا ريب مشاق الحمل والوضع المتتابع دراكاً فى العقد الخامس من عمرها ، فأضفت هذه المشاركة على « زينب » طابع الأنوثة الناضجة ، ولما نزل ندية الصبا غضة الإهاب ..

وكان « أبو العاص » يراها كلما ألم بيت خالته فيؤخذ بيها مرآها وعدوبة حنائها وذكاء ملامحها ولطف طباعها وتفتح أنوثتها ..

وكانت مشاغلة الجسام تسكه أحيانا عن الامام بيت خالته ، وبخاصة فى المواسم الكبرى حين تزدهم مكة بأفواج الساعين اليها من الحجيج والتجار ، كما كانت رحلاته التجارية المتصلة ، الى الشمال والى الجنوب ، فى الصيف والشتاء ، تجسه عن « أم القرى » فترات قد

زينب الكبرى

- العروس الهاشمية
- ابن الخالة
- سعادة لم تطل
- ليل لا يبدو له آخر
- الأسير والقلادة
- مسلبة ومشرك
- طارق "بليل"
- لقاء .. وفراق
- ذكرى ...

فهتفت « فاطمة » وهي تنتفض حبا وحنانا :
 - يا لأبى العزيز !.. انه لكما ذكرتِ يا أم كلثوم .
 وقالت رقية :

- وما يدريكما أن لفراق زينب صلةً بسيل أينا الى العزلة وشغفه
 بالخلوة ؟

فهزت « أم كلثوم » رأسها وهي تقول بلهجة ذات مغزى :
 - ما أراك يا رقية الا تعدين نفسك لمثل مصير زينب ، وقد جاء
 دورك !

فردت « رقية » فى غير انفعال :
 - ما خطر لى هذا يا أخت بيال ..
 وعقبت فاطمة :

- فلتزوجا أتسا وليبارك الله لكما ، أما أنا فلست بتاركة أبوى
 ما استطعت الى ذلك سبيلا ..
 ولم تدر « فاطمة » وهى تلقى هذه العبارة ، أنها كانت تنطق بلسان
 التدر ! ..

فما مضى على زواج « زينب » غير قليل ، حتى خطبت أختها رقية
 وأم كلثوم ، وبقيت هى فى بيت أبيها ، ما استطاعت الى ذلك سبيلا ..



الى هنا ينتهى الفصل الأول من حياة الشقيقات الأربع ، بانتهاء
 حياتهن المشتركة فى بيت أبويهن ، ويبدأ فصل آخر نرى فيه كل واحدة
 منهن قد واجهت دنياها الجديدة واستقلت بحياتها الخاصة ، فلنحاول
 أن تتبع كلا منهن ، لنصحبها فى ذلك الدور الثانى من حياتها ، ونرى
 ما فعلت بها الأيام ..

وتحاول رقية - متأثرة بشعورها أن الدور عليها - أن تهون الأمر على أختها الصغرى فاطمة ، وأن تقنعها أن أوبريها ماكانا ليسلنا «زينب» إلى زوجها في احتفال بهيج كالذى كان ، لولا ثقتهما ان في هذا خيرها وسعادتها ..

لكن فاطمة تصر على رأيها في الزواج ، وقد يبدو لأم كلثوم أن تقول لأختيها :

- من يدري ؟.. لعل ضجة العرس انما قصد بها شغل العروس عن التفكير في قسوة التجربة الجديدة التي تواجهها بالانتقال من مهد حداثتها ومرتع صباها ..

واذ تحس من أختها « فاطمة » بوادر الاقتناع ، تضى مزهوة برأيها ، فتلفت نظر أختيها الى ما بدا على أمهما بعد فراق زينب من شجو تحاول أن تكتمه ، فتلفت منها بوادر واشية به دالة عليه .

ثم تسألها :

- أما سمعتها غير مرة تنادى « رقية » باسم « زينب » ثم تنبهه فجأة ، فتستدرك بصوت رقيق حالم : ويحي ..! لقد نسيت أن زينب لم تعد هنا !

فتردد فاطمة في أسي :

- هو ما تقولين ..

أما رقية فتجيب :

- انك تبالغين يا أم كلثوم ، فالواقع أن أمنا قد ألفت أن تنطق باسم زينب ، وليس في سبق لسانها بهذا الاسم ما يستغرب ، وانما هو حكم الإلف وسلطان العادة ..

ولكن « أم كلثوم » تستطرد قائلة دفاعا عن وجهة نظرها :

- فما قولك اذن في أيينا ؟.. أو ما تلاحظين عليه منذ حين أنه يأنس

إلى الخلوة ويبيل إلى الوحدة ويجنح إلى الصمت والتأمل ؟ أو ما يبدو عليه في هذه الأيام أنه مشغول البال بهمّ يطويه ؟

فالحق أن عمل هؤلاء لم يكن يتجاوز شؤون الخدمة الى حضانة الأطفال . اذ حرصت السيدة خديجة على أن تتولى بنفسها تلك المهمة انجيلية ، كى تعد بناتها للمستقبل المرجو لهن ، وما فى مكة من تدانيهن شرفا وعزة ..

حتى اذا شبت كبراهن « زينب » عن الطوق ، بادرت أمها بتسريتها على المشاركة فى العبء الكبير ، وأخذتها مبكرة مأخذ الجد ، وثأت بها عما يشغل لداتها وأترابها من عبث الطفولة ولهوها ، فكانت « زينب » لشقيقتها الصغرى « فاطمة » أما صغيرة ، ترعى شئونها وتضى فراغها فى ملاحظتها ، كيما تعفى أمها من بعض مشاغلها وقد علت بها السن وجاوزت الخمسين من عمرها ..

وقرب هذا الوضع ما بين زينب وفاطمة ، كما أوجد تقارب السن ألفة بين الأختين رقية وأم كلثوم ، فكانتا رفيقتين متلازمتين ، يجمعهما الملعب المشترك والفراش الواحد ، والطباع المتشابهة ، والسست المتشائل ، حتى لكأنهما توأمان !

وسارت حياة الشقيقات هكذا رحية هائلة حتى تزوجت كبراهن « زينب » فاقتدتها أخواتها وشعرن بالوحشة لغيابها ، ولبثن ليالى عديدات ينظرن الى فراشها الخالى فيخامرهن احساس مبهم يختلط فيه الفرح بالأسى ، ودار سمرهن طوال هاتيك الليالى ، حول الزواج ، وقد أعياهن أن يدركن كنه هذا الوضع الذى ينتزع الفتاة من أحضان أهلها ، ويلقى بها وحيدة الى رجل قد يكون غريبا أو شبه غريب !

وكانت صغراهن « فاطمة » بحكم طفولتها ، أجهلهن لحكمة الزواج وأشدهن سخطا عليه ، فما أرضاها قط أن يبعدوا عنها « أمها الصغيرة » التى طالما لاعبتها ودللتها ورعتها ولعلها ساءت أختها كيف هان على الأسرة أن تستقبل حادث الزواج بالفرح المعلن ، وتحفل به فى بهجة وسخاء ، وكان أولى بها أن تتسك بزيب ، أو لا فلتودعها كارها ، بغير احتفال !

الشقيقات الأربع

خرجن الى الدنيا في أكرم بيت ، وأنبتنهن سلالة قرشية عريقة أصيلة ما يعرف العرب أعز منها ولا أنقى ، واستقبلهن البيت الكريم استقبالا لم تظفر بثله لداتهن ، فقد كن ثمرة زواج سعيد قام على الحب المتبادل والمودة الخالصة ، يرى فيهن الأب صورة لطيفة من زوجته الحبيبة التي أنسته بحنانها الغامر كل ما ذاق في طفولته من يتم ، وكانت له عوضا جميلا عما قاسى من حرمان ...

وتجد فيهن الأم ، فلذات حية من رجلها العزيز الذي بهرّها منذ عرفته بجلال طلعتة ، وأسرها بنبل شخصيته ، وفتنها بجيبل خصاله ، فتفتح له قلبها المعلق ، وأقبلت على الحياة من جديد ..

وكانت طفولتهن سعيدة ناعمة ، لم ترهق بشطف العيش ، ولا أذبلها الحرمان ..

ودرجت حياتهن الأولى على ما نعرف من تقاليد البيوت القرشية العريقة ، فالتمست لهن - واحدة بعد الأخرى - خير المراضع بعيدها عن حر مكة الخائق وقيظها المنهك ، حتى اذا أدركن سن الفطام عدن الى حضانة الأم التي كانت لهن خير مربية ، وقد نفضت يديها منذ تزوجت « محمدا » من كل ما كان يشغلها من شئون التجارة ، وتركت للزوج الأمين الاشراف على استثمار ثروتها الواسعة ، وأقبلت هى بكل طاقتها ترعى دنياها الجديدة ، غير ملقية بالا الى ما وراء جدران بيتها السعيد ..

وأكسبتها تجربتها السابقة فى الأمومة ، خبرة بحضانة الصغار ودراية بتربيتهم ، فأسرعت فتياتها الى النمو بفضل ما تهيأ لهن من رعاية مثالية ، وتفتح صباهن كما يتفتح الزهر فى المنبت الطيب . واذا كانت ثروة الأسرة قد أتاحت لها استخدام من تشاء من الخدم والغلمان ،

حب النبي لبناته

آن لنا أن نستأنف الحديث عن بنات محمد ، اللواتي كتب لهن أن يعشن دون اخوتهن من البنين ، وأن يتزوجن جميعا في حياة أبيهن العظيم ، كما كتب عليه أن يشكل ثلاثا منهن ، ولا يبقى له غير الزهراء .. ولا نعلم أحدا ممن عاصروا محمدا وحاربوه نبيا رسولا ، قد جحد حب محمد لبناته جميعا ، أما أعداء الاسلام المحدثون من المستشرقين ، فيأبون أن يصدقوا أنه أحب بناته ذلك الحب الغامر الذي يبدو لهم شاذا ، وقد ركزوا حملتهم بوجه خاص على الأبناء المستفيضة بحب الرسول لفاطمة ، زاعين - كما سنرى بعد في الفصل الخاص بالزهراء - أنها أبناء اخترعت بعد عهد الرسول بزمان ، عندما ظهرت فكرة التشيع ! ولا تتعجل الآن الرد على ذلك الزعم الباطل ، وانما حسبنا - مؤقتا - أن تقدر حين نذكر حب محمدا لبناته الأربع ، أثر السيدات الثلاث الكريمات اللواتي دخلن حياته قبل أن يغدو أباً : أمه « آمنة بنت وهب » وقد ظل ما عاش يذكرها ويأسى لفقدتها ، و « فاطمة بنت أسد بن هاشم » زوجة عمه أبي طالب التي كانت له من بعد أمه أما ، والتي سئع رسول الله يقول انه لم يجد أبر به منها بعد أبي طالب (١) ، و « خديجة بنت خويلد » زوجته الحبيبة التي أنسته مرارة ينمه وحرمانه ، وملاّت دنياه حبا وأنسا وطمأنينة وسلاما ..

سبحانه جلّت حكمته ، لكأنما أراد أن يروض الرجل الذي سوف يصطفيه نبيا ، على احتمال أبوة الأنوثة والصبر عليها ، كيما يعده للرسالة الجليلة التي سوف يعهد اليه بتبليغها ، ولكي ينشأ على الاعتداد بالذات ، وعدم الاستنصار بالولد ، ويكون في أبوته لبنات أربع قدوة صالحة للصدقين برسالته التي أعزت الأنوثة ، وقررت لها من الحقوق مالا تزال نساء من العصر الحديث ، يناضلن في سبيل مثله !

(١) ابو الفرج الاصفهاني : مقارن الطالبيين - وراجع ترجمتها في (الاصابة) رقم ٧٢١ نساء ، ونسبها وولد ابي طالب منها ، في (نسب قريش) ص ٤٠ ذخائر

بعد الهجرة ، من الزهراء ، أصغر بناته وأحبهن اليه (١) ..
 أما الثاني فزيد بن حارثة الكلبى ، وكانت أمه سعدى بنت ثعلبة
 الطائى ، خرجت به صبيا لتزيره أهلها فى طيء ، فأصابته خيل من بنى
 القين بن جسر فباعوه بسوق حباشة ، واشتراه حكيم بن حزام بن
 خويلد لعنته السيدة خديجة التى وهبته زوجها قبل المبعث ، فأعتقه
 وتبناه ، وأذاع فى الملاء من قريش أنه ابنه وارثا وموروثا ، فصار يدعى
 زيد بن محمد ، حتى جاء أمر الاسلام : « ادعوهم لآبائهم » فدعى زيد
 ابن حارثة ، وظل مع ذلك أثيرا عند الرسول مقربا اليه عزيزا عليه ..
 ثم كان هناك بنو خديجة من زوجيها السابقين ، والراجح أن واحدا
 منهم - على الأقل - كان يعيش مع أمه فى رعاية زوجها الهاشمى الامين
 فكتب طبقات الصحابة ، تترجم للصحابى « هند بن أبى هالة
 التميمى » فتذكره بأنه : « ربيب رسول الله صلعم ، أمه خديجة بنت
 خويلد » (٢)

وعن « هند » رويت صفة الرسول الكريم ، رواها الحسن بن على
 ابن أبى طالب عن خاله هند بن أبى هالة ربيب النبى ، أختى فاطمة الزهراء (٣)
 وقد ظل محمد - صلى الله عليه وسلم - حتى أخريات أعوامه يشناق
 الولد ويلتمس الوسيلة اليه ، حتى اذا وهبه الله على الكبر غلاما ،
 امتلأت نفسه الكبيرة غبطة وهناء وفرحا ، لولا أن الله لم يسهل
 « ابراهيم » غير ثمانية عشر شهرا ثم قبضه اليه ، فحزن الأب الشاكر
 لفقده أشد الحزن ولم يكتفم ألمه ، ولا ملك دموعه ، وان ظل على الحزن
 مستسلما لقضاء الله الذى شاء لحكمة سامية ، ألا يكون لمحمد فى تلك
 البيئة المفتونة بالبنين ولد ذكر ، وإن دان برسالاته ملايين البشر فى
 مشارق الأرض ومغاربها ..

(١) ابن حجر : الإصابة - والسيرة : ٢٦٣/١

(٢) الاستيعاب : ١٥٤٤/٤ . وقد كان هند فصيحبا بليغا . شهد احدا ، وقيل
 شهد بدرا

(٣) وأبوه : أبو هالة هند بن زرارة من بنى عمرو بن تميم بن مر .. راجع ترجمة
 هند بن هند من السيدة خديجة ، فى (الإصابة) رقم ٩٠٠٧ - وانظر جمهرة
 انساب العرب ١٩٩ -

أبيه وذهب كل مذهب ، وقد بُعث محمد بدعوته رسولا ، وفي بني هاشم بن عبد مناف السقاية والرفادة ، وفي بني عبد شمس بن عبد مناف المواء ، ونذكر هنا ما مر بنا من خبر قيام قريش في وجه « عبد المطلب ابن هاشم » حين هم بحفر بئر زمزم ، كيلا يستأثر دونهم بهذا الشرف ، فهل تراهم يتركون حفيد عبد المطلب يظهر نيبا ورسولا من النساء ؟..

الى ذلك المدى بلغت المنافسة على الرياسة والشرف بين بيوت قريش ، فلا عجب أن بات القوم يتعللون بانقضاء ذكر محمد بسوته ويقول قائلهم مهونا عليهم الأمر :
« دعوه فانما هو أبتري !.. »

أما محمد صلى الله عليه وسلم ، فقد كان يؤمن بأن الله بالغ أمره ، وناصر رسوله ، ومخلد دعوته ، دون حاجة الى ولد من صلب الرسول يرثها وينهض بها من بعده ، فالنبوة اصطفاها لا وراثتها ، وهو صلى الله عليه وسلم قد بعث بختام الرسالات ..



ولست بالقائلة مع هذا كله ، ان محمدا تجرد من حب البنين ، فما كانت بشريته ، صلى الله عليه وسلم ، لتسمح له بذلك ، ولا كانت فطرته السوية بالتى تجمد فيها أسمى المشاعر الانسانية وتنزع منها غريزة يرتهن بها حفظ النوع وعمران الكون ..

ولقد فاضت عاطفة أبوته على اثنين كانا له بمثابة الولد : أولهما « على ابن أبى طالب » وكانت قريش قد أصابتها أزمة شديدة وأبو طالب ذو عيال ، فقال محمد لعنه العباس ، أغنى بنى عبد المطلب :

« ان أخاك أبا طالب كثير العيال ، وقد أصاب الناس ما ترى من هذه الأزمة ، فانطلق بنا اليه فلنخفف عنه من عياله : آخذ من بينه رجلا وتأخذ أنت رجلا ، فنكليهما عنه » ..

ووسّع محمد لابن عمه «على» مكانا في بيته ، وفي قلبه ، ثم زوجه ،

الأبتر هو شائك المنسى في الدنيا والآخرة ، وان ذمّر ذكر باللعن « (١) ..
ولم يدُر بخلد ذلك الشانء ، يوم عيّر محمدا ، أن ذكر ابن عبد الله
سوف يبقى حيّا خالدا ما عبّد الله في الأرض ..

لقد كان أقصى ما يتصوره هو والمشركون من قريش ، أن يستأثر
حفيد عبد المطلب الهاشمى دونهم بالزعامة في مكة ، وربما امتد سلطانه
الى القبائل القريبة المجاورة فيبقى له الأمر ماعاش ، ثم ينقطع ذكره
بموته ، أما أن يستد سلطانه من أقصى المشرق الى أقصى المغرب ، ويخلد
ذكره على مر العصور والآباد ، فذلك ما لم يكونوا يتصورونه وقد
عاشوا حتى ذلك الحين محصورين في جزيرتهم لا يكادون يخرجون عنها
الا رُحلا أو متاجرين ..

وما كانت قرشية « محمد » الصميمة الخالصة ، لتهوّن عليهم انتقال
السلطان اليه ، فان المنافسة على الشرف بين بيوت قريش كانت على
أشدّها ..

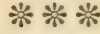
حدثوا أن الأخنس بن شريق الثقفى أتى أبا الحكم بن هشام بن
المغيرة فسأله : يا أبا الحكم ، ما رأيك فيما سمعت من محمد ؟ فأجاب :
« ماذا سمعت ؟! .. تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف : أطعموا
فأطعمنا ، وحملوا فحملنا - يعنى الديات - وأعطوا فأعطينا ، حتى اذا
تحاذينا على الركب وكنا كفرسى رهان قالوا : منا نبى يأتيه الوحي من
السماء ! .. فمتى ندرك مثل هذه ؟! . والله لا تؤمن به أبدا ولا
نصدقه « (٢) ..

على أن النزاع بين بنى عبد مناف أنفسهم لم يكن الا شبيها بهذا أو
أشد منه ، فقد كان هناك البيت العشمى والبيت الهاشمى ، يتنازعان
ما استرده أبواهما « عبد شمس وهاشم : ابنا عبد مناف » من ميراث
جدهم « قصى » الذى كان قد وصى بسا بيديه من مناصب الشرف لولده
« عبد الدار » كى يلحقه بأخيه « عبد مناف » الذى شرف في زمان

(١) الكشف : ٢٣٧/٤

(٢) السيرة : ٣٣٨/١

وأعسر ، فقد انفرد « ابن اسحاق » بالرواية - دون اسناد - عن موتها في الجاهلية ، على حين روى غيره أن القاسم ولد في الجاهلية ومات في الاسلام ، وأما عبد الله فولد ومات في الاسلام . وذكروا في سندهم « الزبير بن العوام » وهو ابن أخت السيدة خديجة ، وأحد العشرة السابقين الى الاسلام ..



وأيا ما كان الأمر ، فالذى لا ريب فيه أن البيت المحمدي لم تطل فرحته بولديه ، فقد ماتا طفلين قبيل المبعث أو في مستهله . ولعلنا لو حاولنا أن نلتس دليلا يؤيد هذا ، لوجدناه في « سورة الكوثر » حيث يقول الله تعالى لنبيه الكريم :

« انا أعطيناك الكوثر . فصلّ لربك وانحر . ان شانئك هو الأبتى »
وسورة الكوثر ، مكية مبكرة ، فهي الخامسة عشرة في ترتيب تاريخ النزول ، بين السور المكية التي بلغت عدتها تسعا وثمانين سورة . وجبهة المفسرين على أن الكوثر نزلت في « العاص بن وائل السهلي » أحد أشرف مكة الذين ساروا الى أبي طالب يسألونه ان يرد ابن أخيه عن دعوته (١) ..

وكان العاص - فيما نقل ابن اسحاق كذلك - « اذا ذكر الرسول قال لقومه : دعوه ، فانما هو رجل أبتى لا عقب له ، لو مات لا تقطع ذكره واسترحتم من أمره » فأنزل الله في ذلك سورة الكوثر (٢) ..

ويقول « الزمخشري » في تفسير آية الكوثر : « ان من أبغضك هو الأبتى لا أنت ، لأن كل من يولد من المؤمنين الى يوم القيامة فهم أولادك وأعقابك ، وذكرك مرفوع على المنابر ، وعلى لسان كل عالم وذاكر الى آخر الدهر ، يبدأ بذكر الله ويشئ بذكرك ، فمثلك لا يقال له أبتى ، وانما

(١) راجع أقوال المفسرين في سبب نزول هذه السورة

(٢) السيرة : ٣٤/٢

عبد الله ، الذى لقب بالظاهر والطيب لمولده فى الاسلام على ما نقل عن « الزبير » ابن أختى السيدة خديجة ..

وفى (الاصابة) فى ترجمة السيدة خديجة أم المؤمنين : (١) « فولدت له القاسم وعبد الله ، وهو الطيب والظاهر ، سعى بذلك لأنها ولدته فى الاسلام » ..

وإذا رجعنا الى كتب الأنساب ، وجدنا فى (نسب قريش) (٢) : « فولد رسول الله ، صلى الله عليه وسلم : القاسم وهو أكبر ولده ، ثم زينب ، ثم عبد الله ، ثم أم كلثوم ، ثم فاطمة ، ثم رقية »

وفى (جمهرة أنساب العرب) (٣) : « ولم يعقب عليه السلام ذكرا الا ابراهيم بن رسول الله ، مات صغيرا لم يستكمل عامين فى حياة النبى عليه السلام .. وكان لرسول الله صلى الله عليه وسلم من الولد سوى ابراهيم : القاسم ، وآخر اختلف فى اسمه فقيل : الطاهر ، وقيل الطيب ، وقيل عبد الله .. ماتوا صغارا جدا . وكان له عليه السلام من البنات : زينب أكبرهن ، وتاليتها رقية ، وتاليتها فاطمة ، وتاليتها أم كلثوم . أم جميع ولده - حاشا ابراهيم - خديجة أم المؤمنين » ..

وليس التوفيق بين هذه الروايات بمتعذر ، فيما يختص بعدد أبناء محمد ، فقد يقال إن اللقب التبس بالاسم ، وجعل الطيب والظاهر ولدين مع القاسم فهم ثلاثة ، أو مع القاسم وعبد الله فهم أربعة ، وما الطيب والظاهر - على الأرجح - سوى لقبين لعبد الله ، وبذلك يكون للنبي من خديجة ولدان اثنان ، وهذا هو المشهور عند جمهور المسلمين ، وهو ما يمكن ترجيحه بعد مقابلة كل تلك المرويات ..

أما فيما يتصل بوقت ولادتهما ووفاتهما ، فالتوفيق فيهما أشق

(٢) للمصعب الزبيرى : ٢١ ط الذخائر

(١) الاصابة : ٦١/٨
(٣) لابن حزم : ١٤ ط الذخائر

وفاطمة « (١) »

وجاء في (الاستيعاب) : (٢) »

« وأجمعوا أنها ولدت له أربع بنات كلهن أدركن الاسلام وهاجرن ،
فهن : زينب ، وفاطمة ، ورقية ، وأم كلثوم .. »

« وأجمعوا أنها ولدت له ابنا يسمى القاسم ، وبه كان يكنى صلى
الله عليه وسلم . هذا مما لا خلاف فيه بين أهل العلم . وقال معمر عن
ابن شهاب : زعم بعض العلماء أنها ولدت له ولدا يسمى الطاهر .. »

وقال بعضهم : ما نعلمها ولدت له الا القاسم ، وولدت له بناته
الأربع . وقال عقيل عن ابن شهاب :

« ولدت له خديجة : فاطمة ، وزينب ، وأم كلثوم ، ورقية ، والقاسم ،
والطاهر ، وقال قتادة : ولدت له خديجة غلامين وأربع بنات : القاسم
وبه كان يكنى .. وعبد الله مات صغيرا »

وفي « الروض الأنف » (٣) رواية عن الزبير بن العوام بن خويلد :
« ولدت خديجة له : القاسم وعبد الله ، وهو الطاهر والطيب ، سمي
بالطاهر والطيب لأنه ولد بعد النبوة ، واسمه الذي سمي به أولا عبد الله
« وبلغ القاسم سن المشى غير أن رضاعته لم تكن كملت عندما مات »

وفيه كذلك ، في الموضع نفسه ، أن خديجة رضيت الله عنها : « دخل
عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بعد المبعث ، وهي تبكى ،
فقال : يا رسول الله ، درت لبيبة القاسم - تصغير لينة ، تعني بها بقايا
البن في ثديها - فلو كان عاش حتى يستكمل رضاعته ! فقال الأب
الرسول : ان له مرضعا في الجنة تستكمل رضاعته . قالت : لو أعلم ذلك
لهوّن على . فقال النبي : ان شئت أسععتك صوته في الجنة . فأجابت :
بل أصدق الله ورسوله .. »

وعلى هذه الرواية ، يكون القاسم مات رضيعا في الاسلام كأخيه

(٢) ح ٤ ص ١٨١٨

(١) تاريخ الطبري : ٣ / ١٧٥

(٣) السهيلي : ١ / ١٢٣

الشقيقتان

وبقى للأبوين - كى تتم سعادتهما - مطلب واحد : أن يهبهما الله مولودا ذكرا ، بعد أن منَّ عليهما باناث أربع ..

وبدا الأمل بعيدا ، اذ كانت السيدة خديجة قد جاوزت ، بعد مولد فاطمة ، سن الخمسين ، لكنها مع ذلك لم تكن قد بلغت مرحلة اليأس من أولاد رغم السن العالية ، ولا أخلفتها عاداتها المؤذنة بصلاحتها للحمل ، ومن ثم لم يقطع الزوجان الرجاء فى فضل الله ..

ثم استجاب الله لدعائهما فوهبهما غلامهما « القاسم » ثم تلاء « عبد الله » فتضاعفت الفرحة بمولده ، حين ظن أن لا رجاء ..

لكن الله لم يشأ للوليد أن يعيشا طويلا ، بل ما لبث أن استرد الوديعتين الغاليتين ، أحدهما بعد الآخر ..

أما متى ولدا ، وكيف وأنى ماتا ، فالمؤرخون وكتاب السيرة لم يتفقوا على قول واحد فى ذلك الأمر مع ما له من أهمية قصوى فى حياة الأسرة المحمدية والتاريخ الإسلامى ، وعلى قرب عهد ابنى محمد ، بسبعث الأب الكريم ..

وأعجب من هذا ، أنهم اختلفوا فى عدد الذكور من أبناء محمد وخديجة ، وهل كانا اثنين ، أو كانوا ثلاثة ، أو أربعة ؟

فالذى فى (السيرة) (١) قول ابن اسحاق : « أكبر بنيه : القاسم ، ثم الطيب ، ثم الطاهر ... فأما القاسم والطيب والطاهر فهلكوا فى الجاهلية ، وأما بناته فكلهن أدركن الإسلام فأسلمن وهاجرن معه .. » وفى (تاريخ الطبرى) ما نصه : « فولدت - خديجة - لرسول الله ثمانية : القاسم والطيب والطاهر وعبد الله ، وزينب ورقية وأم كلثوم

وأقبل « محمد » على زوجته مهنتا بسلامة الوضع ، ثم تلقى طفله الرابعة يبارك مولدها في ذلك اليوم الأغر ، وكأننا رأى في ذلك الاتفاق ، آية من الله ، تحب إليه رزقه ، وتصرف سمعه عما كان يقال حينذاك عن أبوته لانات أربع !..

وتطلع الى السماء شاكرا حامدا ، راضيا بما يأتيه من عند الله ، مستثار الرحمة والحنان على تلك المخلوقات اللطيفة البريئة ، يتلقاها القوم كارهين ، وما جاءت الى الدنيا مختارة ، ولا هي بمسئولة عن تخلف البنين !..

ثم رنا الى زوجته في عطف وتأثر ، يريد أن ييث في نفسها الطمأنينة والرضى ، وأن يهون عليها أمرا لا يد لها ولا لأحد فيه ، وانما تلك ارادة الله ، سبحانه ، لا راد لأمره ، ولا معقب على ارادته ..

لكن « خديجة » لم تكن في حاجة الى مواساة ، فانها ما كادت تسأل عينيها من وليدتها الرابعة ، حتى تفتح لها قلبها ، وقد رأت فيها صورة من أيها ! (١) ..

فأدركت أن الله سبحانه جبا هذه الوليدة بعناية منه ، حين برأها على مثال « محمد » العزيز ، فكان شبيها به ، كافيا وحده لأن يحميها من جفوة الاستقبال ، ويفجر لها أسخى ينابيع الحب والاعزاز ، في قلب هذه الأم التي اكتفت من دنياها جميعا بأن تكون زوجة محمد ، وأرضاها كل الرضى ، أن تدخر لها السماء تلك النعمة الكبرى ، بعد أن نفقت يديها من الرجال ، وأوصدت قلبها على يأس ..

« يا معشر قريش ، اجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه ، أول من يدخل من باب هذا المسجد ، يقضى بينكم فيه » ..

فقبلوا ، وتعلقت عيونهم جميعا بالباب تتربح الحكم المجهول ، وانهم كذلك ، اذ أقبل رجل شاب ، تام الفتوة ، متزن الخطا من غير تكلف ، رزين من غير فتور ، بهي الطلعة مع جد ووقار ، فهتفوا جميعا لما أن رأوه :

« هذا الأمين ، هذا محمد بن عبد الله الهاشمي ، رضينا بحكمه » ..

وأقبلوا عليه فحدثوه بما اشتجر بينهم من خلاف ، فطلب ثوبا ثم تناول الحجر فوضعه بيده الكريمة في الثوب وقال :

« لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب ، ثم ارفعوه جميعا » ..

ف فعلوا ، حتى اذا بلغوا به مكانه ، وضعه محمد بيده ودعم بناءه .. وكانت سنة يومئذ ، خمسا وثلاثين سنة ، على ماروي ابن إسحاق (١)



وآب « محمد » الى بيته ، حيث ترك زوجته في الغداة على وشك انوضع وسعى الى الكعبة داعيا ، فكان أول ما استقبله عند عودته ، بشرى مولد ابنته الرابعة « فاطمة » ..

واقترنت هذه البشرى ، ببشرى نجاة قريش على يد الأمين ، مما كان يتهدها من حرب ودمار ..

ورددت محافل مكة قول الشاعر القرشي : (٢)

تساجرت الأحياء في فصل خطة	جرت بينهم بالنحس من بعد أسعد
تلاقوا بها ، فالبعض بعد مودة	وأوقد ناراً بينهم شر موقد
فلما رأينا الأمر قد جد جده	ولم يسبق غير سأل المهند
رضينا وقلنا : العدل أول طالع	يجيء من البطحاء من غير موعد
ففاجأنا هذا الأمين محمد	فقلنا : رضينا بالأمين محمد

(١) السيرة : ٢٠٤/١ - ومثله في تاريخ الطبري ٢٠١/٣
(٢) هو هبيرة بن ابي وهب المخزومي . راجع السيرة : ٢٠٩/١

فقد حدث قبيل ذلك بأمد قصير ، أن أجمعت قريش أمرها على أن
تعبد بناء الكعبة ، بعد أن أطال ترددها في ذلك ، تهيبا وتحرشجا ..

وكانت الكعبة قد أضرت بها شرارة طارت من مجمرة احدى النسوة ،
فأحرقت ستائرها وأوهت بنياتها ، ثم انحدر سيل دافق من الردم الذى
بأعلى مكة ، فتصدعت الجدران المتأثرة بفعل الحريق ، ووقفت قريش
أمام حرمها الأقدس مكتوفة اليدين ، لا تدرى ماذا تفعل لتحتفظ بالبيت
العتيق الذى جعل من « مكة » مركز حج العرب جميعا ومهوى أفئدتهم ،
وأنزل قريشا ، بحكم جوارها للحرم ، منزلة لا تدانيها منزلة قبيلة
سواها ..

وشاع اذ ذاك أن البحر رمى بسفينة رومية جنحت الى جدة ، فسعى
اليها رجال من قريش ، وعادوا بأخشاب السفينة ، وبرجل قبطى مصرى
تجار بناء (١)

وتم الاستعداد لتجديد الكعبة ، وقريش ما تزال تتهيب أن تهدم بناءها
الأول ، حتى قام « الوليد بن المغيرة المخزومى » فأخذ المعول وقال :
« اللهم لم نزع ! اللهم انا لا نريد الا الخير ! » ثم أهوى بالمعول والقوم
ينظرون اليه مرتاعين ، خائفين عليه وعلى أنفسهم جميعا . فلما لم يصبه
سوء ، أبوا مع ذلك الا أن يتربصوا ليلتهم تلك ، ليروا ماذا يكون .
وأصبح « الوليد » غاديا على عمله لم يمسه شر ، فهدم وهدم الناس معه
وتنافست القبائل فى جمع الحجارة لبناء الكعبة ، وشارك « محمد »
فى ذلك العسل المجيد ، فكان ينقل الحجر مع الناقلين ، حتى اذا تم
البناء ، اختصت قبائل قريش فى الحجر الأسود ، كل قبيلة تريد أن
تستأثر بشرف رفعه الى موضعه . واشتدت الخصومة حتى أنذرت بحرب ،
ومكثت قريش على ذلك أربع ليال أو خمسا ونذر الخطر ترداد ، حتى
قام فيهم « أبو أمية بن المغيرة المخزومى » - وهو يومئذ أسن قريش
كلها - فقال :

ترى هل مر بيالهما في تلك اللحظة خاطر مشترك ، هو أن الله رزقهما بأثى ، وليس الذكر كالأثى ؟ ..

وهل ود كلاهما لو أن الوليدة كانت ولدا ؟

ربما ، فما من شيء كهذا بمستغرب من زوجين مثلهما ، في فطرتهما السوية ، وتأثرهما الموروث بما جبلت عليه يبتئها من حب البنين . لكن ذلك خاطر لم يكن بالذى يعكر عليهما صنو الفرحة بسلامة الوضع ، أو يشوب حرارة ترحيبهما بمولد طفلتهما الأولى بشائبة من فتور . وتشبثت الأم بوليدتها أياما قبل أن تدفع بها الى الموضع المختارة ، على المؤلف من عادة أشرف مكة ..

وشغلا بالحديث عنها طوال فترة رضاعتها ، حتى عادت أشبه بزهرمة غضة باسمه ، أضفت على البيت مزيدا من الاشراق والبهجة ..

ولم يطل بها المقام في البيت ، حتى استقبل أختها « رقية » (١) فافتصل بها الأمل في نساء الأسرة ، واعتدها الأبوان الكريمان بشرى خير وبركة ..

ثم جاءت من بعدهما « أم كلثوم » وكان الظن أن يضيق الأبوان بمولد أثى الثالثة ، في بيئة مفتونة بالبنين ، ولكنها أدركا أن الأمر في هذا لله وحده ، وما كانا ليجحدا نعمته عليهما ، ومن ثم أقبلا على طفلتهما الثالثة ، شاكرين لله ما أعطى ، طامعين مع هذا في مزيد من كرمه ..

وأقبل العام العاشر من زواج محمد وخديجة ، وهما يستعدان لاستقبال الثرة الرابعة للزوجية المباركة ..

وصادف مولدها ، حادثا جليلا في تاريخ الأب ، وتاريخ مكة الدينى أجمع ..

(١) لم يتفق الاخباريون وكتاب السيرة ، والنسابون ، على ترتيب ولادة أبناء محمد «ص» وما هنا ليس الا ما اطمانت اليه بعد مقابلة الرويات فى مختلف المصادر الاصيلة ، على ما سوف تبين فى الفصل التالى . وتكتفى هنا بالاشارة الى ما جاء فى الاستيعاب «٤/١٨٣٨: « زعم الزبير وعمه مصعب ان رقية كانت اصغر بنات رسول الله صلى الله عليه وسلم . واياه صحح الجرجاني النسابة . وقال غيرهم : اكبر بناته زينب ثم رقية » ١ هـ - وانظر ص ٥٩ وما بعدها .

أبو البنات

واستمرأت متاعب الحمل واستخفت ثقله ، فظلت طوال شهوره
الثلاثة ، تعد دنياها لاستقبال الوليد ، وتختار له الموضع قبل أن
يولد (١)

حتى اذا آن أوان الوضع ، واجهت التجربة - التي تعرف شدتها
وقسوة آلامها - في شجاعة فذة واحتمال نادر ، على حين وقف الزوج
في محرابه ، ينتظر اللحظة الحاسمة بلهفة مشوية بشيء من القلق ، ثم
يلبث أن تبدد حين انبعثت من مخدع الوالدة ، صيحة رقيقة واهنة ،
معلنة قدوم الوليد السعيد ..

وتبعثها صيحات ابتهاج عالية ، سرت مع الهواء الى الحرم ، وبلغت
أسماع الحي القرشي ، فعرف القوم أن خديجة بنت خويلد وضعت
مورودها الأول ، لمحمد بن عبد الله بن عبد المطلب ..

ومضت فترة من الوقت والأب الكريم يرنو الى مخدع زوجته مستشار
انشوق الى رؤية الفلذة الحية من صلبه ، ثم فتح باب المخدع عن القابلة
« سلمى مولاة صفية بنت عبد المطلب » (٢) تحمل الى الأب طفله الأولى ،
فتلقاها بين ذراعيه فرحا ، ودنا بها من زوجته الراقدة في فراش الوضع ،
مسترخية الأعضاء من فرط الاجهاد ، بادية الغبطة والهناءة مع ذلك ..

وتلاقت أعينهما على وجه الوليدة الحلوة ، وخفق لها قلباهما وهما
يريان فيها صورتها معا

وسماها أبواها « زينب » (٣)

ونحرت الذبايح احتفالاً بولدها ! ..

(١) الاصابة : ٦١/٨

(٢) ذكر ابن عبد البر في « الاستيعاب ١٨٦٢/٤ » ان سلمى كانت قابلة ابراهيم وبنى
فاطمة رضی الله عنهما

(٣) جاء في الاستيعاب ١٨٥٣/٤ ، عن أبي عمر : « وكانت زينب أكبر بناته صلى الله
عليه وسلم ، لا خلاف أعلمه في ذلك الا عمالا يصحح ولا يسلم »

وأطمئنا إلى حيويتها المذخورة الخضبة ..

فلما لاحت بوادر الحمل ، هز الفرح أعطافها فأقبلت على زوجها مشوقة
تزف إليه بشرى ، ثم بعثت رسلها يذيعون النبأ السعيد في دور بني هاشم
وينشرونه في أحياء قريش ، وأعدت عطاءها على ذوى الحاجة ، وكأننا
أرادت أن تشاركها « مكة » كلها في فرحتها فلا يبقى فيها جائع
ولا محروم ..

يكون لها ولد من زوجها الحبيب محمد بن عبد الله ..
ومعاد الفطرة السوية للأنثوة الناضجة المجربة ، أن تزهد خديجة في
الإبناء ، فلا تتلهف على ولد يؤكد حيويتها ، ويثبت أنها ما تزال فتية
منجبة ! ..

وكيف يُظن بها الزهد في الولد ، وهي ترى زوجها العزيز في عز فتوته.
ونفرة شبابه ، وقد بدأت هي العقد الخامس من عمرها ، في بيئة تتزوج
بناتها دون العاشرة ، وتكتهل نساؤها دون الأربعين ؟ ..

كلا !.. فما كانت امرأة في قريش أشد لهفة على الحمل ، من هذه
السيدة التي جربت الأمومة من قبل وكان لها بنون وبنات . وما كانت
هي نفسها ، في زواجها الأول أو الثاني ، بأشوق منها الى الولد في
زواجها هذا الثالث والأخير ، إذ كانت في المرتين الأوليين ، أبعد من أن
تتهم بالجفاف أو يُظن بها اليأس ، أما في هذه المرة فالأمل في الانجاب
أبعد ، والاتهام باليأس قريب ..

وما أرتاب في أن المخاوف ساورتها في مطلع حياتها الزوجية الجديدة ،
وأشفقت أيضا اشفاق من أن تسك رحمها فلا تجود بولد لهذا الحبيب
الذي لم يتزوج سواها من قبل ، ولا عرف مثلها الولد ..

ولم يرعها أن تتشل عجائز قريش وهن يتربصن بها الأيام لينالن
أشداهن بالحديث عن كهولتها المجذبة وحيويتها الناضبة ، ولا أهمها
أن تتصور سيدات بنى هاشم وهن يتأسفن على زين شباب الهاشيين في
حرمانه من الذرية ، بقدر ما أهمها وراعها أن تكون هي السبب في هذا
الحرمان ، وربما طاف بها طائف من القلق حين يكون زوجها بعيدا
عنها في بعض شئون العسل أو التجارة ، فيذود النوم عن عينيها ويؤرق
لياليها ، ولا تجد ما يسرى عنها الا أن تلوذ بالنساء ضارعة الى الله أن
يتم عليها نعمته ، ويهبها ولدا من زوجها الحبيب . وما تزال كذلك حتى
يثوب اليها محمد ، فتشعر بالحيوية تسرى اليها منه ، وتحس نفحة
عطرة تنسيها هواجسها التي شغلت بالها . وترد اليها ثقتها في نفسها ،

وبدأت حياة زوجية هائلة يظلها الحب المتبادل والتقدير المشترك والمودة الخالصة ، ونهل الزوجان من نبع السعادة صافيا لم تشبه شائبة من كدر ، ثم لم يكد يمضى على زواجهما عامان أو ثلاثة ، حتى بدت يواد الثمر المبارك للزوجية السعيدة ، فخفق قلب « محمد » فرحا وغبطة ، اذ يوشك للسرة الأولى أن يغدو أبا ! وأثارت الأبوة المرتقبة أعماق عواطفه ، وأرق انفعالاته ، وهو مقبل على التجربة العظيمة التي لا يكمل وجود الرجل بغيرها ، فعما قريب يشهد فلذة منه تخرج الى النور وتستقبل الحياة ، لتكون امتدادا لحياته ، وعما قريب يرى صورته ممثلة في كيان صغير لطيف ، تتم به هذه السعادة التي عرفها منذ عرف « خديجة »

وذكر أمه التي رحلت عن الدنيا وهو صبي في السادسة ، وذكر أباه الذي ثوى في « يثرب » وولده ما يزال جنينا في رحم أمه « آمنة بنت وهب » ، فتمنى لو أنهما عاشا ليفرحا بوحيدهما ويملا أعينهما من مولوده المنتظر ..

ولم ينس جدّه الشيخ « عبد المطلب » الذي كان له من بعد أبيه أبا ، فرق قلبه وهو يستعيد ذكراه ، وتندت عيناه شجوا ورحمة ، ثم أب من تأملاته وراح يرقب زوجته الحبيبة وهي تروح وتغدو في الدار بخطوات أثقلها الحمل العالى ، ووجهها المشرق يتألق بسنا السعادة والحنان ..

لم تكن هذه تجربتها الأولى في الأمومة ، فقد ولدت البنين والبنات من زوجها السابقين : عتيق بن عائد المخزومي ، وأبى هالة التميمي (١) ، فهل تراها كفت عن التشوق للأبناء ووجدت فيمن ولدت ما يرضى أمومتها ويغريها بالقناعة والاكتفاء ؟ ..

معاذ الحب أن تقنع أمومة خديجة بأبنائها الأولين ، فلا يشوقها أن

(١) الإصابة : ٦١/٨ - الاستيعاب ١٨١٧/٤ وانظر «جمهرة انساب العرب» ١١٢٢ ، ١٩٩
خط الذخائر وكذلك « نسب قريش » ٢٢ ذخائر ، و « تاريخ الطبري ١٧٥/٣ »

وربما كان أول ما تذاكره القوم يومئذ ، قصة ابنة عمِّ لخديجة ، ثرية ناضجة ، اختارت هي الأخرى فتى هاشميا فقيرا وعرضت عليه نفسها منذ ستة وعشرين عاما ، وان كان لم يستجب لها ..

تلك هي « رقية بنت نوفل » الأسدية ، أخت ورقة : لمحت عبد الله ابن عبد المطلب اثر انصرافه من الكعبة بعد أن افتدَى من الذبح وفاء لنذر أبيه ، فلمحت عليه مخايل مجد مرجو ، وعرضت عليه نفسها ، وله مثل الإبل المثة التي نحرت عنه ، فاعتذر في نلطف ومضى فتزوج آمنة بنت وهب ، فتاة بنى زهرة (١) ..

وهذه هي خديجة بنت عم رقية ، تتقدم بكل جاهها وراثتها وعزتها ، الى ابن عبد الله ، تعرض عليه أن يتزوجها .. وعاش « ورقة بن نوفل » ليسمع استجابة محمد لخديجة بنت عمه ، ويشهد حفل عرسها ، بعد أن شهد بالأمس البعيد انصراف عبد الله أبي محمد ، عن أخته بنت نوفل ..

وحين كانت منامر مكة في شغل بالحديث عن الزوجين السعيدين ، كان « ورقة » يسترجع ما ذكرته له « خديجة » من وصف غلامها ميسرة لرحلته مع محمد في مالها الى الشام ، ويربطه بما سمع منذ ستة وعشرين عاما ، من كلام أخته عن النور الذي رآته في وجه عبد الله ، فيكاد « ورقة » يلمح في صهره الشاب ، ملامح النبي المنتظر الذي شاع أن زمانه قد أطل ، ثم يصحو الشيخ من تأملاته فيقول :

لججتُ وكنت في الذكرى لجوجا

لهمَّ طالما بعث النبيجا

ووصفٍ من « خديجة » بعد وصف

فقد طال انتظاري يا خديجا (٢)

(١) ابن هشام : السيرة ١٦٤/١ - تاريخ الطبري ١٧٤/٢ وطبقات ابن سعد (١/٥٨ أول) ولاعلم خلافاً فإن التي عرضت نفسها على عبد الله ، هي بنت نوفل ، واخت ورقة ، لكن الخلاف على اسمها : نقل السهيلي في (الروض الانف ١/١٠٢) أن اسمها رقيقة بنت نوفل ، ونقل النويري في (نهاية الأرب) أنها قتيلة بنت نوفل ! وقد عرضت هذا الموضوع مفصلاً في كتابي « أم النبي »

(٢) ابن هشام : السيرة ٢٠٢/١

رحلته ، حيث خفق له قلب سيدة نساء قريش وأخذها منه تفرداً سماته
وجلال شخصيته ، حتى اذا كانت السنة الخامسة والعشرون من عام
القبيل - ١٥ قبل المبعث - دقت الطبول في الدار ، احتفالاً بزواج زين
شباب قريش شرفاً وأمانة وخلقاً ، بالسيدة خديجة بنت خويلد بن أسد بن
عبد العزى بن قصي ، سيدة نساء قريش وأعظمن شرفاً وأكثرهن مالا (١)
وقضت مكة أياماً وليالي ، ولا حديث لها إلا عن ذلك الزواج المشهود
ولم تكن بهجة الحفل وحدها هي التي استأثرت بحديث القوم ، وانما
كانت المفاجأة غير المنتظرة ، فما دار بخلد أحدهم أن ترغب « السيدة
خديجة » في الزواج من جديد بعد الذي عُرِف من زهداها في الرجال
وانصرافها عنهم وردِّعاً سادة قريش واحداً بعد الآخر رداً مؤسفاً ، ولا
خطر ببالهم أن يكون « محمد » ابن الخامسة والعشرين ، هو الزوج
المختار للأرملة الثرية ، ذات الأعوام الأربعين ..

وإذا كان رجال من قريش قد تقموا يوماً على العقيلة الغنية ، أن
تؤثر عليهم شاباً غير ذي مال ، فلعل بنات هاشم قد تحدثن طويلاً عن
شبابه الغض ، تستأثر به سيدة تزوجت من قبل مرتين ، وتصرفه عن
العذارى الهاشميات ، ذوات الصبا الندى والحسن النضير ..

على أن أحداً من هؤلاء أو أولئك لم يزعم - صادقاً - أن خديجة في
عزتها وشرفها وراثها ، غير كفاء لمحمد ، أو أن محمداً في عراقه نسبه
وطيب عنصره وجمال شخصيته ، غير كفاء لخديجة ، وانما أقصى ما قيل
عنها ، انها كهلة ثرية في الأربعين ، وانه شاب فقير في الخامسة
والعشرين (٢)

وحين ذهب أثر المفاجأة ولم يعد يجدى حديث عن فارق السن والثروة
بينهما ، كفت أندية قريش ومسامر مكة عن ذلك الحديث العقيم ، وبدأت
تستعيد ذكريات بعيدة أثارها المناسبة ، وتنفض عنها غبار السنين ..

(١) ابن هشام : السيرة ٢٠١/١ وانظر (جمهرة أنساب العرب) ص ١١١ ط النخاس
(٢) لم نطل الحديث هنا عن الزوجين ، وانما اقتصرنا على القدر الذي نحتاج اليه في
الحديث عن الابوين . ولن شاء أن يرجع الى الفصل الخاص بالسيدة خديجة رضي الله
عنها في كتابي « نساء النبي » - ط الهلال

في جوار الحرم الأقدس ، حيث دور قريش حافّة بالمسجد الحرام
مستأثرة دون سائر القبائل بذلك الشرف الأسمى ، قامت الدار التاريخية
التي كتب لها أن تشهد عرس محمد بن عبد الله الهاشمي ، وأن تستقبله
بعد خمسة عشر عاما من العرس ، عائدا من غار حراء ، بعد أن تلقى
رسالة السواء ..

وهذه الدار قد ارتفع عنها الطريق ، فيُنزل إليها بعدد من الدرجات ،
توصل الى مقر قامت على يساره شبه مصطبة مرتفعة عن الأرض بنحو
قدم ، وطولها عشرة أمتار ، أما عرضها فأربعة ..

وعلى اليمين باب صغير ، يُصعد اليه بدرجتين ، يؤدي الى طرقة ضيقة
عرضها نحو مترين ، وفيها ثلاثة أبواب : يفتح أولها - من الجانب
الأيسر - على غرفة صغيرة مساحتها نحو ستة أمتار ، كانت للنبي المختار
محرابا ومعبدا ، ويؤدي الباب الأمامي الى بهو متسع طوله ستة أمتار
وعرضه أربعة ، وقد جعل مخدعا للزوجين ، أما الباب الثالث فعلى يمين
الداخل ، وهو يفتح في غرفة مستطيلة ، طولها سبعة أمتار وعرضها
أربعة ، وقد جعلت لبنات محمد ، وعلى طول هذا المسكن من ناحية
الشمال فضاء واسع ، مساحته ستة عشر مترا في سبعة أمتار ، ويرتفع
عن الأرض بنحو متر ، وفيه كانت السيدة « خديجة » تخزن تجارتها قبل
الزواج ، فلما تزوجت واعتزلت التجارة ، استعملت هذه المساحة مضيقة
لاستقبال الضيوف (١)

هذه هي الدار التي استقبلت محمدا - أول ما استقبلته - يوم اختارته
السيدة خديجة ليخرج في مالها الى الشام متاجرا ، ثم استقبلته عائدا من

(١) نقلنا هذا الوصف ملخصا من « الرحلة الحجازية » - وفي تاريخ الطبري ٢/١٩٧ «
تحديد لمنزل خديجة الذي تزوجت فيه من سيد البشر

الأخوات الأربع

- البيت والأبوان.
- أبو البنات
- الشقيقان
- الشقيقات الأربع
- في بيتهن الأول

وهذا الخبر وحده ، يغنينى عن مزيد من البيان لمدى الحاجة القصوى فى بيئة الرسول ، الى مثل أعلى يروضها على تغيير موقفها من الإناث، فهذا عمر ، صهر النبى وصاحبه الذى أعز الله به الاسلام ، قد وعى ما نزل من آيات الله فى النساء ، وكان من أفقه المسلمين بالدين القيم ، ومع ذلك كره أن تشترك معه زوجته فى أمر له ، وأنكر منها أن تشير عليه برأى ، فلما تمثلت بابتته حفصة استفظع واستنكر ، وانطلق اليها مغضبا يسألها فيما سمع ، وإنه ليطمع فى أن تجيب بالنفى ، لكنها أكدت له أنها ، ونساء النبى ، يراجعنه صلى الله عليه وسلم ، فانصرف عمر عنها مغضبا لا يكاد يصدق أذنيه ، الى أن رده « أم سلمة » بكلمتها التى تفيض عزة وابهاء : « عجا لك يا ابن الخطاب ، قد دخلت فى كل شىء حتى تبتغى أن تدخل بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وأزواجه » ؟ (١)

وتلقى « عمر » الدرس البليغ من بيت الرسول ، وكذلك تلقاه الصحابة والمسلمون ، فلا عجب ان رأينا « أبا دجانة » (٢) الفارس ، يأخذ سيف الرسول فى معركة أحد ، وينطلق به مختالا وقد عصب رأسه بعصابة له كانت تسمى عصابة الموت ، فما يلقى أحدا من المشركين الا صرعه ، حتى يبلغ « هند بنت عتبة » ترأر فى قومها محرضة على الفتك بالمسلمين ، فيضع الفارس السيف على مفرقها لكنه لا يلبث أن ينأى به عنها وهو يقول : أكرمت سيف رسول الله أن أضرب به امرأة ..

هذا هو « محمد بن عبد الله » فى انسانيته الرفيعة وبشريته المثالية ، وأبوته الرحيمة التى تفيض بأرق العواطف وأنبها ، وأحسب أن قد آن الأوان لتحدث عنه صلى الله عليه وسلم أبا لبنات أربع ، ولِدن له جميعا قبل أن يبعث رسولا ، وعشن حتى شاهدنه فى نضاله الأقدس ومعركته انظافرة الخالدة ..

(١) وانظر مناقشة أم المؤمنين حفصة ، للرسول عليه الصلاة والسلام فى (طبقات ابن سعد : ٧٣/٢) ط بريل
(٢) هو الصحابى الفارسى ، سماك بن خرشة . انظر ترجمته فى (الاصابة والاستيعاب والطبقات الكبرى) واقرأ قصته مع هند بنت عتبة فى (السيرة) ٣ ص ٧٣

الفتح ، لاذ رجلان من بنى مخزوم ببيت أم هانئ بنت أبي طالب ، فدخل أخوها « على » في أثرهما فقال : والله لأقتلنهما . فأغلقت عليهما باب بيتها ثم سعت الى الرسول وهو بأعلى مكة ، فأخبرته خبر الرجلين من بنى مخزوم ، وإصرار أخيها « على » على قتلها ، فقال الرسول :

« قد أجرنا من أجرتِ يا أم هانئ ، وأمنا من أمنت ، فلا يقتلنهما » (١)
ثم كانت معاملة النبي للإناث ، على قرب العهد بالجاهلية ، فوق الذى طمئن فيه أو طسحن اليه من عزة وكرامة ومروءة ..

ومامن ريب فى أن البيئة كانت محتاجة الى هذا المثل الصالح والقدوة الطيبة فى شخص الرسول الكريم لتقاوم ما ألفته فى معاملة الإناث .
ويكفى لتقدر تلك الحاجة ، أن نسترجع هنا حديث عمر بن الخطاب :

« والله ان كنا فى الجاهلية ما نعد للنساء أمرا حتى أنزل الله تعالى فيهن ما أنزل ، وقسم لهن ما قسم ، فبينما أنا فى أمر اتنمره اذ قالت لى امرأتى : لو صنعت كذا وكذا ؟ .. فقلت لها : وما لك أنت ولما ها هنا ؟ .. وما تكلفك فى أمر أريده ؟ .. فقالت لى : عجا يا ابن الخطاب ، ما تريد أن تراجع أنت ، وان ابنتك لتراجع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يظل يومه غضبان ؟ ..

« فأخذت ردائى ثم انطلقت حتى دخلت على حفصة فقلت لها :
— يا بنية ، انك لتراجعين رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يظل يومه غضبان ؟

فأجابت : « انا والله لتراجعه ! »
« ثم خرجت حتى دخلت على « أم سلمة » لقرابتى منها ، فكلستها ، فقالت لى : « عجا لك يا ابن الخطاب ! .. قد دخلت فى كل شىء حتى تبغى أن تدخل بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وأزواجه .. »
فأخذتنى أخذا كسرتننى به عن بعض ما كنت أجد » (٢)

(١) ابن سعد : الطبقات الكبرى ١٠٤/٢ ط بريل - ابن هشام : السيرة ٦٠/٤
(٢) المحب الطبرى : السمط الثمين ١٨٣ ط حلب

وروى البخارى كذلك حديث الصحابي الذى جاء يستأذن الرسول فى أن يوصى بماله للمسلمين ، اذ كان لم يرزق بولد ذكر ، ولم تكن أحكام المواريث قد نزل بها القرآن بعد ، فسأله الرسول : هل له بنات ؟.. فلما أجاب بنعم ، أبى عليه الرسول أن يوصى بماله ، وله بنات كذلك فعل الرسول مع امرأة من الأنصار جاءت بابتين لها فقالت : « يا رسول الله ، هاتان ابنتا ثابت بن قيس ، قتل معك يوم أحد ، وقد استفاد عمهما مالهما وميراثهما كله فلم يدع لهما مالا إلا أخذه ، فما ترى يا رسول الله ، فوالله لا تنكحان أبدا الا ولهما مال » فقال الرسول متأثرا : « يقضى الله فى أمرك » وأمهلهما الى الغداة ، فنزلت آية المواريث ، فقال صلى الله عليه وسلم : ادعوا لى المرأة وصاحبها . فلما جاء ، قال لعم البنتين : أعطهما الثلثين ، وأعط أمهما الشن ، وما بقى فهو لك » (١) وما رؤى أكرم منه قط فى معاملة الإناث والترفق بهن والانتصاف لهن ، ولقد يكفينى هنا أن أشير الى موقف نبيل ، لا أعرف أدل منه على مدى ما كانت الأنثى تطمح اليه من عزة وكرامة فى كنف الرسول : عن عائشة رضى الله عنها ان فتاة دخلت عليها فقالت وهى بادية الانفعال والغضب : إن أبى زوجنى ابن أخيه ليرفع به حسيسته وأنا كارهة . فدعتها السيدة الكريمة لتجلس حتى يأتى النبى صلى الله عليه وسلم وجاء النبى ، وسمع شكوى الفتاة ، فأرسل الى أبيها حتى اذا حضر جعل أمر الفتاة إليها . فقالت وقد زال عنها ما كانت تشعر به من غضاضة : « قد أجزت ما صنع أبى ، ولكن أردت أن أعلم : أللنساء من الأمر شىء ؟ »

ولقد أجزت زينب بنت الرسول ، أبا العاص بن الربيع عندما أسر بالمدينة قبل أن يسلم (٢) . واستأمنت « أم حكيم بنت الحارث بن هشام » — عام الفتح — لعكرمة بن أبى جهل ، فأمنه الرسول مع أنه كان قد ذكر اسمه بين الذين أمر بقتلهم ولو وجدوا تحت أستار الكعبة . وفى يوم

(١) سنن ابن ماجه : ١٨/٤٨
 (٢) ابن هشام : السيرة ٥٣/٤

النبي الإنسان

وما أحسبني في حاجة هنا الى عد الحقوق الانسانية والشرعية والمدنية التي حماها الاسلام للمرأة ، أو بيان المنزلة الكريمة التي وضعها فيها : فقد كثر القول في هذا منذ ظهرت الدعوة الى تحرير المرأة (١) ، وكانت الشريعة الاسلامية الغراء هي النبع الأول الذي استمد منه دعاة التحرير أدلتهم وأسانيدهم لدفع ما حاق بالمرأة الشرقية في العصور المتأخرة من ظلم ، وتحطيم الأغلال التي كبّلتها باسم الدين ، والدين منها براء ..

لكن يطيب لى مع ما أعرف ويعرف القراء من هذا كله ، أن أروى بعض ما قرأت من وصايا الرسول الكريم بالإناث ، وأعرض هنا من حديثه معهن ، ما أراه تمهيدا طبيعيا للحديث عن أبوته لبنات أربع :

نقل « البخارى » في صحيحه ، أن السيدة عائشة قالت : « جاءتنى امرأة معها ابنتان تسألنى ، فلم تجد عندى غير تمرّة واحدة ، أخذتها فقسمتها بين ابنتيها ثم قامت فخرجت . فدخل النبى صلى الله عليه وسلم فحدثته بأمرها فقال : من بئس من هذه البنات بشيء فأحسن اليهن ، كنّ له سترا من النار »

وفى صحيح « مسلم » عن أنس بن مالك أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من عال جاريتين حتى تبلغا ، جاء يوم القيامة أنا وهو - وضم أصابعه »

وفى سنن « أبى داود » عن ابن عباس قال : « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من كانت له أثنى فلم يئدها ولم يئهنها ولم يؤثره ولده عليها - يعنى الذكور - أدخله الله الجنة »

(١) للاستاذ سعيد الافغانى : الأستاذ بجامعة دمشق ، كتاب عن « الاسلام والمرأة » ، عرض فيه هذا الجانب عرضا وافيا وانظر كذلك الفصل الذى كتبه عن « المرأة المسلمة » فى كتاب « الاسلام : أمس واليوم وغدا » ط الحلبي بالقاهرة

والقرآن الكريم في خبرته الفذة بطبيعة البشر ، وتقديره الحكيم لما تخضع له من شتى المؤثرات ، أدرك ما يشق على القوم من قهر الوراثة العاطفية وسلطان الطباع التي صنعتها البيئة المادية وحفرت مجراها في نفوسهم على تتابع العصور وتعاقب الأجيال . لكنه كذلك ، في تساميه بالإنسانية ، لم ييأس من رياضة المسلمين على الرضى بالبنات وحمايتهن من أثر الظلم والكراهية ، فتتابعت آياته الكريمة حائثة على اتقاء الله فيهن ، حاضرة على إنصافهن ومساواتهن بالبنين قدر ما تحتل الطباع والأوضاع

فمن أعماق الدهر الأول ، بقى صوت نوح عليه السلام ، إذ يعد نعم الله على قومه فيؤثر البنين بالذكر قائلاً :

« يرسل السماء عليكم مدرارا . ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا . مالكم لا ترجون الله وقارا »
ولم تنج من محنة الزهد في ولادة الأثني ، مريم العذراء ، المصطفاة على نساء العالمين :

« إذ قالت امرأة عمران رب إنى نذرت لك ما فى بطنى محررا فتقبل منى انك أنت السميع العليم . فلما وضعتها قالت رب انى وضعتها أثنى ، والله أعلم بما وضعت ، وليس الذكر كالأثنى ، وانى سميتها مريم » (١)
هى اذن نزعة قديمة فى البشر ، وعادة تأصلت على مر الزمن حتى صارت طبيعة فىنا يعز التخلص منها ولو بعد زوال الأسباب الأولى التى دعت إليها ، والعوامل القديمة التى قضت بها فى أول الأمر : فخروج المرأة الجديدة الى ميدان العمل ، وقدرتها على الكسب المادى ، وإتاحة الفرص أمامها لتظفر بأرقى المناصب وتصل الى أعلى الدرجات ، كل هذا ومثله معه ، لم يضع المولودة الأثنى والوليد الذكر بمنزلة سواء ، ولا أعفاها ساعة ولادتها من الاستقبال البغيض الذى تسجله أغانينا الشعبية

قد يقال هنا ان تغيير الوضع الاقتصادى لا يمنع كراهة الأثنى خوف عار قد يلحق بأهلها من سلوكها ، أو خشية تفتت مال الأسرة عن طريق الميراث ، فترد على هذا بأن البنات مكروهات حتى فى البيئات المتحللة التى لا تكترث بالسلوك ، وفى الأسر الفقيرة التى لا جاه لها ولا مال ، وفى المجتمعات الاشتراكية التى تحد من الملكية ، وتحدد الدخل ، ولا تعترف بجاه موروث ، وما ذاك الا لأن كراهتهن ميراث قد انحدر إلينا من قديم الحقب ، وعادة نشأت فى الأصل بحكم البيئة وأثر العوامل المادية ، ثم أخذت مجراها فى عواطفنا على طول الزمن ، فلم يعد من السهل التخلص منها ، حتى مع تغيير البيئة وزوال العوامل المادية

(١) سورة آل عمران : ٣٥ ، ٣٦

أمر من السماء

وجاء الاسلام فوضع حدا للمأساة البشرية الفاجعة التي جاوزت في بشاعتها أسمى المدى ، وأول ما نزل من آياته تعالى في الوأد ، قوله عز وجل منذرا بيوم الهول الأكبر :

« وإذا الموعودة سئلت ، بأى ذنب قتلت » (١)

ثم نزل من بعد ذلك قوله تعالى في سورة الإسراء وهي مكية :

« وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا .. ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم ، ان قتلهم كان خطئا كبيرا »
ثم قوله تعالى في سورة الأنعام المكية :

« قل تعالوا أتلقوا ما حرم ربكم عليكم : ألا تشركوا به شيئا ، وبالوالدين إحسانا ، ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقهم وإياهم ، ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ، ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون »

ويرى المفسرون ، أن قتل الأولاد في الآيتين ، يعنى وأد البنات .. (٢)
وحكم بالخسران والضلال على السفهاء المقترين الذين قتلوا أولادهم :
« قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفها بغير علم وحرموا ما رزقهم الله ، افتراء على الله ، قد ضلوا وما كانوا مهتدين »
والآية من سورة الأنعام وهي مكية



على أن تحريم الوأد لم يكن ليمنع من الضيق بالبنات أو يحول دون الزهد فيهن ، وقد جرت البشرية على ذلك من قديم العصور والآباد :

(١) سورة التكوير آيتا ٨ ، ٩

(٢) الكشاف : ٣٥٩/٢

تستغل في الملاهي الليلية أو تشرب الخمر علنا في الحانات والمراقص ...
 وإنما يحدث هذا التناقض ومثله ، لأنها كما ذكرت مسائل عرفية
 وليست منطقية ، يفعل الفرد فيها بشعور الجماعة ، ويتأثر بعقلية القطيع
 فيسبغ مالع عقله بأباه ، ويتحمس لتأييد ما كان جديرا بمعارضته لو نجا
 من احتكام العادة وسلطان العرف واستهواء الرأى العام

ونعود الى ما كنا فيه من حديث عن مركز الأنثى في المجتمع العربى ،
 فلا نملك بعد طول البحث والتنقيب عن الأخبار المروية في اعزاز الأنثى
 وتكريمها ، والتناس الأدلة والشواهد المؤكدة بأن مأساة الوأد لم تكن
 عملية إبادة بالجملة ، أقول : لا نملك بعد هذا كله الا أن نعترف بأن
 منزلة البنات كانت دون منزلة البنين ...

وكذلك غير العرب زمانا ومنهم من يدس وليدته في التراب ، ومنهم
 من يمسكها على مضض وهون ، ومن ثم يبيت ساهرا عليها مهموما بها ،
 حتى يدفعها الى زوج كفاء ، أو يسلبها الى القبر خير الأصهار ...

ومن هنا رجحنا في اطئنان ، أن الوأد لم يكن عاما ولا واسع النطاق ، وقدردنا الجانب الآخر من حياة الأثى في المجتمع العربى بالجاهلية ، حيث عاشت الناجيات من الوأد ، ملء عيون القوم وقلوبهم . ومن شاء فليرجع الى الفصل الذى كتبته عن «الأنوثة والأمومة» فى كتابى « أم النبى » (١) ليقرا بعض ما نقلت من أخبار تكريم الإناث وتقديرهن وإعزازهن والاعتراف بماآثرهن

ولا غرابة فى أن تجتمع البيئة الواحدة فى الزمن الواحد بين النقيضين ، فزهده فى ولادة البنت وقد تئدها كراهة لها أو لفرط حبها إياها وخوفها عليها ، فى الوقت الذى تفندى فيه نساء القبيلة بالدماء ! وتضيق بنت تولد ، مع أنها تسمى بها «أما» الى حيث لا مزيد من التكريم والاكبار . لا غرابة فى هذا ، فالحياة ما تزال تجمع بين المتناقضات دون أن يختل نظام الكون أو يضطرب سير الفلك . والأمر فى وأد الأثى أو اعزازها ، مردته الى العادة والعرف والى التقليد الاجتماعى الذى لا يعتمد على شىء من التفكير ، وانما يتم بتوجيه رأى انجساعى دون أن يكون للفرد مستقلا مجال للتفكير فيه ، ولذلك نرى فى الجباعة عثرين متناقضين فى الوقت الواحد : كالذى شهدنا فى البيئة العربية القديمة من تسمية الأصنام بأسماء إناث ، وهذا مظهر تقديس وتكريم ، ومن وأد البنات زهداً فيهن وضيقة بهن

وكالذى نشهده اليوم فى البيئة الرجعية المحافظة ، تعلم الفتاة وتأذن لها فى الخروج والاحتراف ، ثم تأبى فى الوقت نفسه على مخاطبها أن يراها . وشبيه به ما نشهده فى المجتمع الشرقى ، يحرم على الفتاة المسلمة باسم المحافظة والدين دخول المعاهد الدينية ، ويأذن لها فى الالتحاق بسعاهد الرقص والتشيل . ويحدث أحيانا أن تطالب الجامعات من المتخرجات فى كلية الحقوق ، بىناصب القضاء ، فتثور تائرة المحافظين ، مع انهم فى الوقت نفسه لا يحركون ساكنا اذ يرون من بنات المسلمين من

تواترت به الأنباء وسجله عليهم القرآن الكريم

كل الذى نملكه هو أن ننفى عموم الوأد ، ونستبعد القول بأنه كان على نطاق واسع ، وإلا كان ضربا من الانتحار الجباعى ، والاستسلام المخبول للفناء والانتقراض

على أننا لانكتفى بهذا فى نفى عموم الوأد ، بل نضيف إليه أن هناك عوامل طبيعية واقتصادية كانت تعطل عملية الوأد على نطاق واسع :

كان هناك الميراث القديم من عهد « الأمومة » تخلفت بقاياها كما قلنا فى انتساء القبائل والأفراد الى أمهاتهم ، وفى تسمية العشيرة باسم « البطن » وفى تسمية الأصنام والملائكة والآلهة بأسماء اناث ، وهذه البقايا المتخلفة كانت تضى على الأثى لونا من القداسة ، وتعصمها من الإبادة ، وان ظهرت أحيانا بمظهر مناقض هو وأد الفتاة تأثرا - فى رأى بعض علماء الاجتماع - بالطقوس الدينية القديمة ، على نحو ما كان يحدث لعروس النيل ...

وكانت هناك غريزة حفظ النوع وما يتصل بها من حرص على البقاء ، تحمى بقوتها التى لاتدانيها قوة غريزة أخرى ، بنات العرب من الوأد قدر المستطاع

وكانت هناك أثى فى حياة كل رجل : أم ، أو زوجة ، أو حبيبة أو أخت ، تلتطف من النظرة البغيضة الى البنت ، وتفسح أمامها مجال الحياة ثم كان هناك الى جانب هذا كله ، بل قبل هذا كله ، العامل الاقتصادى الذى يجعل البنت حين تكبر ، وعاءاً للولد وصانعة للبنين ، ولئن كان العرب فى نظرهم الجانبية الى البنت قد اعتبروها كلالاً عليهم وعالة ، فلم ينتبهوا الى الجانب الآخر ، وهو أنه لا سبيل الى ولد لا تحمله أثى جنينا وتغذوه رضيعا وتحضنه صبيا وتربيته غلاما وترعاه رجلا ، الا أن الحياة كانت تسير بمقتضى أوضاعها الطبيعية ، مقدره ضرورة وجود البنت لبقاء البشرية وعمران الكون ، غير معنية بما إذا كان القوم منتبهين الى هذا أو غير منتبهين

ثم أبت أن تنضى الى زوجها ، وقادت معركة باسلة انتهت بنصر جديس .
ومقتل الطاغية ..

وكذلك تاه في غمار مأساة الوأد ، مثل حديث « بهيسة بنت أوس بن حارثة بن لأم الطائى » حين خطبها « الحارث بن عوف » سيد بنى عبس ، فلما أراد الدخول عليها كرهت أن يمسها ، واستنكرت أن يخلو للنساء ورأى الحرب تطحن الحيين من عبس وذبيان ، فلم يجد وسيلة الى إرضائها ، إلا أن يخرج فيحتل - هو وهرم بن سنان - ديات القتلى من الفريقين ..

بل كدنا نسى - في غمرة الأسى لمأساة الوأد - أن من الآباء من كانوا بأسساء بناتهم ، كأبى أمامة النابغة الذبياني ، وأبى الخنساء قيس بن مسعود الشيباني ، وأبى سلسى ربيعة بن رباح - والد زهير - وأبى عفراء حنظلة الطائى ، وأبى سفانة حاتم طيىء ، وأبى عزة عمرو بن عبدالله الجبحى ..

وغاب عنا كذلك - أو كاد - أن من سادة العرب من كرموا بمدح بناتهم ، وان من هؤلاء البنات من استجير بها فأجارت ، كبت عوف ، الشيباني ، وفكيهة بنت قتاد التى أجارت « السليك بن السلكة » فأثنى عليها فى شعره الثناء المستطاب

ويزيد فى فداحة المأساة وسوء أثرها وعنف صداها ، أن قيل ان الوأد كان عاما فى القبائل كلها ، على ما نقل « الميدانى » (١) و « النويرى » (٢) وإن أكد رواة آخرون ، ان الوأد لم يكن فى غير تميم وقيس وأسد وهذيل وبكر بن وائل ، وانها جميعا تخلصت منه قبل الإسلام ، الا تميم ، فقد جاء الإسلام وفيها الوأد لا يزال

ومن المحزن حقا ، أننا اذا استطعنا أن نجزم بأن الوأد لم يكن شائعا ولا واسع النطاق - وهذا لا يهون من بشاعته - فلنا بحيث نملك أن نفيه عن أسلافنا العرب ، ولا نحن بقادرين على الارتياح فى أمره وقد

(١) مجمع الامثال : ٢٨٩/١

(٢) نياية الارب : ٤٢/٣ ط دار الكتب بالقاهرة

هو العامل الاقتصادي اذن ، يرد اليه كل ما قيل عن أسباب الواد فلا يتخلف سبب منها ، وعلى هذا مضى القرآن المعجز ، فخص هذا العامل بالذكر ، وفسر الواد تفسيراً اقتصادياً ، راجعاً به كما قلت الى السبب الأول والأبعد ..

ويصف لنا « الزمخشري » كيف كان يتم الواد : « يخرج الرجل وليدته وقد حفر لها بئراً في الصحراء ، فيدسها هناك ويهيل عليها التراب حتى تستوى البئر . وقيل كانت الحامل اذا أوشت على الوضع حفرت حفرة ونقلت قريباً منها عندما يجيئها المخاض ، فاذا ولدت بنتاً رموا بها في الحفرة ، وإن ولدت ذكراً أمسكوا وعادوا به » (١)

تلك صورة بشعة لوضع الأثني في الجاهلية ، وليس بالغريب أن تتوارى بشاعتها أوضاعاً أخرى كريمة لبنات العرب ، كن فيها موضع الاعزاز والحنان ، ولا من الغريب أن تغطي تلك الأخبار السود ، على أخبار أخرى مشرقة ، تحدث عما كان من اثار بعض العرب لبناتهم بالحب ، وافتدائهن بالمهج والأرواح ، وأن يظل الصدى الحزين الذي يترجّع صراخ الموءودات ونواح أمهاتهن الشكالي ، يصدع سماع الإنسانية ، بحيث تنوء فيه أصداء أخرى ، تنتهي إلينا من قديم العرب البائدة ، حيث تروى الأساطير قصة فتاة جديس - وقد نقلها المسعودي في مروج الذهب - التي حررت قومها من جبروت ملك طسم وإذلاله ، حين ثارت على الشرط المشثوم الذي كان يقضى بالألا تزف عروس من جديس الى زوجها ، الا بعد أن تقضى ليلة في فراش الطاغية . وخرجت الثائرة ، من المخدع الملكي ، فانطلقت في الحى بثياب عرسها المنزقة ، الملوثة بدماء العار ، وهى تصرخ :

لا أحد أذل من جديس
أهكذا يفعل بالعروس !

أخريات الجاهلية الا ما كان من نذر « عبدالمطلب » ليذبحنَّ أحد بنيه لله في الكعبة ، اذا كملوا عشرة وبلغوا معه بحيث يمنعونه ، فهو — كما تقول الرواية — لم يرض أن يوجد بأحد أبنائه ، إلا بعد أن اشترط عددا معيناً من البنين ، وأن يبلغوا بحيث يمنعونه . ومع ذلك لم تكد الشفرة . تدنو من عنق الولد ، حتى قامت قائمة قريش وهبوا صائحين :

« والله لا تذبحه أبدا حتى تعذر فيه . لئن فعلت هذا ، لا يزال الرجل يأتي بابنه حتى يذبحه ، فما بقاء الناس على هذا ؟ » ..

ومن ثم اتجهت القصة اتجاها آخر ، وانتهت بافتداء « عبد الله » من الذبح بمائة من الإبل ، نُحرت هنالك عند الكعبة ، وثركت لا يُصكدها عنها انسان ولا سبع ! (١)

ولو أن الذبيح كان فتاة ، لما اهتزت قريش ، ولا عناها الأمر في كثير أو قليل ، وانما ريعت لأن ذبح ولد — وإن كان الذبيح زلفى الى الله ووفاء بنذر مقدس — يهدد القبيلة بخطر الفناء ، أو كما قالت لعبد المطلب :

« فما بقاء الناس على هذا ؟ ! »

والوآد خوف العار ، يمكن كذلك أن يترد الى سبب اقتصادى : فالأغنياء يكرهون الإناث خوفا من تفتت ثرواتهم ، وهو بعينه السبب الذى برّر حرمان البنات فى الجاهلية من الميراث ، وحرص الرجل منهم على أن يخلف على نساء أيه أو أخيه ، احتفاظا بالمال ، أو تركيزا للعزة ، ودرءا لأسباب التصدع

وما وأدهم البنات خوفا من العار ، الا حمايةً لثرواتهم ومراكزهم وجاههم ، من مذلة السبى أو الزواج من غير كفاء . ويبين هذا بوضوح ، فى حديث « قيس بن عاصم » حين وفد على الرسول واعترف بأنه ما وُلدت له بنت الا وأدها ، فسأله أحد المهاجرين : فما الذى حملك ، على ذلك وأنت أكثر العرب مالا ؟ قال : مخافة أن ينكهن مثلك ! ... قالوا : فتبسم رسول الله وقال : هذا سيد أهل الوبر (٢)

(١) ابن هشام : السيرة ١/١٦٠ ، ١٦٤ :

(٢) ابن هشام : السيرة ١/١٦٠ ، ١٦٤ :

أجار بنات الوائدين ومن يجسر

على الفقر يعلم أنه غير مخفر

وكذلك حدثوا أن « زيد بن عمرو بن نفيل » ، كان اذا سمع بفقر
بهم بوأد ابنته ، مضى اليه فقال : « لا تقتلها ، أنا أكفيك مؤنتها » . فاذا
كبرت عاد بها الى أبيها فراجعه في أمرها ، وخيَّره بين استردادها أو بقاءها
حيث هي ، في كنف الذى استحياها ..
قال « ابن اسحاق » فى السيرة :

« حُدِّثْتُ أن سعيد بن زيد بن عمرو ، وعمر بن الخطاب — وهو ابن
عمه وصهره — قالوا لرسول الله : أنستغفر لزيد ؟ .. قال : نعم ، فانه يُبْعَث
أمةً وحده » .. (١)

والوَأد عن فقر ، هو الذى آثره القرآن الكريم بالذكر الصريح فى قوله
تعالى : « ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم ان قتلهم
كان خطأ كبيرا » — الاسراء : ٣١
وقوله : « ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم » —
الأنعام : ١٥١

والقرآن فى هذا ، يمضى بالوَأد الى سببه الأهم والأبعد ، وينتجه به
الى التفسير الاقتصادى الذى يعد من أحدث النظريات فى فهم التاريخ ،
سواء فى ذلك التاريخ السياسى ، والاجتماعى ، والفضى ..
فمهما تتعدد الأسباب التى قيلت فى تعليل الوَأد ، فمن اليسير ردُّها
الى العامل الاقتصادى ، وتفسيرها واحدا بعد الآخر ، بالبيئة المادية :
فوأدهم ذوات العاهات ، يُفسَّر بخوفهم عليهن من البوار ، فيكنَّ
عالة على الآباء ..

والوَأد تأثرا بعبادة قديمة ، يعكِّل اقتصاديا اذا ذكرنا أنهم خصوا
الإناث به ولم يجودوا بالبنين الا فى حالات نادرة لا نكاد نعرف منها فى

(١) السيرة : ٢٤٠/١

وانظر نسب عمر بن الخطاب بن نفيل ، وزيد بن عمرو بن نفيل ، فى « ولد عدى بن لعب
بكتاب (نسب قريش) ص ٣٤٧ وما بعدها — ط الذخائر

لهم به من علم ان يتبعون الا الظن وان الظن لا يغنى من الحق شيئا» (١)
 ولو كان الأمر فى مثل هذا يخضع للعقل والمنطق ، لأبوا أن يتعبدوا
 للأصنام تحيل أسماء إناث ، لكنه التقليد الموروث والعادة المتبعة والأناثية
 العشواء لا تدع لصاحبها عقلا . وما دام الناس من ذكر وأثى ،
 فابتغاسموهما مع الله : لهم البنون والله الاناث :

« فاستفتيهم ، أربك البناتُ ولهم البنون . أم خلقنا الملائكة إناثا وهم
 شاهدون . ألا انهم من إفكهم ليقولون ، ولدَ اللهُ ، وإنهم لكاذبون .
 أصطفى البناتِ على البنين . ما لكم كيف تحكمون . » - الصفات
 ١٤٨ : ١٥٣

ووأدوا خشية فقر وإملاق ، والرواة يذكرون فى ذلك مئات ممن
 استنقذهن « صعصعة بن ناجية » من الوأد لهذا السبب وحده ، وأخريات
 فذهن « عمرو بن زيد بن نقيل القرشى » ..

فأما صعصعة ، فيقال ان أول ما كان من نهوضه بتلك المكرمة ، أنه مر
 برجل من تميم يحفر حفرة ، وغير بعيد منه امرأة تبكى متشبثة بوليدة
 لها . فلما سألها صعصعة عما بها ، أشارت الى الرجل وقالت : هذا زوجى
 يريد أن يئد ابنتى . واثنى صعصعة الى الرجل يسأله : ما حملك على
 هذا ؟

أجاب : الفقر ..

فاقتداها منه بناقتين يتبعهما أولادهما ، وعاش السيد الكريم لا يسمع
 بموءودة عن فقر الاسعى فى فدائها ، فلما مات ترك لبنيه مجدا خالدا ،
 باهى به حفيده « الفرزدق » قائلا :

وجددى الذى منع الوائدات

وأحيا الوئيد فلم يوأدِ (٢)

(١) سورة النجم ، آيتا ٢٧ ، ٢٨ . وانظر معهما : النساء ١١٦ ، والاسراء ٤٠ .
 والزخرف ١٩ - وانظر كذلك مادة (أثى) فى (مفردات القرآن : للراغب الاصفهاني)
 (٢) فى رواية : « ومنا الذى منع الوائدات » انظر هامش ص ٢٤٠ من السيرة ج ١

وزادني رغبةً في العيش معرفتي
 ذلُّ اليتيمة يجفوها ذوو الرحم
 أخشى فظاظة عمٍّ أو جفَاءَ أخ
 وكنت أبكي عليها من أذى الكلِّم
 تهوى حياتي وأهوى موتها شفقاً
 والموت أكرم نزال على الحرم
 إذا تذكرت بنتي حين تدبني
 فاضتْ لعبرة بنتي عبرتي بدم
 كما وصف ما ظفر به بعد موتها من راحة البال فقال :

فالآن نمتُ ، فلا همُّ يُورقني
 بعد الهدوء ولا وجدٌ ولا حلم

وقيل كان الوأد بقية متخلفة من عبادة قديمة ، قدمت فيها الاناثُ
 قرابين الى الآلهة ، على نحو ما عرِفَ عن مصر قبل الاسلام من تقديم
 عروسٍ للنيل ضحيةً وقربانا . ولعل لهذا صلة بما يشير اليه القرآن
 الكريم في آيات عدة ، نعى فيها على القوم أن يجعلوا لله البنات ويستأثروا
 بالبنين :

« ويجعلون لله البناتِ ، سبحانه ، ولهم ما يشتهون » - النحل : ٥٧

« أم له البنات ولكم البنون . » - الطور : ٣٩

« أفأصفاكم ربكم بالبنين واتخذ من الملائكة إناثا ، انكم لتقولون

قبولا عظيما » - الإسراء : ٤٠

كما عجب لهم : يحبون البنين هذا الحب ، ثم يسمون أصنامهم بأسماء

إناث ، زاعمين أنها بنات الله - سبحانه :

« أفرايتم اللاتَ والعزَّى . ومناةَ الثالثة الأخرى . ألكم الذكرُ وله

الأثى . تلك اذن قسمة ضيزى . » - النجم : ٢١

« إن الذين لا يؤمنون بالآخرة ليسمون الملائكة تسميةً الأثى . وما

الموءودة

وما كنا لنظيل الوقوف عند هذه الكراهة التى نراها أثرا محتوماً
للبئنة ، لولا أنها تمثلت فى مأساة الوأد البشعة ، التى ما تزال حتى اليوم
تؤرق الضمير الانسانى ..

ولقد قيل فى تعليق ذلك الوأد أسباب كثيرة : منها أنهم كانوا يثدون
الزرقاء والبرشاء والكسحاء تشاؤماً منها ، ويأساً من تزويجها وفيها عاهة
وآخرون ، وأدوا بناتهم خوفاً من الفضيحة والعار ...
ويقال إن أول من فعل ذلك « لقمان بن عاد » من العرب البائدة ،
وذلك أنه رُوع بخيانة نساءه فراح يقتلهن انتقاماً واشتفاءً ، واذ انحدر
الى الطريق اثر المذبحة ، لقي ابنته فوثب عليها وقتلها متأثراً بما جرب
على النساء من خيانة وسوء ..

ويذكرون كذلك فى هذا المقام قصة رواها غير واحد من المؤرخين
وأئمة المفسرين كالنيسابورى ، والزمخشرى ، والقرطبى ، وخلاصتها : أن
« النعمان بن المنذر » أغار على تميم حين منعته الاتاوة ، فحاربهم وسبى
نساءهم . ولما ذهب قيس بن عاصم ، شيخ تميم ، ليسترد سباياهم ، تخلفت
بنت له مؤثرة أن تبقى مع النعمان ، فعاد « قيس » وقد جن غضبه فوأد
كل بناته . ثم مضى على ذلك ، لا تولد له بنت إلا وأداها ، واقتدى به
رجال من تميم وغيرهم (١)

ووأدوا كذلك رفقا بالبنات ورحمة بهن لما يعرفون من عجز الأثنى
وقسوة الحياة عليها ، فأثروا لهن الموت ، على التعرض لعوادى الزمن
وأفاعيل الحدثان ، واختاروا مرارة الشكل وجميعة الحزن ، على احتمال
هم الأثنى ، والقلق عليها ، ومعاناة الكرب الذى صوره الشاعر فى قوله :

(١) انظر ترجمة قيس بن عاصم المنقرى فى (الاصابة) لابن حجر ، رقم ٧١٩٤
و (جمهرة أنساب العرب) لابن حزم : ٢٠٥ ط أولى ذخائر

ونحن كالأرض لزارعينا
نبت ما قد زرعه فينا (١)

ومن مأثور قولهم لمن رزىء بأثى :

« آمنكم الله عارها ، وكفاكم مؤنتها ، وصاهرتم القبر » ..

وما أكثر الذين رجوا لبناتهم هذا الصهر الرهيب ، ورأوا فيه خير
للأصهار ، قال شاعرهم :

لكل أب بنت" يَرجى بقاؤها

ثلاثة أصهار اذا ذكر الصهر :

فبیت يعطيها ، وبعل يصونها ،

وقبر يواربها ، وخيرهم القبر !

وأشده آخر :

إنى وإن سيق التى المهر :

ألف" ، وعبدان ، وذود" عشر

أحب أصهارى الى القبر !

وشاعت فيهم القولة المأثورة : « دفن البنات من المكرمات » ..

(١) هو أبو حمزة الضبى ، وقصة هجره زوجته ، والشعر الذى فالتة ، فى كتاب
(البيان والتبيين للجاحظ) - ١٦٣/١ ط التجارية ١٩٣٢

قلنا ان طبيعة نظام القبيلة ، قد حبت إلى العرب الأقدمين الانجابَ وأغرتهم بالحرص على كثرة الولد . واذا قيل هذا عن البنين ، فالأمر ليس كذلك بالنسبة الى الاناث ، بل هو جد مختلف : فما هن بحيث يسعن الحمى ويحمين الذمار ، ولا فيهن غنية حين يجد الجد وتتأزم الأمور . وهن بعد ذلك هدف العدو اذا أغار ، يقصدهن أولَ ما يقصد فيكون السبى الذى يورث القبيلة الذل والقهر ، ويجللها بالعار ..

ومن أجل ذلك ، كرهوا أن تولد لهم أنثى ، وهى كراهة تتشمل فى صور شتى ، أهونها الغيظ المكبوت أو المعلن ، وأقساها الوأد . وقد سجل القرآن الكريم ذلك المشهد البغيض الذى كان ينتظر الأنثى ساعة ولادتها ، بأسلوب يجلب عن الوصف ويفوت البيان روعة وعنف إثارة : « وإذا بشر أحدكم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم . يتوارى من القوم من سوء ما بشر به ، أيتمسكه على هون أم يدسه فى التراب ، ألا ساء ما يحكمون » (١)

ووعى ديوان الشعر العربى ، ذلك التشيد الحزين لأم هجرها زوجها ، حين ولدت له أنثى ، وأقام عند جيران له :

ما لأبى حمزة لا يأتينا
يظل فى البيت الذى يلينا
غضبان ألا نلدَ البنينا
تالله ما ذلك فى أيدينا !
وانما نأخذ ما أعطينا

الأنثى فى المجتمع العربى

– كراهة الإناث

– الموءودة

– أمر من السناء

– ونبى إنسان ..

الراحمين ؟ .. قال : بلى .. قالت : أليس الله أرحم بعباده من الأم بولدها ؟ .. قال : بلى .. قالت : فإن الأم لا تلقى ولدها في النار . فأكب رسول الله صلى الله عليه وسلم يبكي ثم رفع رأسه لها وقال : ان الله لا يعذب من عباده الا المارد المتمرد الذي يتمرد على الله ويأبى أن يقول لا اله الا الله »

وعن أبي هريرة قال : « أتت امرأة النبي صلى الله عليه وسلم بصبي لها فقالت : ادع الله له فلقد دفنت ثلاثة .. قال : دفنت ثلاثة ؟ .. لقد احتظرت بحظار شديد من النار »

ولا أجد ما أتوج به هذا الفصل ، أفضل من قوله عليه الصلاة والسلام : « لا يُقَاد والد بولده » فلقد سما بالأبوة الى حيث لا يجوز أن تتهم بقتل الولد عامدة أو مختارة ، فالأصل في الأب أن يفقدى ولده بالمهجة والروح ، ومحال أن يقتله الا في لحظة يغيب فيها عن وعيه ويفقد رشده ، أو تحت وطأة ظروف فادحة ، تشل إرادته وتخرجه عن أبوته بل عن إنسانيته ، وفي الحالين لا يكون مسئولاً عن الجريمة الشنعاء !..

نسمع هذا ومثله ، فنرى الإصرار النبيل على وضع البر بانوالدين قبل الجهاد في سبيل الله ، ورفع الأبوة الى منزلة لا تساميهها منزلة ...
عن أبي أمامة أن رجلا قال : يا رسول الله ، ما حق الوالدين على ولدهما ؟ .. قال : « هما جنتك ونارك »

وانه لحق لا يهدره الشرك : قالت أسماء بنت أبي بكر رضی الله عنهما : « قدمت على أمي وهي مشركة ، في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاستفتيته قائلة : ان أمي قدمت وهي راغبة ، أفأصل أمي ؟ .. قال : نعم .. صلى أمك »

وكذلك لا ينقطع هذا البر بالموت : « عن مالك بن ربيعة الساعدي قال : بينا نحن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم اذ جاءه رجل من بني سلمة فقال : يا رسول الله ، هل بقي من بر أبوي شيء أبرهما به بعد موتهما ؟ .. قال : نعم .. الصلاة عليهما ، والاستغفار لهما ، وانفاذ عهدهما من بعدهما ، وصلة الرحم التي لا توصل الا بهما ، وإكرام صديقيهما »
وانما استحققت الأبوة هذه المنزلة السامية ، لما تبذل وتحتمل في سبيل الأبناء ، ولما تمنح من حب صادق وحنان خالص ، ولأنها في جوهرها بذل وتضحية وإيثار : ورسول الله في انسانيته الرفيعة أكرم من يقدر هذا ويفعل به . حدثوا أن سبيبا قدم على النبي صلى الله عليه وسلم بالمدينة « فاذا امرأة منهم قد تحلب ثديها ، اذا وجدت صبيبا في السبي أخذته فألصقته بطنها وأرضعته ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه : أترون هذه طارحة ولدها في النار ؟ .. قالوا : لا ، وهي تقدر ألا تطرحه . فقال : الله أرحم بعباده من هذه بولدها » (١)

وعن عبد الله بن عمر قال : « كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض غزواته ، فسر بقوم ، وامرأة فيهم تحصب تورها ومعها ابن لها ، فاذا ارتفع وهج التنور تنحت به ، فأتت النبي صلى الله عليه وسلم فقالت : أنت رسول الله ؟ .. قال : نعم .. قالت : بأبي أنت وأمي ، أليس الله بأرحم

(١) صحيح البخارى : ك ٧٨ باب ١٨ وسنن ابن ماجة : ك ٣٧ باب ٣٥

وقد تلقى محمد رسالة ربه ، فكان صلى الله عليه وسلم القدوة الصالحة للمؤمنين والمثل الأعلى فيهم ، ومضى ينظم حياة الجماعة الإسلامية بوحي من ربه ، ويضع لها التشريع الصالح على هدى الكتاب الساوي الكريم ، فرأى العرب من فعالة صلى الله عليه وسلم ، وسمعوا من أحاديثه ، ملمس أعمق مشاعر الأبوة فيهم ، واستثار أنبل ما في نفوسهم التي جبلت على توقير الآباء ورعاية الأبناء ..

روى « عبد الله بن عمرو » عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال :
« الكيائر : الإشرأء بالله ، وعقوق الوالدين ، وقتل النفس ، واليمين الغموس »

وقدّم الرسول بر الوالدين على الجهاد في سبيل الله : « جاء رجل اليه صلى الله عليه وسلم فقال : جئت أبايعك على الهجرة وتركك أبوى بيكيان . فقال : ارجع اليهما فأضحكهما كما أبكيتهما »

قد يقال هنا إن قلبه الرحيم رق لبكائهما ، لكننا نسمع أن صحابيا جاءه يسأل الإذن في الجهاد ، فسأله الرسول : ألك أبوان ؟ .. قال : نعم .. قال : فميهما فجاهد

وحدث الصحابي « معاوية بن جاهمة السلسي » قال : « أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت : يا رسول الله ، إني كنت أردت الجهاد معك أبتغى وجه الله والدار الآخرة . قال : ويحك ، أحيّة أمك ؟ .. قلت : نعم .. قال : ارجع فبرها

« ثم أتيت من الجانب الآخر فقلت : يا رسول الله انى كنت أردت الجهاد معك أبتغى وجه الله والدار الآخرة ، قال : ويحك ، أحيّة أمك ؟ قلت : نعم يا رسول الله . قال : فارجع اليها فبرها ..

« ثم أتيت من أمامه ، فأعدت ما قلت ، فقال : ويحك ! .. الزم رجلها ، فتمّ الجنة ! » (١)

(١) وفى (الاستيعاب) أنه صلى الله عليه وسلم قال لمعاوية : فالزمها ، فان الجنة تحت قدميها - ١٤١٣/٣ ط نهضة مصر

وعرض القرآن كذلك للبنوة ، فصرح في مواضع شتى بأن البنين زينة الحياة الدنيا ، وعدهم من النعم الكبرى التي من الله بها على عباده :
 « يرسل السماء عليكم مدرارا . ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا »
 « المال والبنون زينة الحياة الدنيا »

« ذرني ومن خلقت وحيدا . وجعلت له مالا ممدودا . وبنين شهودا . ومهدت له تمهيدا . ثم يطمع أن أزيد ، كلا إنه كان لآياتنا عنيدا » (١)
 ويقال هنا إن القرآن الكريم حذرنا من الافتتان بالأبناء ، لما يعلم من إسرافنا في حبهم والتعلق بهم :

« زُين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ، ذلك متاع الحياة الدنيا » (٢)

« واعلموا أننا أموالكم وأولادكم فتنة وأن الله عنده أجر عظيم » (٣)
 لكن هذا التحذير ليس — في الواقع — الا اعترافا صريحا بما للبنين علينا من سلطان يشق علينا أن نقاومه ، وما لهم في قلوبنا من حب قد يعصى ويصم ..

والعلاقة بين الأبناء والآباء تأخذ في الرسالة المحمدية وضعا ساميا ، بحيث لا يهدرها اختلاف الدين ولا يفصمها تباين العقيدة . وبلغ من تقدير القرآن الكريم لقوة هذه العلاقة أنه في تحذير الناس من هول اليوم الآخر ، وصفه بأنه اليوم الذي :

« يبصرونهم يود المجرم لو يفتدى من عذاب يومئذ بنيه » — المعارج
 « يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم . يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها ، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد . » — الحج

(١) المدثر ١١ : ١٦ — وانظر آيات : النحل : ٧٢ المؤمنون ٥٥ ، الشعراء ١٣٣

(٢) انظر معها آيات : الحديد ٢٠ سبأ ، المنافقون ٩ ، التغابن ١٥

(٣) الأنفال : ٢٨ — وانظر معها : التغابن ١٥ ، آل عمران ١٠ ، المنافقون ٩ ، سبأ ٣٧

الأبوة العربية

في الرسالة المحمدية ، وفي شخص الرسول

أشرق نور الاسلام ، حين اختار الله من بين العرب من يعثه بختام رسالات السماء ، فبدا من اللحظة الأولى ، أنها رسالة تدعو الى نبذ دين الآباء ، وتعلن الحرب على الأصنام والأوثان التي ظلوا لها عاكفين .. وما كانت قریش لتأبى أن تصغى الى فتاها الأمين الذي ما عهدت عليه كذبا قط ، لولا أن جوهر رسالته يقوم على التوحيد ، ولا يرضى بسا دون القضاء على الآلهة الموروثة عن الآباء :

« وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله ، قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا ، أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون .. » (١) ..

على أن هذا لا يجوز أن يصرفنا عما حف بالأبوة في الرسالة المحمدية من جلال ، أو ينسينا أن الاسلام هو الذي جعل برّ الوالدين تاليا للتوحيد « وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين احسانا ، إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما ، فلا تقل لهما أفّ ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما ، واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا » (٢) ، ولم يأذن الاسلام للابن بعقوق الأبوين حتى مع الشرك ، بل الذي يباح له في هذا الموقف ، هو ألا بطيعهما في ذلك ، دون أن يهدر حقهما عليه في أن يصاحبهما في الدنيا معروفا : « ووصينا الانسان بوالديه حملته أمه وهنا على وهن وفصاله في عامين أن اشكر لي ولوالديك الى المصير . وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما ، وصاحبهما في الدنيا معروفا » (٣) ..

(١) آية ١٧٠ سورة البقرة

(٢) الاسراء : آيتا ٢٣ ، ٢٤ وانظر معيما آية : ٣٦ النساء ، ١٥١ الانعام

(٣) سورة لقمان : ١٤ ، ١٥

سبحانه - في هذا المظهر الانساني ما يستحق به نوح أن يُنحى عن مكانه رسولا يدعو الى الحق ، بل يكتفى ، جل جلاله ، بأن يعظه ، ثم يأذن له في أن يهبط بسلام من الله وبركات عليه وعلى أمم ممن معه !

وسلام على ابراهيم اذ يوعد ربه « رب اجعل هذا البلد آمنا واجنبني وبنى أن نعبد الأصنام . رب إنهن أضللن كثيرا من الناس فمن تبعني فإنه منى ، ومن عصانى فإنه غفور رحيم » (١) ..



هل لنا أن نقول بعد هذا ، ان علاقة الآباء بالأبناء في المجتمع العربى بلغت من القوة مبلغا لا يعرفه مجتمعنا العصرى الحديث ، الذى يميل بالتدريج نحو الانقسام ، ويتخلى شيئا فشيئا عن تقاليد الموروثة في الأبوة والبنوة ، فيعترف للآباء بحقهم في تحديد النسل ، كما يعترف للأبناء بشخصية كاملة الحرية والاستقلال ، بل ربما اعترف لهم أحيانا بأنهم أحق بالحياة بما هم أصحاب الغد ، وعلى الآباء أن يخلوا لهم الطريق ؟

وقلما يفتش مجتمعنا العصرى عن آباء الرجل وأجداده ، بل انه ليميل إلى تحطيم الفوارق الاجتماعية بين الطبقات ، على حين كان المجتمع العربى القديم يعكس أوضاعه وظروفه .. يعتز بكرم الأبوة وعراقة الأصل وشرف المنبت ، ويرى في هذا ومثله مدعاة للفخر الذى ما بعده فخر

وأعود فأقرر هنا ما ذكرته آنفا ، من أن الشك في حدوث هذه القصة ، لا ينفى بحال ما ، دلالتها الصادقة الأمانة على الاعتزاز بكثرة الولد في مجتمع القبائل ، حيث لا أمل لإحداها في البقاء ، إذا لم يكن لها من أبنائها من ينعونها ويحمون حماها ...

ولا أريد أن أدع الحديث عن الأبوة والبنوة عند العرب الأولين ، دون أن أعرض هنا مشهدا انسانيا مؤثرا ، سجل به القرآن ما لعاطفة الأبوة من سلطان قاهر لا قبل لبشر بمقاومته - حين يدعو الواجب - ولو كان من الأنبياء المصطفين . ذلك هو مشهد « نوح » عليه السلام ، حين ركب ومن اتبعوه في سفينته « وهى تجرى بهم في موج كالجبال ونادى نوح ابنه وكان في معزل ، يابنى اركب معنا ولا تكن مع الكافرين . قال سآوى إلى جبل يعصمنى من الماء ، قال لا عاصم اليوم من أمر الله الا من رحم ، وحال بينهما الموج فكان من المغرقين . وقيل يا أرض ابلعى ماءك وياسماء أقلعى ، وغيض الماء وقضى الأمر واستوت على الجودى وقيل بعدا للقوم الظالمين . ونادى نوح ربه فقال رب إن ابنى من أهلى وان وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين . قال يانوح انه ليس من أهلك ، انه عمل غير صالح فلا تسألن ما ليس لك به علم " انى أعظك أن تكون من الجاهلين . قال رب إنى أعوذ بك أن أسألك ما ليس لى به على وإلا تغفر لى وترحمنى أكن من الخاسرين . قيل يانوح اهبط بسلام منا وبركاتٍ عليك وعلى أمم ممن معك ، وأممٌ سمنتهم ثم يمسهم منا عذاب أليم » (١)

فيا للأبوة الرحيمة تأبى أن تلعن الولد الكافر أو تبرأ منه أو تدعو عليه ..

ويا للآيات المعجزة ، تأبى أن تجحد بشرية الأنبياء أو تبرئهم من نوازع الغريزة الأبوية التى لولاها لما قامت حياة . .

ويا للاله الكريم ، يصغى الى دعاء الأب لابن الضال ، فلا يجد

وثمود : « قالوا يا صالح قد كنت فينا مرجوا قبل هذا أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا وانا لفي شك مما تدعوننا اليه مريب » (١)

هم الآباء دائما : سنتهم عبادة ، ودينهم ميراث ، واتباعهم فرض محتوم ونظام القبيلة ، الذي جعل للأبوة مثل تلك المكانة في المجتمع العربي القديم ، هو نفسه الذي جعل العرب يتعلقون بالبنين ويحرصون على الانجاب ويباهون بكثرة الولد ، اذ كانت القوة والكثرة ، هما مناط العزة والمنعة ، وقوام الحياة في مجتمع كهذا يقوم على التنافس بين القبائل والتزاحم على موارد العيش . فلا عجب أن صارت كثرة الولد نعمة ما بعدها نعمة ، كما صار تعدد الزوجات ظاهرة طبيعية لا غرابة فيها ولا شذوذ ..

ونذكر هنا - للمرة الثانية - حديث « عبد المطلب » جد الرسول ، وقد اتهمت اليه سقاية الحجيج وراثه عن جده « قصى » فكان يلتقى في سبيل ذلك كل المشتقة والعناء . واذا يطيل التفكير فيما تناقله الرواة عن بئر زمزم التي طُمرت تحت رمال الزمن ، تلح عليه الرؤى في أن يمشى للتفتيح عن البئر المباركة التي بثت الحياة في الوادى الأجرد ، منذ فجرها الله للجد الأعلى اسماعيل . فيمضى « عبد المطلب » ومعه ابنه الحارث ، وليس له يومئذ ولد غيره ، فما كاد يجيء بالمعول ويبدأ في الحفر حتى قامت اليه قريش ، تقسم ألا تتركه يحفر في ذلك المكان الذي شاءت الأقدار أن يقع بين الوثنين الكبيرين : « أساف ونائلة » . وأدرك عبد المطلب أن قريشا إنما استضعفته لقله ولده ، فندرت له عشرة أبناء ثم بلغوا معه بحيث ينعونه ، لينحرن أحدهم لله عند الكعبة . ثم تلا ذلك ما هو ذائع معروف من انطلاقه ببنيه العشرة الى الكعبة وخروج النسبهم على عبد الله - أصغر بنيه - فهتم بذبحه لولا أن كان الفداء ! (٢)

(١) سورة هود ٦٢ - وانظر معها آيات : الزخرف ٢٣ ، لقمان ٢١ ، ابراهيم ١٠

(٢) ابن هشام : السيرة ٢٦٤/١ - تاريخ الطبرى ١٧٤/٢

تكريم الآباء قد كان تقليدا متبعا ، فمن ارتاب في هذا فليذكر أن العرب يبدأون تاريخهم الديني بقصة جدتهم « اسماعيل » الذي جاد بالحياة طاعة لأبيه ، وتجنبا له من ذنب عصيان الخالق (١) ، ثم يختمون تاريخهم الديني في الجاهلية ، بقصة بنى عبد المطلب الذين ما ترددوا في طاعته يوم أخبرهم بنذره ليذبحن أحدهم لله عند الكعبة ، لو بلغوا عشرة ، بل لبوا طائعين ومضوا يحملون قداحهم الى الكعبة ، حيث وقفوا هنالك بجانب أبيهم الشيخ ، ينتظرون أيهم يكون الذيح (٢) ولنذكر كذلك أن العرب لم يجدوا ما يبررون به عبادتهم للأوثان بعد أن دعاهم محمد - صلى الله عليه وسلم - الى التوحيد ، الا أنهم وجدوا آباءهم لها عابدين :

« واذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا ، أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون . » (٣)
 « فلا تك في مريئة مما يعبد هؤلاء ، ما يعبدون الا كما يعبد آباؤهم من قبل » (٤)

وما تقموا على « محمد ، صلى الله عليه وسلم » شيئا كما تقموا عليه أن غض من آباءهم وسفه أحلامهم وعاب آلهتهم ، بل إن « أبا طالب » نفسه - عم النبي وكافله - ود لو تبع ابن أخيه ، لولا أن وجد غضاضة في مفارقة دين آباءه ، فقال معتذرا : « أى ابن أخى ، انى لا أستطيع أن أفارق دين آبائى وما كانوا عليه ، ولكن والله لا يخلص اليك شىء نكرهه ما بقيت » (٥)

وكذلك فعلت العرب البائدة في سالف الحقب وغابر الدهور : ردوا رسلهم بمثل ما ردت به قريش رسولها ، فقوم عاد قالوا لنبيهم هود : « أجتتنا لعبد الله وحده ، وتذَرَ ما يعبد آباؤنا » (٦)

(١) تاريخ الطبرى ١٩١/٢ ط الحسينية

وانظر آية ١٠٢ سورة الصافات ، وأقوال المفسرين فيها

(٢) ابن هشام : السيرة ١٦٠/١ : ١٦٤ ط الحلبي وتاريخ الطبرى : ١٧٤/٢

(٣) البقرة ١٧٠ ، وانظر معها آيات : لقمان «٢١» والمائدة «١٠٤» والاعراف «٢٨»

(٤) سورة هود : ١٠٩ (٥) ابن هشام : السيرة ٢٦٤/١ . وتاريخ الطبرى ٢١٤/٢

(٦) سورة الاعراف آية ٧٠

الكبير - ملكا غير متوج ، وحاكما لا يُعصى له أمر ، فمن حدثته نفسه بالخروج على سلطانه ، كان الخلع والطرْد والنبد من مجتمع القوم .. وما بنا من حاجة الى التماس الشواهد على ما كان للأب من مكانة في الجاهلية العربية ، فما ذلك بالأمر الذي يخفى ، ولنا أن نقول بعد هذا إن لقريش على وجه الخصوص ، أن تدعى فضلَ تشيها لأعزَّ ما عرف المجتمع العربي من تكريم للأبوة ، إذ كانت هي القبيلة التي ذهبت بأكثر ما للعرب في الجاهلية من أمجاد ، واجتمع لها من العزة والمنعة والجاه والشرف ، ما لم يجتمع مثله لقبيلة أخرى غيرها . فلا ريب أن اعترفت بالأصول والآباء ، وحرصت على نقاء النسب وتخير الأرحام ، وآية ذلك ما نرى من تسجيلها لنسب بطونها وأفخاذها ، ماضية به الى آلاف السنين ، لم يفتها منه أم ولا أب ، على ما نعرف من صعوبة ذلك والأمية فيهم فاشية ، والعهد بهم جد قديم . ولمن شاء أن يطعن في صحة هذا المروى عن سياقة النسب من قريش الى اسماعيل جدهم الأعلى (١) ، فلن نبذل جهدا لننفي شيئا من هذا أو نثبتته ، ولا علينا هنا أن نجادل المنكرين في الذي زعموا من أن سلسلة النسب هذه من صياغة الرواة واختراع كُتَّاب السيرة في عصور متأخرة ، بعد الذي تم لقريش من مجد الدهر باصطفاء الرسول العربي منها ونزول القرآن المعجز بلسانها ، وانسا حسبنا أن نقول إن حرص القوم على سياقة النسب ، يحمل وحده دليل احتفالهم بالأصول وعنايتهم بالأعراق ، وليس يضعف هذا الدليل أن تكون الأنساب قد اخترعت بأخرة ، بل ان هذا الاتهام - إن صدق - أبلغ في الدلالة على ما للأبوة من خطر في تقدير القوم ، والا لما عناهم قط أن يجهدوا أنفسهم باختراع سلاسل من الأنساب يسدون بها الثغرات التي تركتها أنامل الزمن في تاريخ العرب الطويل ..

والحق أن الاعتزاز بالأبوة كان أظهر ما يميز المجتمع العربي ، وأن

(١) راجع في هذا كتاب « نسب قريش » لأبي عبد الله المصعب الزبيري . وقد حققه بروفيسال ونشرته دار المعارف (ذخائر) - وانظر معه (السيرة لابن هشام) ح ١ ط الحلبي ، و (جمهرة أنساب العرب لابن حزم) ط الذخائر

ذلك لأنه اذا كان المنهج العلمى ، يأبى علينا أن نبتز شخصا من بيئته التى صنعتها ، أو أن نفصل بينه وبين آبائه وأجداده الذين تنقل فى أصلابهم جيلا بعد جيل ، فنحن أولى بالألا نقترف هذا الخطأ ، فى الحديث عن بشر رسول ، طالما اعترف بفعل الوراثة فى مثل قوله : « تخيروا لنطفكم فان العرق دساس » أو قوله : « لم يزل الله ينقلنى من الأصلاب الطيبة الى الأرحام الظاهرة مصفى مهذبا ، لا تتشعب شعبتان الا كنت فى خيرهما » كما طالما اعترز بأصله القرشى وبأمهاته « العواتك من سليم » ، وباهى بأنه ابن امرأة من قريش تأكل القديد ..

وهذه الفطرة البشرية السوية فى رسولنا ، التى تعدها الانسانية — كما قلت غير مرة — على اختلاف الأديان والأجناس ، وعلى مر الأحقاب والأدهار ، من آيات عظمته وأسرار بطولته ، هذه الفطرة السوية هى التى تجعلنا نرجع بالحديث عن أبوة « محمد » الى ماض قريب وبعيد ، ملتسقين من صميم البيئة العربية منذ جاهليتها ، الأصول الأولى للأبوة التى تجلت لنا فى « محمد بن عبد الله » قبل مشرق الاسلام ، ثم بعد أن اصطفاه الله نبيا ورسولا ..

والملاحظ الأول الذى نسجله هنا ، هو أن المجتمع العربى فى الجاهلية قد كان يخضع لنظام القبيلة ، وللأبوة فى هذا النظام مقام جليل وشأن ذو خطر ، ذلك لأن القبيلة فى أصلها لا تعدو أن تكون فروعاً تكاثرت من جذر واحد هو الأب الذى تنتمى اليه . ثم ، بمضى الزمن تنمو الفروع فيغدو كل منها قبيلة مستقلة ، على نحو ما نرى فى انفصال الخلايا الحيوية أو الاجتماعية عن أصلها الأول ، عندما تنهيا لها مقومات الحياة مستغنية عن ذلك الأصل ..

ويحدث أحيانا ، وبخاصة فى الأطوار البدائية ، أن تنتمى القبيلة إلى الأم ، وهو طور عرفته العربية فى جاهليتها القديسة ، وبقيت منه آثار فيها حتى بعد أن تطورت الى الدور الأبوى ..

وطبيعة هذا النظام ، تجعل شيخ القبيلة — الذى هو فى الواقع أبوها

حين تهيأت للكتابة عن بنات النبي صلى الله عليه وسلم ، بدأت أقرأ في كتب السيرة والحديث والتاريخ ، لأستخلص منها ما يتصل بهؤلاء الكريسات اللواتي شرفن بأبوة عرفتها البشرية منذ كانت . غير أنى ما كدت أمضى في القراءة ، حتى وجدت أنى لن أستطيع الوفاء بحق الموضوع ، اذا لم أبدأ قبل كل شىء بدراسة متفرغة لأبوة محمد ، وهى دراسة شاقة ، تحتاج دون ريب الى خبرة دقيقة بالمجتمع العربى ومعرفة مكان الأبوة فيه ، لكى يكون لنا من هذا كله ما يجلو صورة الأب الرسول ، ويزيدنا ادراكا لنواحي السمو والجلال فيها .

والحديث عن الأبوة فى المجتمع العربى ، حديث يطول ، وأخشى اذا أنا أرسلت قللى يكتب فيه ملء عنانه ، أن يستغرق أكثر القدر المفروض لهذا الكتاب أو يجور على الموضوع الأصيل الذى يحدده عنوانه ، ومن ثم رأيت ضبطا للتناول ، أن أنسقه فى أجزاء ثلاثة : ألم فى أولها بالأبوة العربية كما تصورها الحياة الجاهلية ، وأنتقل منها الى هذه الأبوة كما تيدو فى الرسالة المحمدية ، ومن ثم فى شخص الأب الرسول ..



أما الأبوة العربية كما تصورها الحياة الجاهلية ، فربما بدا لأول وهلة ، أنها غير ذات اتصال قريب بموضوعنا ، لكننا اذا ذكرنا أن محمدا صلى الله عليه وسلم تزوج قبل أن يبعث بخمسة عشر عاما ، وأن بناته الأربع جميعا قد ولدن فى الجاهلية ، وأدركن المبعث وثلاث منهن متزوجات ، اذا ذكرنا هذا ثم أضفنا اليه ما نعرف من احتكام الوراثة وأثر البيئة ، بدت لنا صلة « الأبوة العربية فى الجاهلية » بموضوعنا ، قوية وثيقة الى حد لايسمح لنا بتجاهلها أو التغاضى عنها ، حين نحاول أن نتحدث عن « محمد » فى أبوته ..

الأبوة في المجتمع الغزلي

- الأبوة في الجاهلية
- الأبوة العربية في الرسالة المحمدية
- وفي شخص الرسول الكريم

وهذا الايمان العميق بعظمة البشر الرسول ، هو الذى وجّه دراساته للجوانب التى اخترتها من شخصيته الفذة : فكان كتابى عن « أم النبى » محاولة لفهم جانب النبوة فى الوليد اليتيم الذى وضعت امرأه من قريش تأكل القديد ، كما تضع كل أثنى من البشر ، ليكون بعد أن يبلغ أشده ، المصطفى المبعوث بآخر رسالات السماء ..

وكان كتابى عن « نساء النبى » محاولة لدرس شخصية الزوج الرسول ، إذ يبارس حياته الزوجية فى بيته بشرية سوية ، لم تجردها النبوة من العواطف والرغبات ، ولم تنكر على نساءه - أمهات المؤمنين - نوازع الفطرة وميراث حواء !

وهذا كتابى عن « بنات النبى » أحاول فيه أن أستجلى ملامح شخصية الأب الرسول ، وأن أعرض صورة أمينة لعاطفة الأبوة ، مثلة فى شخص نبى إنسان ، سواه الله بشرا وأراد له أن يكون والدا لبناتٍ أربع ، فى بيئة وأدت الاناث وقتنت بالبنين ..

وبعد ، فأحسب أن قارئى يقدر أن لموضوع هذا الكتاب من الجلال والمهابة والحرمة عند مثلى ، ما يحميه من شطط القلم وجموح الخيال ، ومن ثم لا أرانى فى حاجة الى أن أؤكد أن مادة الكتاب تاريخية أصيلة ، قد أخذت من مصادرها الأولى ، وأن ليس لى من عمل فيه سوى جهد البحث وأمانة النقل وأسلوب التناول والأداء ..

لكنما يعينى هنا أن أقول : إنه اذا كان بعض قومى يتخرجون من التحدث عن الجانب البشرى فى حياة الرسول زوجا وأبا ، فإنى لأحمد الله على أن عصم ايمانى من مثل هذا التخرج المنكر الذى يشعر بأن من أنباء الحياة الخاصة لخاتم الأنبياء ، ما يحتاج الى سترٍ أو كتمان ! .. ومعاذ الايمان بعظمة الرسول الكريم الذى تلا علينا من هذه الأنبياء ، آيات قرآنية يتعبد بها منا من يؤمن بالله ، ويصدق برسالة محمد بن عبد الله الهاشمى القرشى ، عليه الصلاة والسلام ..

بنت الشاطيء

مصر الجديدة

رمضان : ١٨٣٢ - (مارس : ١٩٦٣)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

تمضى القرون والأدهار ، وشخصية « محمد صلى الله عليه وسلم » موضع اهتمام الكتاب والدارسين على اختلاف نحلهم وشتى مذاهبهم يجدون فيها المادة الخصبة للدراسة الجديدة أبدا ، ويلتسسون لديها ما يجلو أسرار العظمة الانسانية كما تمثلت في بشر رسول ، بهر الدنيا وصنع التاريخ ، وإنه ليأكل الطعام ويشى في الأسواق ..

ذلك لأن الانسانية - على كثرة من عرفت في تاريخها الطويل من رسل وأنبياء ، وقادة وأبطال - ستظل أبد الدهر تنو الى هذا النبي العربي الذي لم يحاول قط أن يبرأ من بشريته ، بل أصر على الاعتراف بها في اعتزاز مؤثر ، لا يعرف التاريخ له مثيلا ..

وحين تختلف بالناس الأديان ، وتفرقهم المذاهب والملل والأهواء أحزابا وشيعا ، تظل البشرية مابقيت ، تباهى بأن يكون منها نبي ، حمل الى الدنيا رسالة التوحيد التي رفعت عنها وصمة الوثنية ولعنة الشرك ، وجاء الناس بدين الاسلام الذي أصر على تقرير بشرية الأنبياء :

« قالت لهم رسلهم إن نحن إلا بشر مثلكم ، ولكن الله يمن على من يشاء من عباده »

« قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي أنما إليكم إله واحد »

« قل سبحان ربي ، هل كنت إلا بشرا رسولا »

« وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا أبعث الله

بشرا رسولا »

« ذلك بأنه كانت تأتيهم رسلنا بالبينات ، فقالوا أبشر يهدوننا ،

فكفروا وتولوا واستغنى الله ، والله غنى حميد »

PJ
7816
ISSB3



الطبعة الرابعة
أول مارس سنة ١٩٦٦
٩ من ذى القعدة سنة ١٣٨٥

بنات النبي، محمد.

بنات النبي

عليه الصلاة والسلام

Banāt al-Nabī

تأليف

الدكتورة عائشة عبدالرحمن

«بنت الشاطئ»

أستاذة بجامعة عين شمس

دار الهلال

بنات النبي

عليه الصلاة والسلام

الدكتورة بنت الشاطئ

الطبعة الأولى

PJ
7816
I55B3

Bint al-Shāṭi'
Banāt al-Nabī

PLEASE DO NOT REMOVE
CARDS OR SLIPS FROM THIS POCKET

UNIVERSITY OF TORONTO LIBRARY
